هدية العدد

كتاب دبي الثقافية ١٤١

يناير ٢٠١٦

ليل العالم

مدونة ابو عبدو

رواية

نبيل سليمان

5075

كتاب
دبي الثقافية

يصدر عن مجلة دبي الثقافية
ويوزع مجاناً مع المجلة
الإصدار ١٤١

ليل العالم

رواية

نبيل سليمان

■ الطبعة الأولى، يناير ٢٠١٦
■ حقوق الطبع محفوظة لدار الصدى

كتاب دبي الثقافية

المدير العام رئيس التحرير
سيف محمد المري

مدير التحرير
نواف يونس

متابعة
يحيى البطاط
محمد غبريس

المدير الفني
أيمن رمسيس

الإخراج والتنفيذ
محمد سمير

مدير العلاقات العامة
محمد بن مسعود

مجلة دبي الثقافية تصدر عن
الصدى
دار الصدى للصحافة والنشر

عناوين المجلة
www.alsada.ae

■ التحرير والادارة دبي:
الإمارات العربية المتحدة دبي
منطقة الصفا شارع الشيخ زايد
هاتف: ‎+٩٧١٤/٣٤٢٢٢٢٤
فاكس: ‎+٩٧١٤/ ٣٤٢٢٩٢٩ ٣٤٢٢٦٦٦
أبوظبي هاتف: ‎+٩٧١٢/٦٢٦٨٨٩٢
فاكس: ‎+٩٧١٢/٦٢٦٨٨٨٣
■ الإعلانات والتسويق:
دبي شارع الشيخ زايد
برج المدينة (٢) شقة ٤٠٢ ص.ب: ٢٩٠٦٦
هاتف: ‎+٩٧١٤/٣٣١٤٣١٤
فاكس: ‎+٩٧١٤/٣٣٢٢٢٩٢
■ التوزيع والاشتراكات:
هاتف: ‎+٩٧١٤/ ٣٤٩٠١٠٠
فاكس: ‎+٩٧١٤/٣٤٩٠٦٠٠

هذا الإصدار

بقلم: سيف المري

قراءنا الأعزاء، يسعدنا ويشرفنا في مجلة «دبي الثقافية» أن نتواصل معكم من خلال هذا الإصدار «ليل العالم» للناقد والروائي نبيل سليمان، محاولين التواصل مع جميع قراء مجلتنا على رغم الصعوبات التي يمر بها عالمنا العربي وهو يعيش هذه المرحلة الجديدة من تاريخه.

وها نحن ذا في «دبي الثقافية» نقدم لكم هذا الإصدار واضعين نصب أعيننا ما نذرنا أنفسنا له، وهو نشر الثقافة العربية وتقديمها للقراء الأعزاء من خلال كتاب «دبي الثقافية» الشهري، مع حرصنا على التنويع في شتى مشاربنا الثقافية، تعميماً للنفع، وحرصاً على محاربة الرتابة المفضية إلى الملل، ولن نألوَ جهداً في إضافة المزيد، وكل ما نتمناه من قرائنا الأعزاء هو التواصل معنا، وإتحافنا بآرائهم

وملاحظاتهم حول هذه الإصدارات التي نقصد بها خدمة الثقافة العربية، والتعريف برموزها، راجين إيجاد العذر لنا عند وجود أي تقصير.

والله من وراء القصد

ليل العالم

رواية

نبيل سليمان

إنها حكاية معتوه ملؤها الصخب والعنف

شكسبير

كالمقدمات

١ - الإعلان

٢ - هكذا خنقوا هفاف

الإعلان

عندما نادى المنادي بخنق هفاف، حسبتُ أن مكبر الصوت يلعلع بنكتة جديدة.

كانت كلما لعلع المكبر بأمر، تتعوذ أو تحوقل، ثم تغرق في صمتٍ ندر أن طال. وفجأة تنفرج شفتاها المخضلّتان دوماً عن ابتسامة محيرة، بالأحرى: نصف ابتسامة، مشفقة تارة، شامتة تارة، وقد تنضح بالمرارة، وقد تقطعها أو تعقبها الكلمة الوحيدة: نكتة.

هذه المرة كان أول ما صادفني مكبر الصوت الذي يلعلع على سطح النقطة الإعلامية. توقفت أسوة بمن توقفوا أمام النقطة، وربما كان قد فاتني قليل أو كثير من اللعلعة حين تبيّنت صوت أبو محمد العدناني يعلن أن الدولة الإسلامية قررت إعلان الخلافة الإسلامية وتنصيب خليفة دولة المسلمين، ومبايعة الشيخ المجاهد أبو بكر البغدادي، فقبل البيعة، وصار بذلك إماماً وخليفة للمسلمين في كل مكان.

تعالى التكبير حولي، وتعالت القبضات، وركبني الخوف، بخاصة حين التفت إلـيّ شاب كان بجانبي وهو يجهش ويرمي رأسه على كتفي. ولما حررني من رأسه كان أبو محمد

العدناني يلغي اسم العراق والشام من مسمّى الدولة ومن التداول في المعاملات الرسمية، ويأمر بالاقتصار على اسم الدولة الإسلامية ابتداءً من هذا البيان.

هذه المرة كبّر صوتي مع من كبّروا، وحاولت قبضتي أن تتعالى، لكنها طافت فتخفّت كما سيفعل رأسي وهو يُطرق ويجرني إلى ساحة الخنق.

الحكم بالإعدام عنقاً على الكافرة هفاف العايد: نكتة. وبكاء الشاب على كتفي: أليس نكتة؟ هل أبكته الفرحة؟ أم أن الوجد أبكاه؟ ودورية الحسبة هناك ما تكون؟

تعلقت نظراتي بسيارة (الفان) الفضية اللامعة، فاضطر رأسي إلى أن يرتفع قليلاً، مغالباً الخوف من الدورية. وعندما تجاوزتني بسلام، تنهدت عميقاً، وتحلّب ريقي متلذذاً بالأمان، واندفعت نظراتي تحيي شارع تل أبيض، من موقعي إلى منتهاه. وعندما تابعت السير أحسست بفراغ هائل يجتاحني، وبقلبي ينتفض، فتباطأت، ورحت أغمض عينيّ وأمسكهما قبل أن أفتحهما، وخفت من توهان خطواتي. وقبل أن أنعطف في شارع اليمن الفرعي الذي يفترض أنه يختصر الطريق من شارع تل أبيض إلى... إلى أين؟

إلى أين أمضي في هذه الظهيرة الحارّة؟

تباطأت لعلّي أتمكن من جواب. لكن الجواب حرن. توقفت، ومسدت على صدري، وخيّل لي أن انتفاضة قلبي قد هدأت، وتذكرت ساحة الخنق، فتابعت السير متمهلاً. لكني قبل أن أبلغ نهاية الشارع الفرعي القصير أحسست أن يداً هائلة لعملاقٍ هائل ترميني في فراغ هائل.

عندما ارتطمتُ بالقعر صاحت هفاف برجل كان يطوق عنقها بحبل: خافوا من الله.. ما بدكم من هالذبح.

صحت بها مصححاً: قولي: ما بدكم من هالخنق. لكنها تابعت والرجل يشد الحبل: ارجعوا إلى الله.. دولتكم ملعونة.

صحت بها مصححاً: قولي: خلافتكم. لكنها تابعت وقد نفص لسانها وازداد طولاً وسماكةً: لا خير في كثير من نجواهم.

عندئذٍ أدركت أنني ماضٍ إلى دَوّار الدلّة الذي سميته أحياناً دَوّار الخنق، وأحياناً ساحة الخنق، منذ تلك الظهيرة الربيعية الباردة التي شهدت تنفيذ حكم الإعدام خنقاً بالكافرة هفاف العايد. سوى أنني لن أتفرج هذه المرة على إعدام بالخنق أو بالذبح أو بالشنق أو بالرصاص، بل سأتفرج على الاحتفال بإعلان الدولة، وربما سيكون عليّ أن أبايع أمير المؤمنين وخليفة المسلمين أيضاً.

هكذا خنقوا هفاف

اصطخب الفضاء بالرصاص فتسمّر منيب أمام صيدلية الهدى. ماذا كان اسمها قبل أن يستولوا على المدينة؟

كانت أصوات الرصاص تأتي من الجهة المقابلة زخّات متقطعة، ثم صارت تتواصل من سائر الجهات. وقدّر منيب أنهم يحتفلون بإعلان الدولة والخلافة، لذلك قرر العودة إلى البيت. ولأن ساقيه كانتا تنتظران القرار، طارتا به، ولم تحطّا إلا في مدخل البناية، وكانت أصوات الرصاص قد نأت وعادت تتقطع.

تبادلت عيناه وأصابعه التحية الصامتة مع عيون وأصابع أم باسيل وقارو، الأولى في الشرفة الهاجمة من الطابق الثالث، وقارو في بداية الدرج الذي طوته قدما منيب طيّاً، كأنما تفران من خطر وشيك.

أمام باب الشقة توقف بانتظار أن يلحق به أحد، ليسأله عن هفاف أو يحدثه عنها، مثلما أَلِفَ من أم باسيل على الأقل، في الأيام القليلة التي سبقت الخنق، والكثيرة التي تلته. ولم تكن أم باسيل تبادل أحداً بأكثر من التحية الصامتة، إلا منيب، منذ غافلها باسيل وزوجته وبنته واختفوا مثلما اختفى كثيرون

وكثيرات لم يعودوا مسيحيّين ولا نصارى، بل أهل الذمة.

شو يعني أهل الذمة يا أستاذ منيب؟

ليس هذا صوت أم باسيل يسأل كلما صادفته، بل هو صوت باسيل يلاحق منيب الذي يجر خطواته في الشقة كارهاً.

أصرّ منيب على الصمت وهو يطل من باب على غرفة النوم، ومن باب على غرفة المكتبة، ومن باب على المطبخ، ومن باب على الشرفة. عندئذٍ تلاشى صوت باسيل، فأحكم منيب إغلاق الأبواب جميعاً، وأوى إلى الصالون، وتكوم قبالة الشاشة السوداء.

قبل أن تضيء الشاشة، قاست نظرة متأنية منه ما بينها والباب الذي يمكن أن يكون خلفه من يتنصت: احذر يا منيب. إنه صوت هفاف يترجّع كأنه قادم من غور سحيق، وصدر منيب يندفع لهفان، وسمعه يتشهّى، والصوت يتخافت: الله سبحانه ألهمني أن أختار قناة الرحمة، وأن تكون القناة تبث آذان العشاء. رفعتُ الصوت وأصغيت لحظة ثم زحفت إلى الباب، و...

تبسّم منيب إذ صُعق الشاب الذي كان يتنصّت وهو يرى شعر هفاف عارياً، ففرّ، بينما كان يلاحقه صوت المؤذن وقد توحد بصوت هفاف: رحْ قل للوالي: هفاف العايد تبلغك السلام وتقول لك عيب، للبيوت حرماتها يا مؤمنين.

ضاقت الشاشة بالصمت وهي تستعيد مشاهد من مباراة الأرجنتين وإيران. تعلقت عينا منيب بالكرة التي راحت تتراقص بين قدمي ميسي. ومع الكرة انقذفت أنفاسه، ومثل الكرة ارتطمت أصابعه بالشباك، وصاح: الله أكبر، وصاحت هفاف: احذر يا منيب، وبهت منيب، وأطبقت كفه على فمه، وأشاح عن الشاشة إلى الباب، وعن الباب إلى الشاشة التي كانت تلتهب احتفالاً بفوز الأرجنتين على إيران.

انتقلت الشاشة إلى مشاهد أخرى من مباريات كأس العالم، بينما سرى في عروق منيب صدى شجيّ لصوت هفاف: إذا خبطوا عليك الباب فلا تفتح قبل أن تنتقل إلى قناة دينية.

وإذا لم أكن أتفرج؟

تأكد من أن صورة الكعبة هي خلفية الشاشة.

وإذا لم أكن أستخدم الموبايل؟

اخف الكتاب الذي تقرأ فيه وافتح القرآن الكريم.

وإذا لم أكن أقرأ؟

تأكد من أن سجادة الصلاة هنا، وسط الصالون. إياك أن تبدل اتجاهها عن القبلة أو تحرفه. احرص على أن تكون سجادة الصلاة أول ما تقع عيونهم عليه.

أمرك يا شيخة هفاف، أمرك يا حاجة: تمتمت شفتاه،

وشقّقهما الفقد، وأعتمت الشاشة: انقطعت الكهرباء. والآن إلى البطارية.

لكن منيب أغمض عينيه لتضيء الشاشة وهي تنفتح على دَوّار مثل دَوّار الدلة، سوى أنه أكبر، والدلّة فيه أيضاً أكبر، والحشد الذي يتلاطم فيه أكبر من الحشد الذي تفرج على خنق هفاف.

هل هذه هي حقاً ساحة الخنق؟!

لكأنها قطعة من السماء الزرقاء، لا تستقر على شكل.

لا، ليست هذه الساحة من السماء ولا من الأرض. ربما كانت قطعة من صفحة النهر الزرقاء التي لا تستقر على شكل أيضاً. بل هي بالضبط قطعة من صدر منيب الذي غلب الشيب عليه، كما غلب على ما تبقى للرأس من الشعر.

القطعة إهليليجية، يحف بها مئات من الذين لبوا نداء الفرجة في ظهيرة هذا اليوم الرابع والعشرين من الشهر الثالث من العام ٢٠١٤.

في وسط القطعة، أي في وسط الصدر، أي في القلب تماماً، مثلما كان في دَوّار الدلّة: بساط أحمر كبير يتوسطه رجل طويل وضائع في جلبابه الأفغاني الأسود، وفي لثامه الأسود، وفي حذائه الرياضي الأسود.

أمام قدمي الرجل امرأة جاثية، يدا المرأة مقيدتان خلف ظهرها. المرأة ضائعة أيضاً في جلباب أسود. شعر المرأة مدفون في غطاء أسود. رأس المرأة يقاوم ضغط كف الرجل فيملص يميناً ويملص يساراً ويرتفع قليلاً جداً ويُطرق كثيراً جداً، وفجأة يفلت من كف الرجل، وترشق العينان المتفرجين بسهام تقدح، فيرتد المتفرجون مذعورين، وربما كانوا سيفرون لولا أن قدم الرجل هوت على رأس المرأة، بدلاً من كفه، بينما أسرعت يداه بالحبل إلى عنقها.

انصاع رأس المرأة، ونقل الرجل قدمه إلى ظهرها، بينما راحت يداه تشدان الحبل. انتفض رأس المرأة، وربما كان جذعها هو ما انتفض، وطال الانتظار قبل أن تفلت يدا الرجل الحبل، لترتمي المرأة على البساط الأحمر. وطال الانتظار قبل أن ترفع يدا الرجل رأس المرأة عن البساط شبرين أو ثلاثة، ثم تفلتاه، فيسقط: **الله** أكبر.

كبّر الرجل، وكبّر الملثمون السود الثلاثة الرابضون على أضلاع البساط، فكبّر المتفرجون وتفجرت القطعة الإهليليجية من صفحة النهر الزرقاء، ومثلها تفجرت قطعة من السماء الزرقاء، ومثلهما تفجرت ساحة الدلّة، ومثلها تفجر صدر منيب صمتاً ونحيباً وخوفاً وقهراً وهزيمة.

كالمتون

فصول من زمن الخنق

فصول من زمن العشق

فصول من زمن التيه

فصول من ربيع أبيض.. ربيع أسود

فصول من زمن الخنق

١– لماذا خنقوا هفاف؟

٢– من يخنق من؟

٣ – جرح قلبي نهار وليل ينزِفْ.

٤– قد يكون الكأس سبباً.

٥– فوضى هفاف أم فوضى الحكاية.

٦– من جمعة إلى جمعة.

٧ – انتحار سنية.

٨ – عيد ميلادها.

٩ – الفتيل١.

١٠ – الفتيل٢.

١١ – بين يدي الأمير

١٢.حكمة الكذب

١٣ – بين يدي الأمير

١٤ – في أي قاع هي؟

لماذا خنقوا هفاف؟

قالت أم باسيل في صباح الجمعة الأولى بعد الخنق: لا أنت وحدك حبست نفسك في البيت، ولا أنا وحدي. الرقة كلها حبست نفسها بعدما خنقوا هفاف.

ورسمت أصابع أم باسيل الصليب على صدرها للمرة الرابعة أو الخامسة بعدما فتح لها منيب الباب.

ربما كانت المرة الأولى، لِمَا رأت من ذقن منيب، وانتفاخ أجفانه. وربما كانت لِمَا جبهها من عتمة الصالون أو من رائحته: كأنه بيت مهجور، قالت.

وقالت: كأنك كنت في القبر.

فسمع منيب صوته للمرة الأولى منذ خنقوا هفاف:

– أنا في القبر يا أم باسيل.

صلّبت أم باسيل، وتمتمت بصوت راجف لم يسمعه منيب، أو لم يتبينه، وراح يتفرج عليها وهي تفتح النافذة بحذر، وتترك للستارة أن تبقيها مواربة. ثم اقتربت كأنها تتلصص من الباب الكبير الذي يفضي من الصالون إلى الشرفة، وفتحته بحذر أكبر، تاركة للستارة أن تبقيه موارباً، وقالت:

– خلّ البيت يتنفس. خلّه يبدل الهواء.

واختارت لجلستها الكنبة المقابلة للشاشة، وجلس منيب على الكنبة المقابلة لسجادة الصلاة. وتعلقت نظراته بأم باسيل كأنه ترجو عوناً، فأقبل عليه صوتها حنوناً يحضنه ويربت على كتفه. وسرعان ما أحس أن صوت أم باسيل يمسح على وجهه، وكانت تترحم على هفاف، وتسأل أسيانة: لماذا خنقوها؟

لطم السؤال صدر منيب. ولأن عجزه كان قد بلغ مداه منذ ليلة الخنق الأولى، كان على أم باسيل أن تكرر السؤال، ساخطة مرة، وخائفة مرة، وحيرى مرة، قبل أن يستوي صوتها كأنه يحكي حكاية. ولعل ذلك ما جعل منيب يغمض أجفانه، ويصدق أنهم خنقوا هفاف جزاءً على ما عدّوه مروقها يا أخي منيب: المرأة عورة! هكذا علمني كبتي ميرا، فعلّمتني، وعلّموها وعلمتني أنْ ليس للمرأة أن تزغرد ولا أن تنوح. إذا كانت هفاف لم تنح، فقد شقت زغرودتها بطن السماء يوم سقوط التمثال. أخي منيب: نسيت؟ كنت تقف بيني وبين هفاف قبل أن يحشر أخوها موسى نفسه بينكما. كانت الساحة تضيق بالناس على وسعها، والرئيس حافظ الأسد يطل علينا بعباءته المذهبة. البلدوزر أمام التمثال، الباكر يرفع شوكته حتى توازي رأس التمثال ثم تهوي، والأنفاس تنكتم في

صدورنا. صمتنا مثل صمت القبور حتى خبطت شوكة الباكَر كتف التمثال. حتى أنا المسيحية كبّرت مثلكم. باسيل إلى يساري كبّر وصلّب، فصلّبت، وميرا إلى يساره صلّبت، وكان الباكَر أو البلدوزر أو كلاهما قد جعلا التمثال يترنح قبل أن يسقط على البلاط الذي ارتجّ كما ارتجّت صدورنا وأصواتنا وأكفنا. وفجأة شقت هياجنا زغرودة هفاف. عمري ما سمعت زغرودة أطول من زغرودة هفاف، ولا أعلى. عمري ما رأيت نفساً أطول من نفسها. اسم الصليب. الله يرحمك يا حبيبتي يا هفاف. لو لم تزغردي هل كانوا خنقوك؟

تقلّب منيب في حضن الصوت، كأنه ينشد حكاية أخرى تجيب على السؤال. وأسرعت أم باسيل تتشكك في أن تكون زغرودة واحدة كافية للخنق. لكن هفاف شقت السماء أيضاً بزغرودتها يوم خطب فينا الأب باولو دالوليو. يارب فكّ أسره إذا كان حياً مثلنا وارحمه يا رب إذا كان ميتاً. تمتم منيب: مثلنا، فأجفلت أم باسيل، وسمّتْ باسم الصليب، وصلّبت، ثم تابعت الحكاية: طلّته سحرتني يا أخي منيب. وجه نوراني، وصوت نقي، وأنا بكيت عندما سمعته ينادينا: يا إخوتي. نحن إخوة. كلنا إخوة. لا فرق بين سوري وسوري. ادعوا معي ليل نهار من أجل أن يعم السلام. وعندما أعلن أن الرقة هي

المنطلق إلى تحرير العاصمة، ماذا جرى؟

أفسحت أم باسيل لمنيب كي يتمرغ في حنان صوتها، ثم تابعت الحكاية: شقت زغرودة هفاف بطن السماء. نسيت يا منيب؟ عمرك سمعت زغرودة أطول؟ ولاّ أعلى؟ عمرك رأيت نفساً أطول من نفسها، الله يرحمها؟ لو لم تزغرد هل كانوا خنقوها؟

ملص منيب من حضن الصوت، وحدق ملياً في عيني أم باسيل، وهالته فساحتهما، لكأنه لم يرهما من قبل. ولما همّتا بأن تذكراه بعيني هفاف، أسرع صوته يسحج:

– لم يخنقوها لأنها زغردت.

هزت أم باسيل رأسها مؤمّنة، وحاصت نظراتها بين لوحتي الجدار المقابل، والشاشة المعتمة، وكانت نظراته تتعقبها، فلما بلغت المصحف المعلق على يسار الباب المفضي إلى المطبخ، سحج صوته:

– هذا المصحف هدية هفاف، والحقيبة من تطريزها.

همست أم باسيل:

– أعرف. أهدتني مثلها. قلت لها: مسيحية يا هفاف وفي بيتها مصحف، من سيصدق؟ قالت: كلهم سيصدقون، وعددت: من النصرة إلى أحرار الشام إلى داعش.

– يحميكَ منهم: قالت لي.

قال منيب بصوت أنقى. ولعل هذا ما شجع أم باسيل على أن تقول جازمة:

– معك حق. لم يخنقوها فقط لأنها زغردت.

xxx

وانتظرت أن يعقب منيب، لكنه لبد في حضن الصوت، كأنه ينشد حكاية جديدة، وإذا بأم باسيل تقول:

– قتلوها بسببي أنا وابني باسيل وزوجته ميرا. قتلوها بسببنا نحن المسيحيين.

ورقّ صوتها حتى اشتبه بالغناء الحزين أو بالبكاء الصامت، قبل أن يصير نواحاً بالكاد تتبينه أذنا منيب وهي تروي عن باسيل، أنّ زملاء له في المستوصف ما عادوا يحيونه ولا يردون تحيته. وأن واحداً منهم خاطب آخرين وهو يحدق في باسيل: مصافحة المسلم للمسيحي حرام، مثل مصافحته لليهودي وللكافر. وفي يوم آخر رمى زميل آخر قصاصة على مكتب باسيل، وجاء بها إليّ، وحفظت منها: لا تبدأوا اليهود ولا النصارى بالسلام. وإذا لقيتموهم في الطريق فاضطروهم إلى أضيقه. وإذا سلموا علينا فإنا نقول وعليكم، ولا نصافحهم ولا نعانقهم.

تململ منيب في حضن الصوت الوثير، وفكرت أم باسيل أن الحكاية أو القصاصة قد أساءته. فأخذت تربت على كتفه وهي تروي عن ميرا أن واحدة من زميلاتها في المركز الثقافي خاطبت أخرى، وهما تحدقان في ميرا: الكعب العالي حرام. الكعب العالي يجعل قفاك يبدو أكبر مما هو عليه، ويرجرجه. حرام. تدليس. والمانيكير حرام. المانيكير يمنع الماء عن الأظافر في الوضوء. والسوتيان يا أم باسيل حرام، إلا إذا كان لضرورة: قالت ميرا وهي تغرق في ضحك كالبكاء، وودعت الكعب العالي والمانيكير. وفي اليوم نفسه بدأت هفاف تعلمها كيف تتنقب. وافترت شفتا منيب الذي صار طفلاً عن بسمة هي أيضاً كالبكاء، فضمته أم باسيل بقوة، وتابعت تروي عن ميرا: حتى البنطلون حرام، وكل لباس ضيق حرام. لماذا يا أم باسيل؟ لأن لبس البنطلون تشبّهٌ بالرجال، والرسول صلى الله عليه وسلم لعن من تتشبه بالرجال. وودعت ميرا البنطلون والسوتيان، كما ودع باسيل شفرات الجيليت جي تو ومعجون النيفيا، وأرخى ذقنه، وحمد الله على أنه لا يدخّن، ولكنه أخذ يردد صباح مساء: يلله يا أمي.. يلله يا ميرا.. ما عاد لنا في الرقة مقام.

تنهدت أم باسيل بحرقة وتمتمت: والمسيح اشتقت لهم

يا منيب. ومسحت دمعتين وهي تتساءل: هل أخطأت لأني رفضت أن أرحل كما رحلوا؟ وصمتت هنيهة قبل أن يتيبس صوتها: هل في الرقة مسيحي أو مسيحية غير أم باسيل؟ ولكن إلى متى سأصبر على هذا الحبس الذي أنا فيه؟

تنمّرت جلسة منيب وهو يقول:

– لست وحدك في الحبس يا أم باسيل. ها أنا أمامك. هذا البيت حبس أم لا؟ الشوارع يا أم باسيل، حبس أم لا؟ المدارس، الدكاكين، الساحات، دوائر الدولة، الفرات، السماء، صدر الواحد منا حبس أم لا؟

– أحياناً الموت أهون من الحبس.

قالت أم باسيل كأنما تحدث نفسها، ولأن الموت ذكّرها بهفاف، لهجت بالترحم عليها وهي تقف وتتجه نحو المطبخ، وقبل أن يغيبها بابه قالت: لا تقل لي إنك صرت تصوم في رمضان. ماذا ستشرب اليوم: شاي أم قهوة؟

ولم تنتظر جواباً، فقد كانت تعرف إيثار منيب للقهوة، على العكس منها ومن هفاف: نحن حزب الشاي العربي، تمتمت كما كانت هفاف تفعل كلما اجتمعوا، هنا في بيت منيب، أو في الأعلى، في بيت أم باسيل التي رجفت لِمَا رأت من الصحون والكؤوس والفناجين التي تنتظر من ينظفها. لا يا

منيب. ليست هذه عادتك. كنا هفاف وأنا نضرب المثل بنظافة بيتك وترتيبه، ولا أحسن ست بيت، ولا أحسن شغّالة. ما الذي جرى لك؟ قطيعة. كله بسببهم. الله يرحمك يا هفاف. تعالي يا روحي وشوفي.

ولم تتأخر هفاف بالتلبية، لكنها لم تكن هفاف التي عرفتها أم باسيل منذ كانتا طالبتين في ثانوية خديجة.

عينا هفاف جاحظتان الآن، رقبتها تبدو محزوزة، بل مخلوعة، جلبابها الأسود مشقوق من أعلى الصدر حتى الركبتين، ثدياها هزيلان يتأرجحان، ذقنها مشققة، شعرها أكثر شيباً من ذقن منيب، وقد طال من جهة وقصر من جهة.

سمت أم باسيل باسم الصليب، وأنكرت أن تكون هذه هفاف العايد، صديقة العمر التي ظلت شابة على الرغم من سنيّها الستين. لكن هفاف أمسكت بكتفي أم باسيل وهمست: ارحلي يا أم باسيل. ارحلي قبل أن يفعلوا بك أفظع مما فعلوا بي.

قالت أم باسيل وهي تدقق فيما إن كان الصوت صوت هفاف: كم قلت لك لن أرحل؟

قالت هفاف: ارحلي وقولي لمنيب أن يرحل. قالت أم باسيل: لن يرحل ولن أرحل.

وترجّع في سمعها صوت يسمّي باسم الله الرحمن الرحيم،

من مكبر الصوت في رأس المئذنة الناشبة في السماء قبالة هذه العمارة. ولما انشغلت أم باسيل عن الصوت بعلبتي الشاي والقهوة، أحست بإصبع تلكزها في خاصرتها منبهةً، فأصغت وكان الصوت يقول: هذا ما أعطاه عبد الله أبو بكر البغدادي أمير المؤمنين نصارى الرقة من الأمان: أعطاهم أماناً لأنفسهم وأموالهم وكنائسهم وسائر ذراريهم في ولاية الرقة.

التفتت أم باسيل هلعةً، فأمرتها إشارة من هفاف بمتابعة الصوت الذي كان يتابع هديره: أن لا يحْدِثوا في مدينتهم ولا حولها ديراً أو كنيسة أو صومعة لراهب ولا يجددوا ما خرب منها. لا يظهرون صليباً ولا شيئاً من كتبهم في طرق المسلمين وأسواقهم. ألا يستعملوا مكبرات الصوت عند أداء صلواتهم وسائر عباداتهم. ألا يُسْمِعوا المسلمين تلاوة كتبهم وأصوات نواقيسهم ويضربوها داخل كنائسهم.

وعلى الرغم من هلعها، ربما كانت أم باسيل ستواصل الإصغاء، لولا أن الماء الذي شبع غلياناً حتى فار من إبريق الشاي وركوة القهوة، قد أطفأ الغاز تحتهما، ولولا أن الملثمين أسرعوا إلى كنيسة البشارة، فأنزلوا الصليب عنها، وكسروه، ثم اقتحموا الكنيسة دقائق، ولما خرجوا منها كانت النيران تلاحقهم كما يلاحق الصوت الهادر أم باسيل التي

قاطعته كأنها تنشج: إذاً نحن لسنا سوريين؟ أنا مسيحية إذاً، لكنني لست سورية، ولست مواطنة!

وإذا بصوت هفاف أكبر نشيجاً: مثلي مثلك يا حبيبتي، لا أنا إنسانة ولا أنت إنسانة، فرضوا عليّ النقاب كما فرضوه عليك وعلى ميرا.

قالت أم باسيل: لكنك لا تدفعين نصف غرام ذهب ولا ثلاثة، جزية.

ضحكت هفاف وأخذت تبتعد، فعاجلتها أم باسيل لهفى: إلى أين يا روحي؟

قالت هفاف: إلى الكنيسة يا أم باسيل. لأخي موسى صديق نجار تعهد بأن يحضر لنا صليباً صغيراً. سنعيد الصليب إلى الكنيسة.

فرحتْ أم باسيل لكنها خافت على هفاف، وقالت لها: هذا شغل رجال. لا تذهبي. سيكون عقابك مضاعفاً، أم نسيت أنك مسلمة؟

قالت هفاف: تعالي معي يا ميرا.

ماذا ستفعل ميرا وماذا سيفعل باسيل عندما يعلمان أنهم خنقوك يا هفاف؟

انداحت لوعة أم باسيل في فضاء المطبخ، بينما اندست

هفاف وميرا بين النساء اللواتي اندسسن في الجماعة الصغيرة التي حملت الصليب الخشبي الصغير إلى كنيسة سيدة البشارة. وعند خروج الجماعة من الكنيسة كان قد تحلق حولها ملثمون غاطسون في ثيابهم السود، وكلٌّ قد أشرع موبايله، وراحوا يصورون. وبينما غطت ميرا وجهها، كشّرت هفاف في وجه الموبايل الذي صادفها.

أكملت أم باسيل إعداد الشاي والقهوة، لكنها بدلاً من أن تحمل الإبريق والركوة إلى الصالون، جلست على الكرسي القابع خلف الطاولة المستديرة الصغيرة، وقربت الكرسي المقابل: هاهنا كانت هفاف تجلس. كم جلستُ بينها وبين منيب الذي يكون قد أعدّ لنا طبخته المفضلة: خضرة مشكلة، وبجانبها كؤوس العيران المترعة.

تعالي يا هفاف، اجلسي قبالتي وحدثيني: لماذا خنقوك؟

قالت هفاف: دعيني الآن. سأشرح لك فيما بعد. أخي موسى حماه الله يقود الشباب الآن إلى كنيسة الشهداء. سألت أم باسيل فزعةً: هل عاد المسلحون إليها؟ بعلمي أن جبهة النصرة منعت اقتحامها.

قالت هفاف: موسى بنفسه رأى للنصرة حول الكنيسة ثلاث سيارات مدججة بالمسلحين. والحق يقال: بفضلهم

ابتعدت داعش عن الكنيسة. واختفت هفاف هنيهة أعتم فيها المطبخ كما أعتم صدر أم باسيل ونظرها، حتى إذا أومضت هفاف كان رجال داعش هذه المرة قد اقتحموا كنيسة الشهداء الأرمنية، وحطموا التماثيل، وأشعلوا النار، ثم أسرعوا إلى الصليب الصغير الملتصق بالباب، فانتزعوه وكسروه، وهرست «أبواطهم» كِسَره. وسألت أم باسيل بما تبقى من صوتها: ماذا فعل موسى؟ ماذا فعل الشباب؟ أطرقت هفاف كما يليق بمهزومة، وقالت: أطلقوا الرصاص على أرجلهم، اعتقلوا موسى وثلاثة، وجرحوا عشرة أو عشرين.

وأنت أين كنت؟ سألت أم باسيل.

أنا هنا، مقابلك: قالت هفاف.

اسم الصليب: همست أم باسيل، وصلّبت، ووقفت تحدق في الفراغ، وربما كانت ستزداد بلَهَاً لولا أن منيب كان يملأ باب المطبخ، وينشج بالسؤال: لماذا خنقوا هفاف؟

من يخنق من؟

لليالٍ ظلت هفاف ترابط على حافة السرير، حتى إذا رميتُ رأسي على المخدة التي طرزتْ بنفسها غطاءها الزهري، نادت الرجل الذي خنقها، مرة باسم أبو لقمان، ومرة باسم أبو علي وفي كل مرة ينتزعني الرجل من السرير، ويُركعني على بساط أحمر كما أركع هفاف على البساط نفسه، في ساحة الدلّة نفسها، لكن الساحة تكون في كل مرة خالية إلا منا نحن الثلاثة. وبدلاً من «أبو لقمان» أو «أبو علي» كانت هفاف تقيد يديّ بنفسها، كما تقيد الأف. بي. آي يديّ من تعتقله، ثم تضع عنقي في فتحة الحبل الغليظ، وتهبط «ببوطها» على ظهري، وتبدأ بشد الحبل، ولا ترخي حتى ينفص لساني كما نفص لسانها. عندئذٍ أكون قد أفقت مذعوراً، وطرت من السرير إلى الصالون، ثم طرت من الصالون إلى المكتبة، ثم طرت من المكتبة إلى المطبخ، وجلست على كرسي هفاف، ثم نهضت عن الكرسي مذعوراً، ولعنت الشيطان الرجيم، ووحدت الرحمن الرحيم، وحاولت أن أشرب حتى لو بلعة واحدة من الماء. لكنني بلا حنجرة. كان الحبل قد هرس حنجرتي، وقد سمعت بنفسي صوت طقتها، ثم صوت انهراسها.

وعندما زارتني أم باسيل لأول مرة بعد خنق هفاف، كنت قد يئست من السرير، وأدركت أن للنهار سهراً أمرّ من سهر الليل. ولهذا أو ذاك صرت أغافل النوم، وأرمي رأسي على مسند الكنبة. ولكن لا أكاد أغفو حتى أرى نفسي قد حللت محل الرجل الذي خنق هفاف: أُركعها على البساط الأحمر نفسه، ولكن مرةً في دوّار النعيم، مرة في دوّار الحرية، مرة في ساحة الساعة، وفي كل مرة أحشر رأسها في فتحة الحبل الغليظ، أضع قدمي على رأسها، أشد الحبل، لكنّ هفاف لا تنتفض، ورأسها لا يتهاوى، ولسانها لا ينفص، وعينيها لا تجحظان، ولا ينفر دم من أذنيها ولا من منخريها ولا.. ولا تموت هفاف. وقد أغاظتني بذلك في أول ليلة لي في الصالون، وربما في أول نهار. لكن ذلك سرني في الليلة التالية أو في النهار التالي، كما سرني أن أحداً لم يكن في أي دوّار أو ساحة سوانا. ثم جاءت أم باسيل، وكادت أن تبلسمني لولا أنها رمتني بالسؤال: لماذا خنقوا هفاف؟

جرْح قلبي نهارْ وليلْ ينزفْ

بسرعة السلحفاة التي كانت تستفز هفاف، قاد سيارته الصغيرة – كيّا ريو– حتى ظهرت ثانوية الرشيد.

عند بداية السور أوقف السيارة، وتلفت يبحث لها عن موقف. وقبل أن يكمل عنقه دورته الأولى، ناداه موقف فسيح من جهة اليسار، فأسرع إليه. ثمة، ودّع السيارة مبتهجاً، وحين هبت نسائم العصر الدافئة، طارت نظراته إلى ذؤابات أشجار الكينا السامقة التي قاد حملة زراعتها في الثانوية عندما تولّى إدارتها قبل... قبل كم يا منيب؟

قبل أربعين سنة و... نيف، وأنت الآن العجوز فقط. لم تعد العجوز الشاب كما وصفتك هفاف في عيد ميلادك الستين.

وأنتِ يا هفاف؟

أنا؟ سألحق بك قريباً. بيني وبين الستين خطوتان.

لا يا هفاف. أنت لم تغادري الثامنة عشرة. لم تغادري سنة البكالوريا: القامة الطويلة الصلبة هي هي، الخصر الضامر، البطن الخامص، الصدر النافر، الوجه المدور الساطع، لا طيّة واحدة في الجبين ولا في العنق، ولا عرق أخضر واحد في ظاهر الكف، ولا شعرة شائبة واحدة، عن أي ستين تتحدثين؟

أم عن أي ثلاثين؟

صلِّ على النبي يا منيب. عين الحسود فيها عود يا عجوز ياشب.

أين أنت يا هفاف؟

تعالي وتفرجي الآن على هذه اللحية الشائبة التي تقود صاحبها بسرعة السلحفاة، ولكن على قدميه، ولن تفلته حتى تسلمه إلى الدكتور نوري حاج صبحي.

ستنكرك هفاف جزاءً على هذه اللحية حتى لو لونتها بالحناء كما فعل الدكتور نوري نفسه.

ليس من أجل احمرار عينيه فقط قرر منذ البارحة أن يزور الدكتور نوري. بل من أجل أن يتفقد المدينة أيضاً بعد الحجْر المحكم الطويل الذي فرضه على نفسه منذ خنقوا هفاف. وها هو يقترب من قصر المحافظ.

عن أي محافظ تتحدث؟ عن الذي بنى هذا القصر، ومنه: يلله يا شام، هوب، سيادته صار وزيراً للإعلام، بينما كنت تطير إلى الجزائر، طريداً لمن هذه المرة يا عجوز يا شب؟

من الذي يناديني بهذا النداء بعدك يا هفاف؟

أطلق السؤال ليحوم فوق ما آل إليه القصر: مقر الولاية، وانحرفت خطواته لينأى عن هؤلاء المسلحين غير الملثمين،

والذين غطت رؤوسهم قلنسوات سود. وهكذا صار مقر الولاية إلى يمينه، وقبل أن يصير خلفه واجه شاباً مسلحاً يرتدي بلوزة صفراء يسرح تحتها بنطال أسود فضفاض. أشاح منيب عن الشاب وحثّ السلحفاة على أن تسرع، لكن الشاب بادره بالسلام. وقبل أن ترد التحيةَ تمتمةُ منيب عاجله الشاب:

- بارك الله لك بهذه اللحية. الحمد لله أنْ هداك وما كنا لنهتدي لولا أن هدانا الله.

وقبل أن ترد المباركةَ تمتمةُ منيب عاجله الشاب:

- أظنك لم تتذكرني. أنا فصيح العلي زرتك مرة في بيتك أثناء مرضك، كنتُ مع موسى العايد لعنه الله.

تمتم منيب بما لم يتبينه، لا هو ولا الشاب. وأفسحت السلحفاة خطواتها، وهي تقطع حي البياطرة، وتقفز فوق الحفرة العملاقة التي خلّفتها طائرة الميغ منذ أيام. وظلت السلحفاة تسابق منيب حتى لاح المشفى الوطني في نهاية الشارع، فتوقفتْ وأشارت إلى اليمين، حيث أبرق اسم الدكتور نوري حاج صبحي.

وهو يصعد الدرج بتثاقل، تساءل عمن يكون فصيح العلي؟ هل هو صديق موسى الذي كان أشجع من شارك في حماية كنيسة الشهداء؟ لا لا. إذاً هو صديق موسى الذي شاركه في

قيادة المظاهرة التي خرجت تطالب بالأب باولو دالوليو. لالا. من يكون إذاً؟ ولماذا يلعن موسى العايد؟

تابع منيب الصعود وهو يدعك لحيته ويلعنها ويلعن لحية فصيح العلي، ويتوعده بيومٍ آتٍ لا ريب فيه، هو يوم عودة موسى العايد لينتقم منكم يا أوباش. وربما كان سيتابع اللعن والوعيد لولا أن قاطعته ضحكة الدكتور نوري وصيحته: صار الأستاذ منيب يهلوس!

كانت الساعة قد تجاوزت السادسة، ولم يكن في العيادة ممرضة ولا مريض. فكر منيب في أن الناس صاروا يأوون إلى بيوتهم مبكرين. ثم فكر في أن هذه العيادة باتت قديمة، وما عادت قادرة على الصمود أمام منافسة العيادات الحديثة والأطباء الشبان. ثم فكر في أن كثيرين من الأطباء الشباب والشيوخ قد غادروا المدينة منذ صار الرصاص مطراً للمظاهرات، بخاصة منذ رفرفت في المدينة الرايات السود، وقال نوري:

- خلنا ننته من ضعف نظرك قبل انقطاع الكهرباء.

ودّ منيب أن يعيّر نوري بالبخل، مادام ليس في العيادة مولدة للكهرباء ولا بطارية. لكن نوري تدفق بالثناء على لحية منيب، وبنصائح قصّها وحنائها. وخيّم الصمت حتى انتهى

من مهمة الطبيب، وإذا بمنيب يهتف:

- عرفت من هو فصيح العلي. هل تذكر من عبأ هفاف بالكيس الأبيض بعدما همدت؟ هذا هو فصيح العلي.

أطرق نوري قائلاً:

- لا أذكر. الله يرحمك يا هفاف.

وعاد الصمت يجلل العيادة، بينما راحت عينا منيب تحوصان فيها، متحاشياً النظر إلى نوري مثلما كان يفعل كلما التقيا، إذا ما كانت هفاف حاضرة. لماذا يا منيب؟ ليست هفاف من يسأل هذه المرة، بل منيب يسأل منيب. ولأن منيب لا يجيب، تسلل صوت هفاف ليهمس مرة: لأنك تغار منه، ومرة: لأنك تتعالى عليه، ومرة: لأنك تخشاه. وأخذ الصوت يحتد وهو يأمر منيب بأن يملأ عينيه من غريمه، بل وأن يباهيه: أنا من فاز بقلب هفاف. عندئذٍ عادت عينا منيب إلى نوري، وتأملتاه كأنما تبحثان فيه عن عشرات السنين التي ظلت فيها هفاف بينهما. وأحس منيب لأول مرة طوال تلك السنين بأنه لا يكنّ لنوري إلا المودة، ولعل ذلك ما جعله يسأل: لماذا خنقوا هفاف؟

وبدا نوري كأنه كان ينتظر السؤال، إذ أخذ يسرد كأنه يقرأ عجلانَ من كتاب: عندما بدأت الطائرات ترمي براميلها

المتفجرة، ماذا فعلت هفاف؟ أسرعت إلى مكتبة الخابور واشترت كومة من الكرتون الأبيض والأصفر والأحمر، وكومة من أقلام التخطيط: أسود وأزرق و.. وتبارت هي وأخوها موسى بالتخطيط، على لوحة تقرأ: نحن نموت بالبراميل وأنتم نيام في القصور نومة أهل الكهف. وعلى لوحة تقرأ: يا شبيحة الإسلام تفوقتم على شبيحة النظام. تسع لوحات لثمان بنات والتاسعة لهفاف. كل يوم، من الضحى إلى قبيل أذان العصر أمام مقر الولاية. كل واحدة تحمل لوحتها خرساء طرشاء. لا تلفظ كلمة ولا ترد على أحد بكلمة، لا ملثم ولا غير ملثم، لا مسلح ولا غير مسلح.

قال منيب مقاطعاً:

– أنت تتحدث عن هفاف أخرى.

قال نوري:

– هفاف أو سمِّ من تشاء، لا فرق. الواحدة منهن كانت هي الكل. زوجتي خرجت معهن في اليوم الثاني، وغيرها خرج في اليوم الثالث، حتى صرن أكثر من عشرين امرأة. صارت اللوحات تطالب بالإفراج عن المعتقلين. أختي حملت كرتونة عليها: أريد فلذة كبدي. كان قد مضى على ابنها المعتقل في مقر الولاية أكثر من شهر، ولا حسّ ولا خبر. بنت صغيرة،

عشر سنوات، حملت كرتونة عليها: اشتقت لك يا أبي، وكانت تصيح وهي تبكي: بدي أبوي، شتدريدون من أبوي؟ كانت زوجتي تذكرها وتبكي. وانقلب خرس وطرش المعتصمات إلى هتافات وشتائم وتهديدات. ولما أطلقوا الرصاص فوق رؤوسهن هربن، لكنهم لحقوا بهنّ إلى البيوت: من تعود إلى أمام المقرّ دمها مهدور. وهفاف كانت أول من عاد.

أطرق منيب زاهداً بما سمع، إذ لم يأت نوري بجديد، ولذلك قال:

– لكنهم خنقوها بعد ذلك بشهور.

قال نوري:

– لو أنها هربت إلى تركيا مثل غيرها لنجت. أنا نصحتها لكنها كانت عنيدة في كل شيء.

تململت جلسة منيب، فهفاف لم تحدثه عن نصيحة نوري، ونوري يعرفها إذاً كما يعرفها هو: عنيدة في كل شيء. وربما كان منيب سيسترسل في هجسه، لولا أن نوري تابع:

– طبعاً لم يكن ذلك السبب الوحيد لنقْمتهم عليها. كانت شجاعتها تبلغ أحياناً حد التهور. أظنك تذكر متى سافرت هفاف بعدما استولت جبهة النصرة وإخوتها على المدينة.

شعر منيب بأنه مشوش، وأحسّ بالضيق لأنه غير قادر

على أن يتذكر سفرة هفاف مثل نوري الذي أردف:

– كانت رحمها الله تحب الغناء.

تضاعف ضيق منيب وخاف من أن يكون نوري أكبر معرفة بهفاف منه. وتساءل بصوت لا يكاد يُسمع عن صلة الغناء بالخنق، فقال نوري:

– كأنك لم تسمع بما فعلتْ في البولمان، قبل حاجز الجسر، حاجز داعش، وبعده.

هز منيب رأسه نافياً، فقال نوري:

– كانت مسافرة إلى حلب، وقبل الحاجز أدار السائق المسجلة بالقرآن الكريم، كالعادة. بعد الحاجز نزعت نقابها وطلبت من السائق: سمّعنا أغنية. سألها السائق عما ترغب بسماعه. ناولته C.D وقالت: صلاح هليّل. السائق زوج الممرضة التي كانت تعمل عندي، وهو من نقل الخبر، ومن لسان إلى لسان بلغ من يهمه الأمر أن هفاف العايد سافرة وتحض النساء على السفور، وأنها تحدت قرار الدولة بمنع الغناء والموسيقا، وتحض النساء على تحديه.

نهض منيب وقد بلغ به الضيق أشده، وسأل وهو يندفع نحو الباب:

– هل تصدق أنهم من أجل ذلك خنقوها؟

ولما بلغ باب العيادة تذكر أنه لم يدفع لنوري أجره، ونظر إلى أعلى الدرج، وخطف من السماء نظرة، وتساءل عما جعل الغروب يبكر على الشارع الفارغ، وندم لأنه ترك السيارة عند ثانوية الرشيد، وأسرع وهو يداور أغنية لصلاح هليّل، ثم أغنية، قبل أن يهتدي إلى الأغنية التي كانت هفاف تؤثرها:

إيش بدنا نساوي

العمر رايح

مرة نزعل

مرة نسامح

وأصغى إلى هفاف تدندن: ننسى الماضي نعيش الحاضر، وكان يقترب من محلات باباي، وفاجأته لوحات إعلانية مضاءة، والعلم الأسود يرفرف فوق اللوحة الوسطى التي تومض: معاً لننشرْ شريعتنا. والتفت إلى اللوحة اليمنى التي كانت تومض: شرعُ الله أم شرعُ البشر؟ وخاف من أن يكون السؤال موجهاً له، فابتعد مسرعاً حتى أحسّ بالأمان.

كان انقطاع الكهرباء قد أعتم الغروب. وتبدت له هفاف في عتمة أكبر، في شارع آخر لعله شارع الباسل، بل في حديقة لم يسمّها بعد مجلس المدينة، بل على ضفة الفرات، والنسائم الخريفية تلاعب شعر هفاف وقميصها وتنورتها

وصوتها وهي ترميه بشطر من أغنية لصلاح هليّل بعد شطر: أنا أحبك، إنت الغزال، إنت غدار، وفجأة أخذت تنوح: جرحْ قلبي نهارْ وليلْ ينزفْ، وظلت هفاف تنوح حتى اهتدى منيب إلى السيارة، فقادها بأناة أبطأ من أناة السلحفاة، مثلما كان يفعل عندما كانت السيارة تعود به وبهفاف منتصف الليل من النادي اليوناني، والقمر يدنو من صفحة النهر حتى ليكاد يغطس فيها، وتكاد هي تتفجر ضياءً. آنئذٍ كان صوت هفاف يشفّ كأنها مازالت طالبة في ثانوية خديجة، أو طالبة في جامعة حلب، وتدندن:

عديت نجوم الليل
آه نجمة على نجمة
قلبي الخلي ينام
آه قلبي شي ينيمه؟

وهاهو صوت هفاف يرفّ بالدندنة نفسها، لكن النهر بعيد، والقمر أبعد، ومنيب يتجرأ أخيراً على أن يلتفت إلى يمينه، فإذا بالمقعد الخالي يجأر: هفاف هفاف، فيهرب منيب من الجئير الذي أتى على الدندنة، وترك السيارة تقطع ما تبقى من الطريق إلى البيت، كأنها تفر من الرصاص.

أمام باب العمارة – بالضبط أمام شرفة بيت قارو – أودع منيب السيارة، وإذا بصوت هفاف يهامسه:

دريك عدل ع الركة

يا مناحر السالوبي

ياريت نيتك خضرا

ومحالل وماهوبي

ولم يبرحه الصوت الراقص حتى استوى على الكرسي خلف المكتب الفسيح، وراحت أصابعه تقلب في كومة الأوراق التي لم يتبين الآن إن كانت له أم لهفاف. وفجأة اختفى صوت هفاف حين وقعت عينا منيب على هذا البيان المروّس بشعار الدولة الإسلامية في العراق والشام – ولاية الرقة.

قربت أصابعه البيان من عينيه. ولأن الضوء الذي ترسله البطارية لم يسعفه على القراءة، أخذ صوت غريب لم يسمعه من قبل يقرأ له: الحمد لله معزّ من أطاعه ومذلّ من عصاه..

أخي المسلم: اعلم يرحمك الله أن المعازف والغناء حرام في الإسلام لأنها تلهي عن ذكر الله وعن القرآن. وهي فتنة ومفسدة للقلب.

تقافزت نظرات منيب فوق السطور، فأسرع الصوت خلفها، ولما أدركها تابع: وبناء على ما تقدم فإن الدولة الإسلامية في العراق والشام أصدرت قراراً بمنع بيع أقراص الغناء وآلات الموسيقا وتشغيل الأغاني في السيارات والحافلات والمحلات

وجميع الأماكن.

قلبت أصابع منيب الورقة على قفاها، لكن الصوت تابع القراءة: كما ندعو جميع المحلات إلى إزالة صور الرجال والنساء عن واجهة محلاتهم، وكل مخالف سيعرض نفسه للعقوبة الشرعية اللازمة.

واندغمت الورقة في كومة الأوراق، وانزاحت الكومة يميناً لتفسح لمنيب أن يجزم بأن لخنق هفاف أسباباً أخرى، غير مخالفتها لهذا البيان، سوف يعرفها. أما الآن فسوف ينادي هفاف كي ينوحا معاً: جرحْ قلبي نهارْ وليلْ ينزفْ.

قد يكون الكأس سبباً

رأيت فيما يرى النائم على الكنبة أمام الشاشة التي تبث أخباراً عن ولاية الرقة، أن موسى العايد أقبل عليّ مشرقاً كعادته، كأنه لم يُعتقل هذا الصباح لأنه دافع عن كنيسة الشهداء الأرمنية، أو كأنه لم يُجلد هذا المساء لأن رائحة العرق فضحته وهو يقف في رأس طابور قناني الغاز أمام ما كان أوتيل الكرنك.

من سريري/ الكنبة جرني موسى إلى جلسته المفضلة عندما كان فتى، تحت الجسر القديم، على ضفة الفرات، وحيث تنتهي أحجار دعائم الجسر.

على يمينه جلست، وسلمت ساقيّ للمويجات اللطيفة كما سلّم ساقيه. وكدت أضحك عندما دغدغت مويجة خاصرتي، أقصد: باطن قدميّ، لكن موسى وشوشني قائلاً:

– ما رأيك بكأس؟

– كأس ماذا يا موسى؟

سألت مستنكراً ولهفان معاً، إذ ظننت أنه يعني كأساً من الويسكي أو من النبيذ أو من أي مشروب مما حرّمته الدولة الإسلامية في العراق والشام. كان القليل الذي أوفره من

الويسكي ومن الفودكا قد نفذ منذ شهور. ولم أجرؤ على ما تكرم به موسى من العرق إلا مرة واحدة. رائحة العرق نفاذة، تنادي دورية الحسبة أو أي مجاهد من بعيد، وتكذّب أيمانك أمامه، مهما غلظت. لذلك – شرح لي موسى مراراً – انخفض ثمن زجاجة العرق إلى النصف في الأيام الأولى للتحريم، وتضاعف ثمن زجاجة الفودكا أو زجاجة الويسكي، ليس فقط بسبب الندرة التي أخذت تندر، بل بفضل اللا رائحة. وبفضل الرائحة واللارائحة معاً، ما عاد أحد يجرؤ على أن يخرج من بيته إذا ما تناول كأساً.

كانت النسائم الحائرة بين الفصول تهفهف جذلى. ولعل ذلك هو ما حمل بيت موسى إلى ضفة النهر المقابلة. ورأيت فيما يرى النائم أنني وموسى قد سرنا على صفحة النهر حتى بلغنا جنينة البيت. وما إن اجتزنا الجنينة وانفتح باب الصالون الفسيح حتى بادرني:

– ما رأيك بكأس من العرق؟.

ودفعني أمامه إلى غرفته، وقال وهو يخرج الزجاجة من جوف المدفأة:

– نم الليلة هنا إلا إذا كنت راغباً في مئة جلدة وفي حبس سبعة أيام وفي أن تدفع غرامة عشرة آلاف ليرة.

قلت:

– لو قبضوا عليّ فسأقودهم إليك.

قـال:

– وإذا قبضوا عليّ سأقودهم إلى هفـاف؟

– ومـا شـأن هفـاف بـالعرق؟

صحت خائفاً وغاضباً، فالتفت مبهوتاً، ثم أشار آمـراً بـالصوت الخفيض، ثم فرقعت ضحكته وهو يقفز إلى المطبخ. ولما لحقتُ به أشار آمراً بـالجلوس، وقال بينما كان يمزج العرق بـالمـاء ويتشمم الكأس:

– أنت تعرف الدكتور نوري الحـاج صبحي.

– وأعرف أنك ستقول: كان عـاشقاً لهفـاف مثلك.

– يا أخي: الأستـاذ منيب ذكي، شعلة ذكاء، لكني هذه المرة مـا قصدت ذلك. تفضل. بلّ ريقك.

تناولت الكأس، وانتظر حتى رشفت وتلمظت وهززت رأسي معجباً، ثم تـابع:

– هل تعلم أن سعيد الحـاج صبحي، الشقيق الأصغر للدكتور نوري، يعمل سائقاً على البولمان بين الرقة ودمشق، في شركة الفرات؟

سألت بـاستخفاف عن صلة ذلك بـالعرق وبهفـاف، فأشار

لي بأن أتبعه، وقال وهو يتقدمني إلى الصالون:

- سعيد يأتي بالعرق إلى الدكتور نوري، وزوجة الدكتور نوري صديقة لهفاف، والصديقة لا تكتم سراً عن صديقتها. وصديقتها أختي ونور عيوني نقلت لي خبر العرق، فهددت الجميع بفضح سرهم إذا لم يرشوني بزجاجة بين حين وآخر.

وصمت ريثما أسدل الستائر وأحكم إغلاق الباب الرئيسي وباب الجنينة، بينما كنت أفكر في صداقة زوجة الدكتور نوري مع معشوقته السابقة. ولما عاد موسى إليّ أردف:

- هذا كله ليس بالمهم. المهم والأهم يا أستاذ منيب هو أن البولمان لا يستخدم ماسحات الزجاج طوال الصيف، لذلك لا حاجة له بالماء. لماذا إذاً لا يملأ هذا الخزان بغير الماء؟ بالعرق مرة وبالفودكا مرة، فقط بهذين الصنفين، لماذا؟ لأنهما بلا لون. والخزان كبير، عشر زجاجات لا تملأه، وسعيد لا يؤمّن حاجته وحاجة أخيه الأكبر فقط، سعيد يبيع بالسعر الذي يرضيه. بصحتك.

بعد بلعة صغيرة قلت:

- لكنها مغامرة خطيرة، قد تطير برقبته. كيف يجرؤ على النقل؟ كيف يجرؤ على البيع؟

قال موسى:

- لا بد أنها شبكة محكمة. وقد تكون المغامرة قاتلة، صحيح، لكنها تدر الذهب والفضة.

وأضاف بعد بلعة كبيرة:

- ربما يكون لهذه الشبكة من يحميها من إحدى الفصائل المجاهدة في سبيل الله على أرض الرقة الطهور، وكله بحسابه. ادفع تسلمْ.

أحسست بالخوف، وتبددت بهجتي بالكأس، وتمنيت لو أن هفاف تنزل من بيتها في الجهة المقابلة لبيت موسى وتنضم إلينا، كي أطلب منها أن تقطع علاقتها بزوجة الدكتور نوري. ولكن ماذا لو ظنت أني أتذرع بالعرق لأخفي غيرتي من عاشقها القديم؟

فجأة دوّى انفجار هائل، وارتج البيت، وأمطره الرصاص ثوان قبل أن ينخلع سقفه، ويهبط علينا من السماء رجال سود.

أمسك أطولهم بزجاجة العرق، ودلقها على رأسي وعلى رأس موسى. وهو يزمجر:

- يا كفرة يا فجرة.

صحت وأنا أبتعد عن موسى:

- هو من جاء بالعرق وغرر بي.

صاح موسى وهو يبتعد عني:

- هفاف هي من جاءت بالعرق وغررت بي.

قبض على رقبتي أحدهم وأنا أصيح:

- هفاف بريئة. الدكتور نوري حاج صبحي هو من جاء بالعرق وغرر بها.

نتر أحدهم لثامه ورماه بعيداً وهو يصيح بي:

- كذاب. أنت تتهمني لأنك تغار مني.

والتفت إلى باقي السود الملثمين متابعاً:

- هفاف ومنيب هما المذنبان.

حاولت رقبتي أن تفلت من القبضة المطبقة عليها، وتركتُ حنجرتي تطق وهي تعدد المذنبين: سعيد الحاج صبحي، ومدام الدكتور التي لا أعرف اسمها، وربما كنت سأذكر آخرين، لكن أحدهم نتر لثامه، وإذا به سعيد الحاج صبحي، ثم نتر آخر لثامه، والتصق بالدكتور نوري وهمس: حبيبي، وهو إذاً مدام الدكتور. وقبل أن أفيق من دهشتي صاح سعيد والمدام، بصوت واحد، لا هو بصوت رجل، ولا هو بصوت امرأة:

- هفاف هي المذنبة.

وكرر الصيحة موسى والدكتور نوري، وسائر السود الملثمين، فصحت معهم: هفاف هي المذنبة، وشببت من سريري/ الكنبة وأنا أبرطم: لا يعقل أن يخنقوها من أجل زجاجة عرق، فلماذا خنقوها إذاً؟

فوضى هفاف أم فوضى الحكاية؟

كان قد مضى على هفاف تسعة أيام في السجن، بانتظار صدور الحكم، عندما انقلب قلق منيب إلى يأس حرمه النوم، ودفع به إلى الخروج والخبط في الشوارع كيفما قادته قدماه. لكن رياضة الصباح لم تنته به هذه المرة إلى البيت، بل إلى مقعد حجري مختبئ في الزاوية الغربية الحادة لحديقة الباسل. كانت الزاوية أشبه بالدغلة. وحين اجتمعت على منيب الطراوة مع السهد والرهق، تمدد على المقعد، وطوى ساقيه، وتوسد ذراعه، ونادى هفاف، لتعيد عليه من جديد هذا الذي تتخبط فيه ويتهددها، كما يتهدد شقيقها موسى ويتهدده هو أيضاً. لكن هفاف طلبت منه هذه المرة أن ينظم فوضاها ويحدثها هو عما هي فيه، «فتدافرت» في عينيه وصدره الأسئلة: فوضاك أم فوضى الحكاية؟ وفوضى الحكاية أم فوضى الرقة؟ وفوضى الرقة أم فوضى سوريا أم فوضى العالم كله؟

ألوت هفاف عنه، فخاف من أن تتركه وحيداً على هذا المقعد البائس في هذه الحديقة البائسة. ونادى فواز، شقيق هفاف الذي يسعى خلف حلم مبهم منذ أنهى الخدمة الإلزامية

قبل واحد وثلاثين سنة، فتطوح طويلاً بين بيروت وليماسول قبل أن يرسو في كريت: تعالي يا هفاف، تعال يا موسى، كريت هي الجنة. لكن جنة هفاف وموسى هي الرقة، أما فواز فقد بدأ بمطعم صغير سوف يقدم على الإفطار الرمضاني التشيكا والثرود والسياييل كأنه مازال في الرقة. وفواز سيتزوج بنت الجيران فيكبر المطعم ويفرخ مطعماً، فمطعماً. وفواز سيصير أباً لثلاث بنات، تضاعف كل منهن تلو الأخرى من دموع أم فواز ونشيجها: يا ابني الله يرضى عليك، أبوك الله يرحمه يأتيني في المنام ويسألني: أين ابن فواز؟ وعندما عاد فواز أول مرة إلى الرقة، حددت أم فواز مرامها ومرام أبو فواز: ابن فواز ولد من بنت رقاوية، مسلمة ومن العشيرة، لا مسيحية ولا يونانية.

تجدد حلم فواز المبهم، وإن يكن ازداد بهمةً، وتزوج من إنعام بنت الشيخ عبد المنان الحمد. وكرمى العروس بنت مفتينا وإمامنا، اشترى لها فواز شقة ٣٠٠ متر مربع، وملأ ساعديها بالذهب، وفي اليوم السابع من شهر العسل لبى نداء أثينا.

لا أحد يعلم حتى الآن إن كان فواز قد ترك زواجه من إنعام سراً، أم حدّث به زوجته اليونانية وبناته. وفي الحكاية

فجوات لم تستطع هفاف أن تملأها، ولا موسى، ولا منيب.

فجوة: حمّى الشراء التي أصابت فواز: ثلاثون دونماً مشجرة تحاذي الفرات وتلوح للرقة من عند كسرة فرج، اثنان وعشرون دونماً نصف مشجرة في حويجة الخاتونية، شقة في الطبقة ٢١٠ أمتار مربعة.

فجوة: إنعام لم تحمل فلمن يشتري فواز إذاً كل هذا؟ أم فواز التي انتظرت ابن فواز سنة وسبعة أشهر، لم تعد قادرة على الانتظار.

فجوة: الفتور بين فواز وهفاف، والنفور بين فواز وموسى.

فجوة: إنعام ترفض أن ترافق فواز أكثر من أسبوع في بيروت أو أسبوعين في القاهرة، أما بلاد الكفر فقد حرمها الشيخ عبد المنان على ابنته، وأمر فواز بتركها والعودة إلى الأرض الطهور: الرقة.

فجوة: سوريا ما عادت آمنة، وفواز لن يغامر بالحضور كل شهرين أو أربعة إلى الرقة.

فجوة: فواز يحضر إلى دمشق، يفتح الجراب وينثر ليرات الذهب حتى يظفر بطلاق إنعام.

هنا تنتهي الفجوات، أو تضيق، على الأقل. فالشيخ عبد المنان طلب هفاف وموسى إلى دار الإفتاء. وعلى مشهد من

القاضي الشرعي أبو نادر سأل عن صداق إنعام: المقدم كيلو ذهب والمؤخّر مثله. قالت هفاف: اسأل فواز. وقال موسى: لماذا تسألنا نحن؟ هل سألتنا عندما زوجته بنتك؟ وقال الشيخ عبد المنان: إنعام تقول الصداق كله أودعه فواز عندك، أمانة يا هفاف. شبت هفاف قائلة: كذابة. وقف موسى قائلاً بهزء: خلّنا بعيدين عنكم وعن فواز، كرمى لله. وقال الشيخ عبد المنان: اشهد يا شيخ أبو نادر.

حاول منيب أن يجلس فعانده خدر ذراعه. ولما غلب الخدر عادت إليه هفاف مكدّرة، فأدرك أنه قد زاد الفوضى فوضى، فلم يبق أمامه إلا أن يعود إلى الخبط في الشوارع، معانداً الشمس التي بدأت تحترّ. وبدلاً من البيت، حملته قدماه إلى مقهى نيجاتيف.

هناك وتحت المظلة الكبيرة المزركشة وقف أمام الباب الزجاجي المغلق، وقرأ الإعلان الفوسفوري الكبير: للعائلات فقط، فأطال الوقفة حتى حاذته هفاف. ثم أطالا الوقفة حتى انقلب الوقت من هذا الضحى الصيفي الساكن إلى مساء ربيعي غابر، أخذت نسائمه تلاعب شعر هفاف التي تقدمت إلى طاولتهما الأثيرة، لكن شاباً وصبية كانا قد سبقا إليها. وفجأة اقتحمت المقهى ثلة من النساء المسلحات الرافلات في

السواد، وأمرن السافرات بأن يتحجبن، والأفضل أن يتنقبن، وكان الخوف قد شبك كف هفاف بكف منيب، وقرّب بينهما. لكن المسلحات السوداوات انتزعن هفاف من منيب، ودفعنها أمامهن إلى السيارة الستيشن الرابضة أمام باب المقهى، حيث يقف منيب الآن.

من كل ذلك، وحدها السيارة كانت حقيقة ملموسة. حتى منيب نفسه تحول إلى شبح عندما نزل من الستيشن مسلحان، وناداياه، ثم أمره أحدهما بمرافقتهما، بينما قال الآخر:

– دخنا ونحن نبحث عنك. لست في البيت، وموبايلك لا يرد.

أمعن الشبح في الصمت حتى وقفت السيارة أمام حاجز يعلوه قوس كبير، وقرأ منيب – الشبح: الدولة الإسلامية – المحكمة الشرعية. ولكن هذا ما كان بالأمس فرع الأمن العسكري: هتف الشبح. ولأنه شبح، لم يُسمع صوته، ومضى يتقدمه مسلح وخلفه آخر، بينما كانت قدماه تتذكران هذا الممر الطويل، وكانت عيناه تبحثان عن قاعة صغيرة للتحقيق، وأخرى للتعذيب، وثالثة للتحقيق والتعذيب، ورابعة قد تكون هي السجن الجماعي، وأبواب صغيرة كانت لمراحيض ولزنازين، وهذه القاعة الكبيرة كانت لرئيس الفرع، لكن

الرجل الذي يتقدم الشبح قال إنها لرئيس المحكمة الشرعية، وأمر: ادخلْ، فتخلى الشبح عن شبحيته، ودخل منيب، وألقى السلام، وكان عليه أن يصدق أن هذا الذي رحّب به هو نفسه القاضي أبو نادر، وأن هذا الذي لم يرد السلام هو الشيخ عبد المنان الحمد.

كان أبو نادر يتوسط رجلين في صف الكراسي المقابل، وبينما أخذوا يتهامسون، أخذت أصوات شتى توشوش منيب: صوت أبو لقمان في سجن صيدنايا يتحدث عن أخ سبق إلى هذا السجن نفسه منذ أحد عشر عاماً، وله بك يا منيب نسب، شرب من ماء الفرات أيضاً: أبو نادر. وصوت موسى: هذا الذي اسمه أبو نادر بلا شأن، قبل ظهور داعش كان نكرة، لكنه صار القاضي الشرعي، من عامل في الفرن أو في المطحنة أو في أي عمل مماثل من الرياض إلى الرقة، نط أبو نادر إلى رئاسة المحكمة الشرعية. من قال إن القاضي يجب أن يكون قد درس الحقوق أو الفقه أو الشرع؟ المهم هو نصاعة الإيمان والطّرف مع الذكاء والحزم.

وهذا صوت قارو: لو رأيت قاضينا اليوم يا منيب. من؟ أبو نادر؟ نعم يا سيدي، بجلال قدره، كان اليوم هو القاضي والجلاد في حفلة دوّار النعيم: منصة خشبية طويلة عريضة

وعـاريـة، فـي الوسط انتصب قـاضينا، خلفه رجـل غـاطس في جلبابـه الأفـغـانـي وملثم، ومثله آخر على يسار المنصة، ومثلهما ثـالث على يمينها، وأمـام قـاضينا جثـا المحكوم غاطساً في سواد القميص الفضفاض والبنطال الفضفاض وعصبة العينين السوداء. إلى يمين المحكوم جثاً آخر، وبدا كظل لـه. وإلى اليسار جثـا محكوم ثـالث بدا كأن ظلّه قد بُتِرَ منـه. ولكن مـاذا يفعل هذا الطفل إلى يمين القـاضي؟ هذا نـادر يا قـارو، حفظه الله ورعـاه. طيب، وهذا السيف مـاذا يفعل بيد نـادر؟

صمت.

أمسك القـاضي بكف الطفل القـابضة على مقبض السيف، ورفـع السيف وذراع الطفل فوق الرقـاب المحنية الثلاث، وأشار القـاضي فـأبعدت رقبتـان، أرخى القـاضي قبضة الطفل وذراعه، وهـوى بسيفه على الرقبة. طرطش الدم وجه نـادر فمسحه، فتبقعت كفه كوجهه. أدرت ظهري يـا منيب وأقسمت على ألا ألبي دعوة إلى مثل هذه الحفلة، حتى لو قطعوا رقبتي.

صمت.

وقف الرجلان اللذان يتوسطهما القـاضي، والتفت منيب، فـاصطدمت عينـاه بعبسة الشيخ عبد المنان، وفحّ في أذنيه

صوت: هذا من زاد على كذب ابنته كذباً، مفتينا وإمامنا. ثم تبدل الفحيح: هاتي الذهب يا هفاف، وكان القاضي أبو نادر قد عاد إلى كرسيه خلف المكتب الزجاجي الصغير، وخاطب منيب بحياد:

- إذا كنا لم نلتق من قبل، فقد حدثني الأخ أبو لقمان عنك بالخير. والآن آمل منك، ويأمل الشيخ عبد المنان، أن تحاول أن تقنع هفاف العايد بأن تعيد الذهب إلى كريمة مفتينا.

قال منيب محاذراً:

- ولكن هفاف في السجن:

- سأسمح لك بمقابلتها.

خاف منيب من أنّ فخاً قد نُصِب له ولهفاف، فسأل مرتاباً:

- لماذا هي في السجن؟

قال القاضي:

- ليس هذا من شأنك.

سأل منيب:

- بسبب الذهب أم...؟

فقاطعه القاضي بنبرة حازمة:

- ليس هذا من شأنك.

بشجاعة أكبر سأل منيب:

– هل صدر الحكم عليها؟

قال القاضي بامتعاض:

– وهذا ليس من شأنك.

قال منيب وقد أحسّ أنه الأقوى:

– هل تسمحون لها بأن تتوضأ وتصلي؟

ضحك الشيخ عبد المنان، وجاراه القاضي الذي قطع الضحكة وقال:

– هفاف العايد تصلّي؟ أنت تحب المزاح؟ لكنه ليس وقت المزاح.

قال منيب وقد طاب له أن يلاعب الرجلين:

– أنا لا أمزح. هفاف العايد كانت مواظبة على الصلاة في مواعيدها، وإذا فاتتها لسبب قاهر، فلا بد من أن تعوضها. هل يعقل أن العيون التي كانت تراقبها تجهل ذلك؟

وفاجأته الكذبة كما فاجأت الرجلين، وخاف منها، فأسرع يقول:

– لا دالّة لي عليها، كما أن الأمر لا يعنيني، ورحم الله من قال: من تدخل فيما لا يعنيه لقي ما لا يرضيه.

قال الشيخ عبد المنان ساخراً:

– لكنها خطيبتك كما يقال.

قال منيب:

- هذا لا يقدم ولا يؤخر.

التفت القاضي إلى الشيخ عبد المنان كمن يسأله الرأي، فأقبل الشيخ على منيب وقال باستخفاف:

- ما الذي تفعله أنت في الرقة؟ لماذا لا تلحق بأبيك؟

بوغت منيب بذكر أبيه. ويبدو أن القاضي نفسه قد بوغت بالسؤال، وتقافزت عينا منيب بين القاضي والشيخ عبد المنان قبل أن يندفع:

- الرقة بلدي وبلد أبي وأجدادي، أم نسيت؟

قال الشيخ باستفزاز:

- أجدادك، صحيح، أبوك، بين بين. لا تنسَ أنه خرج من الرقة ولم يعد إليها، لا حياً ولا ميتاً. أما أنت فلم تولد هنا، ولم تعش هنا. ما الذي جاء بك؟

قال منيب بثقة وهدوء:

- أبي رحمه الله عاش بجسده بعيداً عن الرقة، لكن روحه لم تغادرها. لولا الدم والثأر ما عاش أبي يوماً إلا في الرقة. ولولا الدم والثأر ما عشت أنا أيضاً يوماً إلا في الرقة، منذ أن شربت من الفرات.

ثم التفت إلى القاضي متابعاً:

– أبـو لقمان كـان يعد الشرب من الفرات نسباً يجمع الشاربين.

قال الشيخ بضيق:

– دعنا من أبيك وخلنا بك أنت. ما جاء بك إلى الرقة وما أعادك إليها ليس هذا الذي تتشدق به.

– أنا لا أتشدق يا سماحة المفتي. بدلاً من هذا الغمز واللمز، لماذا لا تصرح بما عندك؟

صاح منيب، فباغتته صيحته كما الرجلين. وحدق الشيخ عبد المنان في القاضي كأنه يشهده على جرم، ثم انقض على منيب:

– هفاف العايد جاءت بك إلى الرقة. وبعدما طردك منها غرماء أبيك أعادتك هفاف العايد. والآن هي تلقى سوء ما جنت، فماذا تفعل أنت هنا؟ الرقة اليوم أرض الإسلام، ولا مكان فيها لمن كان مثلك أو مثل هفاف العايد.

قال منيب وهو ينظر إلى القاضي:

– هذا ثأر جديد يرميني به الشيخ عبد المنان، سوف أسميه: ثأر الذهب. ثأر وزنه كيلوان من الذهب، ثقيل، أليس كذلك؟

ثم عاد إلى الشيخ متعالياً:

- لماذا تحشرني بينك أنت وابنتك وبين فواز العايد وهفاف العايد؟

- لأنك، أستغفر الله، ماذا أقول؟

جلجل صوت الشيخ عبد المنان وقدحت عيناه، فالتفت منيب إلى القاضي، وسأل ملوناً صوته بالعتب والشكوى:

- هل طلبني القاضي من أجل هذا؟

ونهض، فأمره القاضي بالجلوس.

من جمعة إلى جمعة

كان قارو عثمان أول من طرق الباب، بعدما اختفى منيب في البيت. ولم يملّ قارو من الانتظار حتى انفتح الباب، فسلّم وأسرع إلى الكنبة التي صادفته، وخاطب منيب الذي وقف إلى يمينه متوجساً:

– بدّلْ هذه الجلابية وتعال معي.

تنحنح منيب فعاجله قارو:

– أنت لم تخرج من البيت بعدما خنقوا هفاف. أنا أراقبك. رحمها الله. الحي أولى من الميت. الرقة اليوم فرجة لمن يتفرج. أسرعْ.

– إلى أين يا قارو؟

– كأنك لا تعلم أن الجماعة يحتفلون اليوم بإعلان الدولة والخلافة. ولو أنها أيام تسمية الجمعات لسمّوها جمعة العرض العسكري.

– إلى أين تريدنا أن نذهب؟ سيارتي حردانة من فترة.

– سيارة ماذا؟ السيارات الوحيدة التي سمحوا لها اليوم هي التي تنقل الناس من الطبقة والمنصورة إلى الرقة ليشاهدوا العرض. ماعدا ذلك: الرقة مغلقة يا أستاذ. أسرعْ.

كان قارو أول من سكن في العمارة بعد منيب، ثم جاءت أم باسيل التي لا تزال حتى اليوم تنادي الجار الكردي: أخي عبد القادر. وعلى الرغم من أنه كان من النادر أن يتبادل عبد القادر أو قارو الزيارات مع منيب، فقد كان كل منهما يعامل الآخر كصديق حميم، بخاصة بعدما قتل ابن قارو الوحيد: خضر، في جمعة التدخل العسكري فوراً.

كان الربيع ينذر بالجفاف الذي أتى على الشتاء قبله. وكانت الرقة لاتزال توصف بالمدينة الصامتة أو الخائفة أو الموالية، على الرغم من الشهب التي أخذت تتقد في سمائها، كما كان المهندس والشاعر خضر قارو عثمان يردد بفخر.

عندما زار رئيس الجمهورية الرقة وصلى فيها صلاة الأضحى، لم يوفر خضر من شتائمه أحداً، وإن يكن قد خصّ بالنصيب الأكبر من سماهم من شيوخ العشائر بشيوخ النظام. ومنذ ذلك العيد أخذ خضر يتأخر في العودة إلى البيت في أغلب الليالي، لتلاقيه أمه بالسؤال نفسه: أين كنت حتى هذا الوقت؟ وفي كل ليلة كان لخضر جواب: كنا نحضّر الهتافات يا أمي، كتبنا (الشعب يريد إسقاط النظام) على جدار محطة القطار، الليلة كان دور محلات شارع المنصور، ملأناها ملصقات، الليلة سهرنا في بيت موسى العايد وغنينا، الليلة

كتبنا ست لافتات، الليلة علقنا لافتة في دوّار النعيم، ولافتة في كراج البولمان، ولافتة على جدار حديقة الرشيد، قرب الباب. وكان قارو يتظاهر بالنوم وهو يتنصت على خضر – كما سيحدث منيب بعد جمعة التدخل العسكري – مغالباً قلقه على ابنه، باعتزازه به.

وكانت هفاف قد حدثت منيب مرات عن سهرة لشباب وصبايا في بيت موسى. وفي كل مرة كانت تدعوه، كما دعاه موسى مرات. لكن منيب كان يتعلل دوماً: لا مطرح للعجوز، فتترنم هفاف: يا عجوز يا شب، ويقسم موسى: وطاسة ويس أنت شيخ الشباب، ويترك لضحكته أن تفرقع على هواها.

وكان وأم خضر يتهامسان بذلك، بعدما أفاض خضر في المظاهرة التي شاركت فيها الصبايا لأول مرة: حاولنا أن نمنعهن من المشاركة خوفاً عليهنّ من الضرب أو الاعتقال، لكن هفاف العايد تقدمت غير مبالية، فتبعنها جميعاً. وعند قيادة الشرطة لاقانا عدد من زعران الموالين، ورشقوا النساء بالشتائم فأمسكت هفاف بأحدهم ومزقت قميصه، فاندفعت الأخريات وتراجع الزعران، وصاروا يرموننا بالحجارة من بعيد. قارو، أم خضر: لماذا لا يتزوج الأستاذ منيب وهفاف؟ والله لايْقينْ لبعض: ختم خضر حديثه ضاحكاً وأسرع بالخروج.

لم تكد تغفو عين في بيت قارو ليلة الخميس التي ستفضي إلى جمعة التدخل العسكري: عاد خضر مبكراً على غير عادته، لكنه خرج قبيل منتصف الليل، ولم يعد حتى بدأ المؤذن يمهّد لآذان الفجر بصوت ناعس، ليجد أم خضر تنتظره في غرفته، وأبوه – لأول مرة – ينتظره في الصالون. وبدا خضر منفلشاً كأنه في وداع، يوشك أن يبكي حتى وإن كان يفرقع ضحكة، فتأتي بالكاد ابتسامة. ولأول مرة لا تلقي أم خضر بسؤالها المعهود. ولأول مرة يسأل قارو ابنه عن الجمعة غداً، فأجاب خضر متوجساً:

– أنت تعلم. لماذا تسألني؟

قال قارو:

– لأنني ألمحت لك باعتراضي على التدخل العسكري منذ أطلقتم اسم هذه الجمعة، لكنك لم تنتبه، أو لم تهتم.

قال خضر بانفعال:

– ماذا تريدنا أن نفعل يا قارو، وأنت ترى الشهداء كل يوم بطول سوريا وعرضها؟ ألا ترى المعتقلين كل يوم؟ ألا ترى...

قال قارو مقاطعاً:

– وأرى كيف تنجرّون كل يوم من المظاهرات السلمية إلى العنف أو الحرب أو ما يروق لك من مثل هذه الأسماء.

قال خضر وهو ينظر إلى أمه كأنه يسألها أن تناصره:

- المظاهرات وحدها يا قارو - هكذا تعود أن ينادي أباه منذ الصغر - لن تسقط النظام، ولا الجيش الحر وحده. سنة بطولها وأهوالها مرت والنظام لايزال قوياً، إذا لم يكن صار أقوى، وليس فقط أعنف. ما الحل يا قارو؟ لابد من أن نستعين بالآخرين.

قال قارو بهزء:

- دول عديدة تساعدكم.

قال خضر بضيق:

- صحيح. ولكن السلاح لا يفلّه إلا السلاح.

نهض قارو وقال غاضباً:

- وهل هذا يحلّل لكم أن تطالبوا بالتدخل العسكري؟ التدخل العسكري احتلال. هل تطلب احتلال سوريا يا خضر؟ مهما كان الهدف، وكائناً من كان هذا الصديق الذي تبوس يده كي يتدخل، فالتدخل احتلال.

وأمر أم خضر أن تلحق به، واندفع إلى غرفة النوم، وصوت خضر يلاحقه خائفاً لأول مرة:

- اليوم سقط شهيدنا الأول في الرقة، علي البابنسي يا قارو، وغداً سنشيعه، والله وحده يعلم ماذا سيجري.

بعد صلاة الجمعة ضاق شارع المنصور بالبشر، لكأن

الرقة تدفقت كلها فيه، ريفاً ومدينة. ومن شارع المنصور تدفق السيل إلى ساحة الرئيس، وضاع تمثاله بين البشر. وفي لحظة مبهمة حمحمت زخّة من الرصاص، فزخّة، ثم تواصل الزخ، وتقطعت الهتافات، وتدافعت الحشود، وتسابقت الأرجل، وطرطشت دماء.

أثناء ذلك كان منيب محشوراً بين من حُشروا قرب باب مديرية الثقافة، وبينهم كان قارو. وكما كانت عينا قارو طوال الوقت لائبتين على ابنه، كانت عينا منيب لائبتين على هفاف.

كانت هفاف آنئذٍ بنت منيب وحبيبته وأمه وأخته، بخاصة بعدما «تدافرت» زخات الرصاص. وفي الطريق إلى البيت التقى قارو ومنيب قبيل مستشفى التوليد، كأنهما في سباق، وكلٌّ يتلفت خلفه. وظل الجاران صامتين حتى أوقفهما باب العمارة، حيث اتفقت نظراتهما على الوقوف هناك، والانتظار.

ولم يطل الانتظار. ظهرت هفاف وميرا متهالكتين: صوتان مشروخان ونظرات مذعورة وشعث في الخطى والثياب. وبعد قليل اقتربت من باب العمارة مجموعة من الشبان بينهم موسى الذي بدا أكثرهم ارتباكاً وإنهاكاً. وما إن وقفوا أمام قارو صامتين حتى انشقت حنجرته: راح خضر يا أم خضر.

مع قارو، ظل منيب وموسى وباسيل بقية النهار والليل، حتى صلاة الفجر. ولم تفارق هفاف وأم باسيل وميرا أم خضر حتى انتهى التشييع من المستشفى الوطني، وليس من الجامع الكبير كما أُعلن في البداية.

جرى التشييع في العاشرة صباحاً: هذه هي تعليمات الفروع الأمنية جميعاً. وفي المقبرة اشتبك التكبير بالزغاريد، ثم اشتبكا بالرصاص، وقبل أن يمتلئ القبر بخضر وبالتراب، كان سبعة أو ثمانية أو عشرة شهداء قد سقطوا. وبعد قارو، ربما كان حزن موسى هو الأكبر. وبعد أم خضر، ربما كان حزن هفاف هو الأكبر.

لا أحد يعرف كيف نُقل جثمان خضر إلى المستشفى الوطني، حيث أودع في براد الموتى، وأُمر قارو بالعودة إلى البيت، وبترتيب التشييع الهادئ، وبعدم إقامة عزاء إلا داخل البيت.

لكن موسى العايد لم يأبه بالأمر الذي نقله قارو للجميع، فجمع أربعاً وعشرين كرسياً من بيوت منيب وأم باسيل وقارو، ووزعها على صفين متقابلين في الفسحة الترابية أمام العمارة، وعلق فوق باب العمارة صورة صغيرة للشهيد. ومع عدد من الأصدقاء استقبل المعزين الذين ندروا بين

عصر الجمعة وعشائها، لكنهم تكاثروا في اليومين التاليين، بعدما بدا أن فروع الأمن اكتفت بالفرجة: هكذا عللت هفاف التي تولت استقبال المعزيات في بيت قارو. وكما في مجلس الرجال، تنابذت في مجلس النساء الآراء في جمعة التدخل العسكري فوراً: كان منيب مثل قارو، ضد التدخل، بينما ظل موسى متردداً حتى بلغه نبأ خضر الذي كان ينادي بالتدخل، من قبل أن يكون له يوم جمعة. ومثل خضر كانت هفاف، وكانت شقيقته بيري التي جاءت مع زوجها ولات من تل أبيض. لكن هفاف كانت تتحاشى أن تجادل منيب في ذلك، مثلما ظلت تتحاشى أن تجادله فيما طرأ عليه، بعدما انفض مجلس العزاء يوم الثلاثاء.

من يوم إلى يوم بدا أن قارو قد أصاب منيب بالعدوى: خرس قارو، ولازم البيت، يقرأ في القرآن صباحاً وقبل أن ينام، ويقضي بقية نهاره وأغلب ليله بالإصغاء إلى مقرئ للقرآن تلو مقرئ. ومنيب الذي حرص أياماً على مجالسة قارو مرة على الأقل نهاراً ومرة مساءً، صار بالكاد يكلم أحداً. ومادام في البيت فهو يصغي إلى مقرئ واحد للقرآن: الشيخ عبد الباسط عبد الصمد. لكن هفاف أبرأت منيب من عدوى قارو، كما ستقول بعد أسابيع. وقارو نفسه سيخرج من عزلته

بعد شهور. أما ما لا يعلمه أحد إلا أم خضر، فهو أن قارو، بعدما خنقوا هفاف، قد عاد إلى قراءة القرآن وإلى الإصغاء إلى مقرئ، ولكن بعد العشاء فقط.

وربما كان ذلك ما جعله يبدو فجأة كأنه ازداد نشاطاً عندما لاقاه ومنيب صوت الشيخ عبد الباسط عبد الصمد قبيل وقوفهما مقابل المحكمة الشرعية.

فجأة قال الشيخ عبد الباسط: صدق الله العظيم، فتمتم قارو، ومسح لحيته ووجهه. ومثل منيب تعلقت عيناه وأذناه بما أقبل عليهما ودوّى حولهما، لكأن الشيخ عبد الباسط أعلن بداية العرض العسكري: عربات محملة بالمجاهدين الذين ترفرف فوقهم الرايات السود، بينما مكبرات الصوت تشق صدر السماء:

يا سوريا ويا أحرارْ

غير الدين ما نختارْ

نبغي الجنة والأنهارْ

وما لنا غيرك يا الله

والتفت منيب وقارو، كلٌّ إلى الآخر، وهمس منيب:

– ذكروني ببداية المظاهرات.

فهمس قارو:

- كـان خضر رحمه الله يهتف: ومـا لنا غيرك يا الله، والشبـاب يردون خلفه.

فقال منيب بصوت مسموع:

- وموسى، الله ييسّر دربه، كان يهتف: مالنا غيرك يا الله، والنـاس ترد عليه.

فلكزه قارو في خاصرته محذراً، وتعالى التكبير، بينما أخذت دبابة تبرم مثل الخذروف الذي تلامح لمنيب بعد خمسين سنة من النسيان، تكبيرات، دبابة فدبابة، وكلّ تلاعب مدفعها كما كان قارو يلاعب عصاه قبل أربعين سنة من النسيان، تكبيرات، وهذا صاروخ سكود يا منيب، تكبيرات، وهذا صاروخ أرض أرض يا قارو، تكبيرات، وهؤلاء أشبال الدولة، ذكّروني بطلائع البعث يا قارو: همس منيب، فتلفت قارو حوله ولكز منيب في خاصرته، ثم نأى عنه شبراً قبل أن يكتشف أنهما محشوران بين المتفرجين، ولم يرتدع منيب بتحذير اللكزة، إذ دنت شفتاه من أذن قارو وهمستا: مادام لديهم كل هذه الأسلحة، لماذا خنقوا هفاف؟

انتحار سنيّة

مثل هفاف، كان منيب على يقين بأن أم باسيل تكبر سنة في كل يوم، بعدما هرب باسيل وميرا.

وأنت يا منيب: كم تكبر في كل يوم بعدما خنقوا هفاف؟

أرجفه السؤال كما أرجفته ارتعاشة صوت أم باسيل:

– لم أنم الليلة ساعة. كلما غفوت كنت أراها معلقة بالسقف. الله ينجيّنا.

– خير يا أم باسيل؟ من هي التي ترينها معلقة؟

سأل منيب وهو يداري خوفاً باغته، فاستقام صوت أم باسيل:

– كأنك لم تسمع.

– بماذا؟

– بسنية. سنية عبد الحميد.

– ما بها سنية عبد الحميد؟

رمت أم باسيل بالنبأ، واحتبس صوتها، وتركت عيني منيب تناشدانها أن تكذب أذنيه. ولما لم تستجب أغلق الهاتف بلا وداع، وتراءت له أم باسيل شبحاً، فأقبل يدقق: وجهها يزداد ذبولاً كل يوم، جعدات عنقها، أخاديد وجنتيها، صفحة

صدرها تـزداد يباساً كل يـوم، لونـها يتشمع: أهكذا يموت الإنسـان إذاً وهـو حيّ؟

طرد السؤالُ الشبح، فدار منيب حول نفسه وهـو يفكر في العزلـة التي تكبر بينه وبين المدينـة، حتى صـارت أم بـاسيل تسبقه إلى نبـأ مثل نبأ سنية.

جرّ خطواته نحو البـاب، بينمـا تبعه صوت هفـاف وقد نـالت منه بحّة حزينـة: لا تتعلقْ بي، قبل أن يخنقوني بدأت عزلتك تكبر حتى لم يبق لك إلا قـارو وأم بـاسيل. واحداً واحداً كـانوا يختفون فجأة. وفجـأة كـان الهـاتف يطمئنك: زوزان: أنـا في أضنـة، فداء حمدان: صرنـا في اللاذقية، نخلة زحط وآدم كـاملة وحسين الشيخ براك وبـاصو: نـحن في الشام. ميسلون عبد السلام: أنـا في طرطوس، إدريس عمر وأسمـاء: نـحن في بيروت. ومع كل هـاتف كـانوا يدعونك كمـا يدعونني: تعال يـا منيب، تعالي يـا هفـاف، ثم، ثم انقطعت أخبـارهم إلا من صـادفته نعمة الموبـايل التركي، والإنترنت التركي.

انتظر منيب خلف البـاب حتى اختفت هفـاف، ثم جرته قدمـاه درجة درجة حتى وجد قـارو كـأنمـا هو بـانتظـاره أمـام العمـارة، فتبـادلا تحية صـامتة، ومضيـا صـامتين.

لم يكن منيب قد التقى بسنية منذ بدأت محـاكمة هفـاف

حتى السبت الماضي، حين زارته مع شقيقها إسلام في مثل هذا العصر.

أزاحت النقاب قبل أن تجلس، ولم يكد يهدأ لسانها حتى انصرفت قبيل الغروب. بدأت مرتبكة، كأنها تخفي أمراً أو ارتكبت ذنباً، فأشارت إلى إسلام: ليس لي في بيتنا غيره، رحب منيب بإسلام، وسأل سنية عن دراستها. قالت بمرارة: لولا هذا الذي تراه في الرقة كنت سأتخرج هذه السنة. أشار منيب ممازحاً: ازددت سمنة، فقال إسلام: الناس عادة ينحفون إذا ثقلت همومهم، سنية على العكس. حاولت أن تبتسم، لكن الابتسامة خانتها، فلجأت إلى إسلام الذي خاطب منيب كأنه يستنجد به:

– جاءها عريس من المجاهدين.

حدق منيب في سنية مستنكراً، فأطرقت وهمست:

– تونسي، أبو رضوان التونسي، وأبي راغب بمصاهرته.

قال إسلام ساخراً:

– أبونا مصرّ على مصاهرته.

– وأنتِ؟

سأل منيب بحذر.

– ماذا أستطيع أن أفعل؟

سألت وهي تنظر إليه مستجدية، ثم قالت كأنها تتحداه:

- مستحيل.

وخيّم صمت ثقيل حتى قطعته:

- كم أنا بحاجة إلى أمي هفاف في هذه الأيام. كانت لي أكثر من أم.

تلامحت هفاف لمنيب تقدم له سنية أول مرة: صديقتي، فأسرعت سنية وهي ترمق هفاف: أستاذتي. قالت هفاف: بنتي سنية، فأسرعت سنية: ماما هفاف. عندئذٍ تعانقتا، ثم قدمت هفاف منيب لسنية: أستاذي.

لكي تهرب سنية مما بها، اندفعت في ذكرياتها عن هفاف وهي تشير إلى جلبابها ونقابها: عندما اعتقلوني أمام باب الجامعة وقادوني إلى أم مهاجر، غافلْتهم وأرسلت بالموبايل رسالة إلى الأستاذة. تحت الجلباب كتبت الرسالة فتداخلت الحروف والكلمات، لكن الأستاذة أدركت أني في مصيبة. ولما وصلت إلى مقر الكتيبة كانت أم مهاجر بنفسها تجلدني عقاباً على ظهور حاجبيّ من النقاب. اقتحمت الأستاذة الباب وصياحها يسبقها، وصاحت أم مهاجر: هل تعرفين مع من تتكلمين؟ أنا قائدة كتيبة الخنساء. اخرسي وأصلحي نقابك وإلا جلدتك أنت أيضاً. صاحت الأستاذة: هل تعرفين أنت مع

من تتكلمين؟ أنا يا أستاذ ما عدت أفكر في نفسي. صار همي الوحيد أن تنجو الأستاذة. ازدادت غضباً وجرأة وصياحاً: أنت لست من الرقة، ولا من سوريا، لسانك يفضحك، عودي إلى بلدك، من سلّطك علينا؟ ولم تسكت حتى دخل قائد الدورية التي اعتقلتني، وطلب من الأستاذة أن تنتظر خارج الباب، فخاطبته مهددة: جليبيب، فاض الكيل يا جليبيب، سأنتظر سنية خارج الباب. قال جليبيب: لن نفرج عنها حتى المساء. ابعثي أحداً من أهلها حتى يعود بها. ولما خرجتْ سمعته يحذر أم مهاجر: هفاف العايد يمكن أن تسبب لنا صداعاً نحن في غنى عنه، على الأقل الآن، لكن سيأتيها يوم.

قال منيب كأنه يشرح لنفسه مهوّلاً:

– جليبيب هو المسؤول عن فرض ومراقبة الحجاب والنقاب. جزائري.

وفكر في أن التهور لم يكن ينقص هفاف أحياناً، وربما تكون هذه الحادثة واحداً من أسباب خنقها. وحدق في سنية كأنما يسألها سبباً آخر، لكن إسلام قال:

– وجدوا جليبيب مقتولاً أمام المحكمة الشرعية.

هز منيب رأسه، وحبس كلماته: قبل خنق هفاف بفترة قصيرة. وقالت سنية:

- رمى الله كيدهم بنحرهم.

وعادت نظرات منيب تسألها سبباً آخر لخنق هفاف، وكأنما أدركت ما به، فاندفعت بحماسة:

- أستاذ: تذكر، عندما كانت أحرار الشام تتآمّر علينا، ماذا فعلت الأستاذة؟

- ماذا فعلت؟

سأل منيب متشوقاً، وسرّ سنية أنه لا يعلم، فأخذت كلماتها تتباطأ، لتضاعف تشوقه:

- عندما أخذوا يقلدون النظام، سيّروا دورية مشتركة من الرجال والنساء في سيارة فان. في عبّارة الجميلي ضربوا صبية ورموها في الميكرو باص: حجابك ملون يا كافرة؟ كيف وصل الخبر للأستاذة؟ كيف جمعتنا في بيتها؟ كيف قادتنا إلى أمام السجن؟ كيف عرفت أن هذا السجن لأحرار الشام وأن الصبية المعتقلة هنا؟ كيف هتفت: أحرار الشام همّا أزلام النظام، وكيف رددنا وراءها، وكيف رموا لنا بالصبية، وكيف زغردت الأستاذة فزغردنا كلنا..؟ آه يا أستاذ.

آه يا سنية: تأوّه منيب وهو يتلقف كلماتها، كأنه يسمع الحكاية لأول مرة. وناشدها هذه المرة مثل طفل أن تتابع، وتعجب إسلام من الأستاذ ومن أخته التي قالت:

- كله كوم يا أستاذ، وحكاية الحجاب كوم. أستاذ تذكر منشورات داعش عن شروط الحجاب الشرعي؟ لا بد أنك رأيتها في لوحات الإعلان ملء الشوارع: صفيق لا يشفّ، فضفاض، يستر جميع البدن، طبعاً الجلباب، حجاب الجسد كله يا أستاذ وليس حجاب الرأس فقط، إياكِ أن يشبه لباس الكافرات، إياكِ أن يكون مطيباً أو معطراً. قالت الأستاذة: عطري جلبابك وطيبيه، بخّريه، وقالت الأستاذة: بماذا تختلف دوريات الحسبة هنا عن دوريات الشرطة في طهران: تحجبي قبل أن تنظري من نافذة البيت أومن الشرفة، بدون التشادور وبدون الحجاب أنت تثيرين الشهوات، بالابتسامة في غير محلها أنت تثيرين الشهوات. كيف تكون الابتسامة في محلها؟ سألت الأستاذة واحدة من كتيبة الخنساء كانت تخرج من بوابة الجامعة، عندما كانت الأستاذة تدخل. لم تجب المرأة، وكان بادياً أنها لم تفهم السؤال، وهمت بأن تتابع الخروج، لكن الأستاذة قاطعتها بالسؤال: من أي بلد أنت؟ ولما لم تجب المرأة أردفت الأستاذة: متزوجة؟ أومأت المرأة بالإيجاب. تابعت الأستاذة: زوجك سوري؟ هزت المرأة رأسها بانفعال نافية. من أي بلد زوجك؟ سألت الأستاذة، فصاحت بها المرأة: وشكون أنت تحققين معايا؟ جورناليست ولاّ؟ واندفعت

غاضبة، وكتمنا دهشتنا وضحكتنا حتى انطلقت سيارة الدورية بالمرأة.

ضحك منيب كأنه يسمع الحكاية لأول مرة، وحاص في صدره السؤال عما إن كانت الفتوى الشرعية قد بلغت سنية أو إسلام: على من يربي الأنعام من أغنام أو ماعز أو خيول أو جمال أو حمير أو بغال أو جاموس أن يستر أعضاءها التناسلية. لكن منيب أطرق خجلاً من السؤال، حتى إذا أجفله الصمت، شكّ في أن يكون كل ما روته سنية سبباً لخنق هفاف، ورفع رأسه كي يلوم سنية، لكن سنية بادرته:

– والآن يا أستاذ، قل لي ماذا أفعل؟ أنا يمكن أن أقتل نفسي، أستغفر الله، يمكن أن أقتل أبي، وأقتل نفسي، أستغفر الله العظيم من كل ذنب عظيم. صدقني يا أستاذ، يمكن أن أفعل ما لا يخطر ببال حتى لا أتزوج هذا التونسي.

لماذا لم تأخذ كلامها على محمل الجد؟ قرّع منيب نفسه بالسؤال وهو يقترب من الحاجز. وسمع قارو يتمتم: الدولة الإسلامية باقية وتتمدد، فأسرعت عينا منيب إلى القوس الكبير الذي امتلأ بالشعار. ومن القوس كانت عينا قارو اللتان انكسرتا منذ استشهد خضر، قد هوتا إلى أكياس الرمل البيضاء والصفراء المتراكبة التي تركت ممراً للسيارات،

ولم يظهر من خلفها إلا رؤوس المسلحين السوداء الصغيرة، وفوهات بنادقهم.

ما إن تجاوزا الحاجز حتى التمعت صفحة النهر وتسارعت خطوات قارو، فقصّر عنه منيب وهو يتساءل عما جاء بهما إلى هذا المكان المقفر في مثل هذه الظهيرة الحارة والغبراء، كأنها منتزعة من قلب الصيف. وأخذت المسافة بينه وبين قارو تكبر، فاضطر إلى أن يجعل مشيته جرياً حتى وازاه. عندئذٍ توقفا يتشمّمان رائحة النهر، ويلاقيان نُسيماته اللطيفة. وفجأة جاء صوت قارو مشروخاً:

– سمعت أنهم رموا جثة سنية في النهر.

عميت عينا منيب لتجوبا النهر من ضفته إلى ضفته. ولما لم تعثرا على جثة أرسلهما عميقاً من صفحة النهر إلى قاعه، وإذا بجثة سنية هناك، كأنها غافية في حضن جثة أخرى. ولأنه خاف من أن تكون الجثة الثانية لهفاف، ارتد خطوة. ولأنه رغب في أن تكون جثة هفاف تقدم خطوتين، وظل يرتد خطوة ويتقدم خطوتين حتى غطست قدماه في النهر، فركْبتاه، فبطنه، فعنقه، فشعر رأسه، وعندئذٍ أخذ قارو يقرأ الفاتحة على الأرواح التي طواها النهر.

عيد ميلادها

في تلك العشية، وهو يتلصص من فرجة الستارة، كانت السماء تُدِلُّ بأعشابها التي ذهّبها القمر. ولما فرغ القمر من لعبه، ذكّر منيب بأن هفاف غابت عنه تماماً منذ الليلة التي تبادلا فيها اللعبة: هو يخنقها وهي تخنقه، إذ لم تعد تظهر له، لا في حلم ولا في كابوس.

ولأنها ظلت تمعن في الغياب، خاف من أن يفقدها تماماً، فأخذ يتوسل إليها سبيلاً فسبيلاً: يشرع عينيه في العتمة وينتظر، يَعِدُ الحنين الذي يُرعشه بطلّتها ضاحكة، بل غاضبة، بل حزينة وباكية، بل موجوعة، بل مثل فرس تصهل وترقص، تماماً مثلما كانت تطلّ على منيب قبل ما لا يحصى من الأيام، أو الأسابيع، أو الشهور، أو السنين. آنئذٍ كانت تسهر الليالي المقمرة في الشرفة، ربيعاً أو صيفاً أو خريفاً، ومثل جمرة ندية يأتي صوتها في ليلة:

احتسيت مرّ العمر جرعات دفلى وسمّ

وفي ليلة يصير ثغرها خمراً ليس مثله خمر، فيأتي صوتها سكران:

من فوق جسر الرقة

سلّمْ علـيّ بِيْده

ما قدرت ردّ السلام

خاف يقولونْ تريده

ولما كاد الخوف من فقدها يوقعه في اليأس، أخذ يبحث عما يعينه عليهما، وبدأ بالألبومات المكدّسة خلف زجاج الخزانة الأولى من المكتبة. لكن مئات الصور لم تستطع أن تجعل هفاف تبقى لحظة بعدما ينغلق الألبوم. ولما تنبه منيب إلى ذلك، صار يترك الألبوم مشرعاً على صورة ما لها، وليس لهما، لكن هفاف كانت تختفي عندما يبتعد هو عن الألبوم.

في غمرة ذلك، وقد امتد نهارات وليالٍ، اكتشف أنْ ليس لهفاف، أو لهما معاً، صورة معلقة في البيت، أو ظاهرة في أي ركن منه، فملأ البيت بثلاث وعشرين صورة، أقدمها من رحلة مدرسية إلى قلعة الحصن، حين كانت هفاف طالبة، وأحدثها لهفاف منقبة، وجلبابها المفتوح يلوح بتيشرت فيروزي يكشف ما فوق منبت النهدين.

كان منيب قد التقط الصورة بعدما تنقبت بأيام. وكانت قد ظلت تخبط على الباب حتى فتحه. وبلا تحية دخلت وقذفته بورقة هادرةً: هذه آخرتك يا هفاف العايد!

تناول الورقة من على البلاط وراحت عيناه تطوفان عليها. ولما انتبه إلى أنه بيان من داعش، أخذت عيناه تتريثان. ولما انتهتا من قراءة الآيات القرآنية والأحاديث النبوية، وشرح مفردات منهما، قرأ بأناة وبصوت مسموع ومتهيب: وبناء على ذلك فإن أي أخت تتواجد في الشارع، فإنه يجب عليها الالتزام بالأخلاق السامية، ومنها أولاً: لبس الحجاب الشرعي المكون من العباءة الفضفاضة والحجاب والنقاب والقفازات. ثانياً: عدم رفع الصوت في الشارع. ثالثاً: عدم مشي الأخت في ساعة متأخرة وحدها، وكذلك عدم مشيها مع غير محارمها. وكل أخت تخالف هذه الأخلاق سيتم معاقبتها بالشرع هي وولي أمرها بعد مهلة قدرها ثلاثة أيام. لذلك فنحن نهيب بإخواننا وأخواتنا في ولاية الرقة بالتعاون من أجل تطبيق الشريعة الإسلامية، والتي من أجلها خرجنا، ومن أجل قتل شعب الرقة المسلم والتي نخشى إن قصرنا في تطبيقها أن يسلبنا الله هذ المناطق المحررة. ولما بلغ منيب السطر الأخير، صارت قراءته تمتمة: أسأل الله أن يكون هذا العمل خالصاً لوجه الله وخوفاً منه وليس خوفاً من الدولة.

طوى الورقة بعناية، ولما عادت عيناه إلى هفاف أعشاهما سطوع صفحة صدرها، فأمر: لا تتحركي، وأسرع إلى الكاميرا

التي كان قد نسيها منذ حل الموبايل محلها. ومرّ وقت طويل اشتبكت فيه الصورة بالضحكة وبالعناق ويلعنك يا منيب ويلعن داعش وانقذف الجلباب على البلاط قرب الباب المفضي إلى الشرفة، وارتمت الكاميرا على الكنبة. وطوقت الأذرع ظهر رجل وظهر امرأة، وتوحدت الأنفاس والشفاه، وفجأة، بللت دموع هفاف وجنتيها ولسان منيب.

في حمالة زجاجية، أوقف على سطح المكتب الصورة الأقدم مع الصورة الأحدث. ومن وقت إلى آخر، بخاصة في الليل، كان يسترق من الصورتين معاً نظرة وهو يستعرض ما خزّن في اللابتوب أو في الموبايل من صور هفاف: وحدها على الجسر العتيق والقمر يضيء صفحة السماء، ووجه هفاف يضيء صفحة الفرات، صورة لها مع أم باسيل في بذلة الفتوة: على كتف أم باسيل شارة البكالوريا وعلى كتف هفاف شارة الصف العاشر، صورة لهفاف بالبنطلون الضيق الذي جعل أليتيها تكادان تشقان الصورة، وهذه الصورة لهما في دير مارموسى مع الأب باولو دالوليو، وهذه الصورة لها مع روضة أمام كلية الآداب في جامعة حلب، وهذه صورة لهفاف بين أبيها وأمها وخلفهما شقيقاها فواز وموسى، وهذه الصورة له ولها في باحة فرع الأمن العسكري بعد التحرير... وفجأة

تيبست أصابعه، فتلفت حوله كأن عيناً قد ضبطته متلبساً بالجريمة التي لا تغتفر، فأطرق مستسلماً، فللدولة الإسلامية عيونها التي تخترق الجدران كما كان للدولة البعثية، والصور حرام يا ضلّيل، فكيف إذا كانت الصور لامرأة، لا هي زوجتك ولا أمك ولا ابنتك ولا أختك، وماذا يعني أنها خطيبتك؟

لكن عيون الدولة وآذانها تعلم - لابد - بما بينك وبين هفاف. ما من خافية بين رجل وامرأة تخفى على هذه العيون يا منيب. لماذا إذاً لم يتعرض أحد لك أو لهفاف؟ لا تقل إنهم لا يعلمون بزياراتها لك في نهار أو في ليل. ولا تصدق أن الخطوبة أو صلتك بأخيها الأصغر تكفي لصون سرّكما. موسى نفسه سوف ينال جزاءه بسببكما، لكن ذلك كله إلى أجل. الآن موسى يرفع صوته أعلى فأعلى ضد الدولة. الآن هفاف ترفع صوتها أعلى فأعلى ضد الدولة. احمد الله على أن أمام الدولة ما هو أهم من سرك مع هفاف. ربما يؤجل أمرك - ولا يشفع له - أنك تعارض الدولة في صمت، والدولة الإسلامية مثل الدولة البعثية، تدرك الصمت وما أخفى. أنت لا تفعل كما تفعل هفاف أو يفعل موسى، وربما يؤجلك أيضاً أو أولاً سرك مع الأمير، حسناً: مع من كان أميراً، مع أبو لقمان: نسيت؟ سقى الله زمن السجن في صيدنايا وصحبة أبو لقمان، ولكنها نعمة

لا تدوم يا منيب. أبو لقمان قُتِل، وموسى اختفى، وهفاف خُنقت، ولعل دورك قد اقترب.

×××

أمر الخوف منيب بالخروج من ملف الصور، فتعثر وهو ينفذ الأمر بالمواعيد: اليوم، اليوم يا منيب عيد ميلاد هفاف، نسيت أيها العاشق؟ نسيت أيها الأرمل؟

الأرمل؟

ما بك؟ لا تجفل. بعد أربعين سنة من العشق، ها أنت أرمل. لم تتزوجا، لكنك الآن أرمل، واليوم عيد ميلاد زوجتك الشرعية الوحيدة، أي خطيبتك، فانهض.

ولسوف ينهض منيب، ولكن بعد أن يصدح صوت هفاف في الصالون، فيهرع لهفان: هفاف في ثوب أبيض سابغ وفضفاض ومزركش، كأنه ثوب عروس، تشعّ أصابعها بالنداء، يسرع منيب غير مصدق، يتلمس العنق الطويل، لا أثر لحبل ولا لخنق، تزنرها ذراعه ويمضيان كأنهما على بساط الريح، يطوف البساط فوق المدينة المعتمة، فالليلة هي ليلة السابع والعشرين من رمضان، أي ليلة القدر التي ينتظرها منيب وهفاف منذ النظرة الوالهة الأولى قبل أربعين سنة.

وتسأل هفاف عن الكهرباء، ومنيب: لا أريدها، للسماء كل هذه الكواكب والنجوم، ولي أنت هنا، لِمَ الكهرباء؟ نسيت أنه

لم يكن من كهرباء في زمن الرسول صلى الله عليه وسلم ولا في زمن صحابته رضي الله عنهم؟

كأنك واحد منهم يا منيب: تقول هفاف.

هذا شهر عبادة يا حبيبتي: يقول منيب. الهيئة الشرعية اجتمعت بعد عيد النصف من شعبان مباشرة، وبحثت في معوقات الصيام، فقررت قطع الكهرباء عن الولاية نهاراً. لا مسلسلات يا هفاف، لا مولدات للكهرباء ولا بطاريات إلا في المستشفيات، وللعيون الساهرة.

شو يعني يا منيب؟ تقصد المخابرات.

سألت هفاف ساخرة، ولما رأت منيب ينكفئ، أشفقت عليه، فأمر بساط الريح أن يطير إلى الضفة الأخرى من النهر، ويحط هناك.

طوق ذراعا هفاف عنق منيب، وتهجدت شفاههما، ولم تكد تفترق حتى لحست مويجات النهر أقدامهما، فتوقفا. ونظرت هفاف خلفاً، ولأنها لم تصدق عينيها، سألت منيب: أين كانت ضفة النهر؟ أشار منيب في الظلام بعيداً وقال: هناك. سألت هفاف: هل هو الجفاف؟ أم هي تركيا تحرمنا من الفرات؟ قال منيب: أمران أحلاهما مر، هما معاً. وتقدمت هفاف وحدها، وأخذ النادي اليوناني يشعشع على الضفة الأخرى، وشعرت هفاف بدبق على قدميها، سرعان ما غدا أقسى وهو يعربش

على ساقيها، فانحنت تدقق، وقبل أن تشهق فزعة وترتد كان منيب قد لحق بها قائلاً: بعلمي أن الفرات تلزج واسودّ هناك، في دير الزور، وليس هنا. واحتضن هفاف من الخلف وعاد بها متابعاً: ينصبون الحراقات على ضفة النهر، لكثرة ما تحتاجه من الماء، ويرمون النفايات فيه، ولكن هل يعقل أن يعود النهر بها إلى هنا؟ أم أنهم بدأوا يكررون النفط في ولاية الرقة أيضاً؟

بعد خطوات انحنت هفاف على قدميها، وارتعش صوتها خشية أن لا يزول ما علق بهما، فانحنى منيب، وهمس: اجلسي، فجلست، وأخذ لسانه ينظف باطن القدمين الأسود، وبين لحسة ولحسة، أخذ لسانه يزين الوعد لهفاف بعيد ميلاد ليس كمثله عيد.

الفتيل ١

ما كاد منيب ينهض من القيلولة المقدسة حتى ناداه الباب، فلباه متثاقلاً، وإذا بإسلام: تحية مبتورة وصوت مشروخ، ذقن قد طالت ونظرات ترشح ذعراً وحزناً.

كان ذلك هو لقاؤهما الأول بعد انتحار سنية. وبانتحارها تظلل اللقاء قبل أن يرد منيب التحية. ولكي لا يطول ذلك أسرع منيب إلى المطبخ يعد القهوة، واقترح على إسلام أن يتفرج على المكتبة ريثما يعود.

حين عاد يسبقه فوح القهوة، رأى إسلام واقفاً أمام المكتب، يتأمل صورتي هفاف في الحامل الزجاجي. وقال وهو يتناول الفنجان ويجلس حيث أشار منيب:

– ليس لسنية صورة في البيت. لكني وجدت لها منذ قليل صورة على موقع (الرقة تذبح بصمت).

لم يجد منيب ما يقوله، وربما لذلك اكتفى بنظرة متعاطفة، وأطال رشفته الأولى من القهوة، حتى انطلق لسانه:

– هل تذكر المصور الذي جلدوه أمام المتحف؟ أنا شاهدت الجلد بنفسي. كنت مع قارو في مقهى المدينة، قرب الباب. ارتفاع المقهى قليلاً عن الشارع جعل الفرجة سينما سكوب.

قال إسلام:

– لم أكن حاضراً، ولكن التصوير حرام. من ابن باز إلى داعش التصوير حرام. يا سلام!

قال منيب:

– ماعدا التصوير التلفزيوني، هذا حلال. ألا ترى كيف يبرعون فيه؟ ولكن لماذا ليس لسنية صورة في البيت؟

– اسأل والدي. أتلف بنفسه كل ما لدينا من صور. وبنفسه مسح من موبايلاتنا ما عليها من صور.

– سمعت من كثيرين أن القاضي عايش عبد الحميد وقف مع داعش منذ يومها الأول، والآن كلمته نافذة في المحكمة الشرعية.

– منذ رفرفت راية جبهة النصرة في الرقة، انخرط والدي في صفوفها. ولما بدأ القتال بينها وبين داعش، ودّع النصرة. وقد قدرت داعش له ذلك، ولكن أظن ان انتحار سنية هزّ مكانته.

وبدا كأن إسلام ينتظر أن يحثه أحد على أن يتابع أو يُفصّل. وتراءى لمنيب أن إسلام يرزح تحت حمل باهض، ويكفي أن يكون لما هو ظاهر منه اسم سنية أو اسم أبيه. وبينما عاد إسلام إلى صورتي هفاف، طوفت نظرات منيب حوله حانية،

وقال إسلام كأنه يحدث هفاف:

– حرّم أبي الإنترنت في البيت، فصرنا نلجأ أنا وسنية إلى كافيه نت الرافقة، تعرفه؟ قريب من حديقة الرشيد، جنوبها، وفيه عثرت منذ قليل على صورة لسنية تتوسط عدداً من زميلاتها اللواتي كوّنّ معها جمعية (جنى). أنا أيضاً انضممت إلى الجمعية. كنا في بداية التحرير. لم يكن قد مضى على طرد النظام من هنا غير أسابيع. ولم يكن هؤلاء الوحوش قد حكمونا. لو رأيتنا في مستودع الطحين. الدكتورة ميسلون عبد السلام كانت تحمل الكيس خمسين كيلو. سنية بيّض الطحين شعرها، ولم يحمه الحجاب. سنية تحجبت صغيرة. بنت القاضي عايش، ولا فخر. لا أذكر أين كنت عندما التقطوا الصورة. لابد أني كنت مع من يوزعون الطحين على الأفران.

عن صورتي هفاف التفت إسلام إلى منيب، وبدا كأنما الذعر غادر نظراته، وكأنما غار الحزن عميقاً فيها، وجاء صوته أنقى:

– أظن لولا سنية رحمها الله لما سرت في هذه الطريق. هل تصدق أن أبي حرّم علينا أن نترحم عليها؟ لماذا؟ لأن الرحمة لا تجوز على من يقتل النفس التي حرم الله قتلها. حرام أن يقتل أحد نفسه.

– ولكن عن أية طريق تتحدث؟

– عن طريق سنية. عن طريق الأستاذة هفاف، طريقكم. لولا الأستاذة رحمها الله لما سارت سنية أيضاً في هذه الطريق. هي نفسها قالت ذلك لي مرات. أنا كنت في البكالوريا عندما قامت الثورة، وسنية في سنتها الجامعية الثانية. كان أبي لا يكاد يغادر البيت. كان قد أحيل على التقاعد قبل شهور، ساخط دوماً، وكثيراً ما سمعته يلعن هذا النظام الكافر. سنية كانت تلعن رجال الأمن الذين يتناوبون على باب الجامعة، لا تفرق بين من يتحرش منهم بالطالبات، وبين الآدمي. سمعتها مرة تقول: يلعن الآدمي منهم، فقالت لها الأستاذة هفاف: إذاً أنت لم تلعني أحداً. وعندما قامت الثورة صار أبي يتوعد النظام، وصارت سنية تتوعد النظام.

قبل الامتحان بأيام دعاني أصدقاء إلى الخروج معهم في مظاهرة. ترددت، وقد شجعتني سنية حين استشرتها، لكنني استشرت أبي أيضاً فنهاني. وحمدت الله لأني أخذت برأيه. اعتقل في المظاهرة من اعتقل، وبينهم عدد من طلاب البكالوريا، حُرموا من الامتحان، وضاعت السنة عليهم.

عندما جاء الرئيس وصلى الأضحى هنا كنت مثل الطاووس: صرت في الجامعة يا إسلام! بصراحة؟ شاركت

مع من شاركوا في استقبال بشار الأسد. كنت أتابع ما يجري في درعا وحمص وحماه واللاذقية، وكيف لا أتابع وأنا بين سنية من جهة وأبي من جهة؟ لماذا شاركت إذاً في استقبال الرئيس؟ والله لا أعرف. طبعاً زعلت مني سنية ولكن أبي لم يعلم بما كان سيعدّها جريمتي. بعد فترة غير قصيرة طلبت مني سنية أن أشارك في مظاهرة يوم الجمعة. هذه المرة لم أتردد. ولا أظن أنني كنت أريد ان أسترضي سنية فقط، كان ما يجري في المدن الأخرى يحققني يوماً بعد يوم، ولم أعرف بماذا حتى راحت سنية.

– بماذا؟

سأل منيب وهو يرخي ظهره على مسند الكرسي، فاكتشف إسلام أن صدريهما كانا مكبين إلى الأمام: كلٌّ قبالة الآخر، فابتسم وأرخى ظهره على مسند كرسيه قائلاً:

– بالبارود يا أستاذ. أنا الآن برميل بارود، ولا ينقصني إلا الفتيل.

ومرة أخرى لم يجد منيب ما يقوله، فاكتفى بنظرة قلقة ومتسائلة، وتابع إسلام:

– كنت أنوي أن أزورك البارحة بعد أن أعرج على الكافيه نت. لا أدري كيف انحرفت بي الطريق إلى حي الثكنة. في

وسط الحي، عند مصبغة الأنيق. رأيت خمسة من المسلحين متحلقين حول امرأتين. وعلى الرصيف المقابل كان يقف عدد من المتفرجين، فاندسست بينهم. اثنان من المسلحين ملثمان والباقي لا. صاح ملثم بنا وهو يشد على ذراع امرأة: هذا جزاء من لا تتنقب. دفع الملثم الآخر بالمرأة الأخرى فسقطت أمام قدميه. أمسك بيدها وجرها. قل: سحل المرأة سحلاً وهي تستنجد بنا. أدرت وجهي مثل كثيرين، ولما عدت إلى الفرجة كان كل مسلحين يسحلان امرأة، ملثم وسافر، والخامس يتقدمهم. إحدى المرأتين بدأت تشتمنا والأخرى تشتم داعش. عندما ابتعدت الفرجة تفرقنا، وعدت إلى البيت. لم أكن قادراً على أن أزورك. كنت أخاطب نفسي: هذا هو الفتيل يا بارود. وفي المساء سمعت أبي يقول لأحدهم بعد دقائق طويلة على الهاتف: سمعت أن الكافرات اللواتي سحلهن المجاهدون في حي الثكنة من عشيرة البريج، من العفادلة. قلت لأبي بعدما أغلق الهاتف: امرأتان كانتا يا أبي، ومحجبتان. هل المحجبة كافرة، والمنقبة مؤمنة؟ اخرسْ: أمرني. خرست دقائق، ثم حرك الشيطان لساني. سألت أبي: نحن من عشيرة العجيل، والأمير أبو لقمان من عشيرتنا، من الأفضل، عشيرتنا أم عشيرة الكافرتين؟ اخرس، أمرني. خرست، بينما أخذ يتعوذ

من الشيطان الرجيم وهو يحدق فيّ. ثم سمعت صوتاً لم أسمعه من قبل، لكأنه صوت من إغواء، قل: من رشوة، ومن موت. هل للموت صوت يا أستاذ؟ ينبغي أن تسمع صوت أبي ليلة البارحة قبل أن تجيب. هل يرضيك أن أكون ذليلاً؟ سألني ولم ينتظر جوابي. أختك الكافرة مرغت رأسي بوحلها. في سري قلت له: بنتك الكافرة. وحشرج: أنت من يمكنك أن ترفع رأسي إلى السماء أو تقتلني. في سري قلت: لا أريد أن أرفع رأسك ولا أن أقتلك. انس الجامعة: أمرني، فانتفضت. الجهاد يناديك فلبّ النداء، أنا أرضى عليك، وأمك ترضى عليك، ورضا الله من رضا الوالدين. في أول الشهر ستبدأ دورة تدريبية للمجاهدين الجدد في معسكر الشيخ أبو مصعب الزرقاوي رحمه الله. أمامك تسعة أيام. سأتركك تفكر حتى اليوم الثامن وإذا لم يهدك الرحمن فلا أنت ابني ولا أنا أبوك. أستاذ منيب: أليس هذا هو الفتيل الذي أنتظره؟

قال منيب:

– ما دمت تسأل، فليس هو.

وصمت فجأة، وظلت شفتاه معلقتين في الهواء، ولعلهما تيبستا ردحاً قبل أن يتابع:

– إذا كان البارود رطباً أو فاسداً لأي سبب، فلا جدوى من

أي فتيل.

سأل إسلام حزيناً:

– هل تظن أني بارود فاسد؟

– معرفتي بك محدودة. أنا حائر فيما جاء بك إليّ اليوم، صدقني، حائر فيما يجعلك تحدثني بهذا الحديث. لماذا يا إسلام؟

– لا أعرف بالضبط. يمكن لأنني توهمت أن ضالّتي عندك. أو لأن رائحة سنية قادتني إلى رائحة هفاف، ورائحة هفاف قادتني إليك. الفتيل عند سنية وعند هفاف. إذاً. هاته يا أستاذ منيب.

قال منيب:

– أنت لم تفاجئني يا إسلام. أنت صعقتني. أنت لن تلبي نداء القاضي، ولكن ما البديل؟ تركيا قريبة، هل تلحق بمن سبقوك؟ هل من خيار آخر؟

– منذ البارحة لم يغب عن بالي موسى العايد. لا أفكر إلا فيه. هل يكون موسى العايد هو الفتيل؟

قال إسلام، فتباعدت شفتا منيب بلاهةً، وجحظت عيناه دهشةً، وكان إسلام قد نهض، ومدّ كفه مودعاً.

الفتيل ٢

كي يظفر بنظرة منها، لا أكثر، استعان بإسلام، ثم بإسلام وسنية معاً. لكن هفاف ظلت تملص مثل الزئبق، ثم تختفي، حتى من صورتيها في الحمالة الزجاجية، كانت تختفي كلما تعلقت بهما عيناه. ولأن ذلك ضاعف عليه العبء الذي تركه له إسلام، فكر في أن يلجأ إلى موسى. موسى وحده سوف يشعل فتيل إسلام. وموسى وحده سوف يصل بين ضفتي الفرات بجسر من حرير، لتعبر هفاف إلى ليل منيب ونهاره.

ولكن أين موسى؟ هل هو قريب في أي من سجون الولاية؟ هل هو بعيد في أي من سجون النظام؟ لو كان هرب إلى تركيا أو غير تركيا لهتف لك، أو لوافاك بإيميل، وماذا لو لم يكن حياً؟ ماذا لو قطعوا رأسه في غفلة منك، في ساحة الدلّة، في المكان نفسه الذي خُنقت فيه هفاف؟ ماذا لو أن برميلاً متفجراً جعله مِزقاً؟ ماذا لو أن قارباً رماه في بحر إيجه؟ وماذا لو أنه حي يرزق، بل وأقرب إليك من إسلام أو قارو أو الدكتور نوري أو.. من حبل الوريد؟

بين غموض جفاء هفاف وغموض مصير موسى، «انشبح» منيب أياماً، وجد نفسه بعدها يبحث عن سبيل إلى إسلام.

إسلام وحده يمكن أن يعين على جلاء هذا الغموض كله: فكر. ولكن منيب لا يحمل رقم هاتف لإسلام، وليس له صلة بصديق لإسلام، ولا يعلم أين هو بيته. حتى لو استطاع أن يهتدي إلى بيت القاضي عايش عبد الحميد، فلن يستطيع أن يطرق الباب ويقول لمن يفتح: أريد إسلام. لذلك لم يبق أمام منيب إلا أن يسعى بقدميه خلف مصادفة.

بالكافيه نت (الرافقة) ابتدأت القدمان اللتان نسيتا عادة المشي الصباحي نصف ساعة، منذ خنقوا هفاف. وعندما ظهر المقهى تباطأت خطوات منيب، إذ رأى مسلحاً يرش بالرصاص لوحة (الرافقة)، ثم خرج من المقهى مسلح فمسلح، وخبط كل منهما الكومبيوتر الذي يحمله على الرصيف. ولما بلغ منيب من يتفرجون، وقف في الصف الخلفي، وكان مسلح يخرج من باب المقهى وهو يدفع رجلاً معصوب العينين. تعثر الرجل وسقط على حافة الرصيف، فرفسه المسلح، ثم تناوب مسلحون آخرون على رفسه. وبينما نفر الدم من منخري المرفوس، وربما من أذنيه أو من ثقب ما في جمجمته، صاح المسلح بالمتفرجين: الكلب ما كفاه يحجي علينا، زادْ يسجل الأغاني والأفلام والمباريات على سيديات ويبيعها. وخيل لمنيب أن عيني المسلح قذفتاه بشرر، فتخلخلت وقفته،

وازدادت خلخلةً عندما كبّر المتفرج الذي يقف أمامه.

استدار منيب ليبلع الخوف وأسرع بالابتعاد. ولما التف يساراً اختفى المقهى فتباطأ، وأخذ يقلب احتمالات مصادفة إسلام في مكان آخر، وأقبل على وجوه العابرين حتى ظهرت الزاوية الشمالية الغربية من حديقة الرشيد، فتريث شأنه كلما عبر من هنا بعد خنق هفاف، ليتأمل دار التراث والتقاليد الشعبية، فتخترق نظراته السور والجدار والشجر، وتلبث ثمة في المتحف الصغير أمام الرحى، حيث كانت هفاف تقف، ثم تقلّب نظرات منيب صنوف الأسلحة البائدة المعلقة على الجدار المخرمش، كما كانت نظرات هفاف تقلّب، قبل أن تحط في الربعة البدوية، حيث تفسح هفاف لمنيب كي يتربّع مثلها. لكن منيب كان يظل واقفاً بانتظارها، وستطول وقفته دائماً بصحبة هفاف، كما ستطول بعدما صار وحيداً، ولكن ها هنا، خلف السور، إلى أن يُجفله زعيق سيارة أو فتية أو هذا المؤذن الذي ينادي الآن من مئذنة قريبة، آمراً بكتابة أسعار السلع بالأرقام العربية، أي الهندية يا جاهل: خاطبتْ رجفةُ فؤادِ منيب من ينادي. وتقدم إلى مدخل الحديقة حتى ظهر له تمثال هارون الرشيد بنصف رأس، وبلا ذراع، وبشقفة من كتف.

أهلاً يا مولاي، أهلاً أمير المؤمنين وخليفة المسلمين – أخذت سريرة منيب تهزج وتتراقص – من القائل يا مولاي: الدنيا أربعة منازل: دمشق والرقة و...؟ لا فض فوك يا مولاي. ماذا فعلت بك حبيبتك الرقة؟ لا مطرح لصنم في الإسلام. لا تقل بعد اليوم داعش يا هارون.

أنت الآن تمثال يا هارون، والتمثال صنم، والصنم هذا هو مصيره. لن ينتظرك قصر السلام بعد اليوم. لن يكون لك مصيف هنا ولا مشتى. تسعة آلاف ألف ألف درهم يا هارون، على حبيبتك الست زبيدة أن تحملها من بغداد إلى الرقة كما حملتها من الرقة إلى بغداد، احتفالاً بموتك. وإن لم تفعل فدولة الإسلام على أبواب بغداد. لو كنت عاقلاً يا هارون، هل كنت أقمت في الرقة أكثر مما أقمت في بغداد طوال خلافتك؟ ولمَ أنت مكروب؟ انظر ما حلّ بأبي العلاء المعري أو بأم كلثوم أو بطه حسين، بل انظر ما حل بمحمد الفراتي على فراسخ منك، في دير الزور يا مولاي، حيث كان الفرات يسلّي موكبك، والجنائن تظلله من بغدادك إلى رقتك. احمد الله على أنك لم تلق ما لقيه تمثال حافظ الأسد قبلك، ثم يا مولاي مازالت هذه الحديقة كلها لك، وبين الجسرين مازالت لك حديقة أكبر، ثم...

ثم إن التمثال المحطم ينطق بالسؤال: ماذا يفعل الأستاذ

هنا؟ فيلتفت منيب خلفاً ليرى إسلام مبتهجاً. لكنه لن يصدق المصادفة حتى يتصافحا بحرارة، وفجأة يضحكان لأمر ما، ربما يتصل بالتمثال، ثم يسرعان إلى مطعم غسان القريب.

لا تثق بطبخ المطاعم: ردد منيب نصيحة أم باسيل وهو يطلب الباميا والرز لنفسه، بينما طلب إسلام الكباب والسلطة. وفي صمت عابر غالب منيب الحسرة على ما كان يطبخ لهفاف وما كانت تطبخ له. كانا، بطلب منه غالباً، يتباريان، وكانت أم باسيل الحكم، وكان يخسر المباراة دائماً.

بانتظار الطعام روى منيب فرجته على الكافيه نت. وقال إسلام إنه شاهد الدقائق الأخيرة منها، وأكد أن المسكين صاحب الكافيه نت كان يسجل مباريات كأس العالم حقاً، ويبيعها لمن لا يخشى أن يفشوا السر: مباراة الجزائر وألمانيا، مباراة هولندا وتشيلي، مباراة هولندا والبرازيل، كلها شاهدتها على السي دي بفضل كافيه نت الرافقة. كنا أنا وسنية نتظاهر بالنوم حتى يغفو أبي، ثم نبدأ المباراة: أنا مع ألمانيا وهي مع الجزائر. أنا مع هولندا وهي مع تشيلي، ومع البرازيل. طبعاً فاتنا الكثير. المباراة النهائية فاتتنا. كان أبي قد بدأ يعود إلى البيت مبكراً ولا ينام حتى السحور، منذ بداية رمضان.

وهما يتناولان المقبلات روى إسلام أن سنية كانت في

الكافيه نت نفسها، يوماً، وإذا بصوت خلفها يصيح: الله أكبر عليكِ. وأمرها بالخروج، ولكن شلّها الرعب، فأدار الرجل كرسيها ورفعها. سقطت سنية على الأرض فجعلتها السقطة تشبّ وتقلب الرعب جنوناً. شتمت الرجل ودولته فأشرع مسدسه في وجهها. كان كل من في المقهى قد تحلقوا، ومن بينهم خاطب صوتٌ الرجلَ: هذه بنت القاضي عايش عبد الحميد، فعاد المسدس إلى جرابه، وأمر الرجل سنية: عودي إلى البيت. بالطبع كتمت سنية ما جرى إلا عني.

بعد أيام حضر بيتنا عقب صلاة العشاء، من ضاق بهم الصالون، وعلى رأسهم الأمير أبو علي الأنباري. حشرت نفسي قرب الباب، لأرى هذا الذي يحكم ولاية الرقة. وكذبت أذنيٍّ عندما سمعته يطلب من أبي يد كريمتكم إلى أخينا المهاجر المجاهد التونسي أبو رضوان. من منهم أبو رضوان؟ أطاشتني المفاجأة، فلم تستطع عيناي أن تحددا من يكون العريس. رأيتهم جميعاً متشابهين: لحاهم، نظراتهم، عمائمهم، لكن أبي حدق في أحدهم مبتسماً، ولاقاه الرجل بابتسامة أعرض.

إذاً هذا هو العريس. أبشري يا سنية. أسرعتُ إليها ووصفته، فقالت: أظن أنه هو من ضربني، وكاد يقتلني لولا حلم الله. ثم قالت: لن أتزوج قبل أن أتخرج في الجامعة. وقالت: لن

أتزوج واحداً منهم. وفي كل مرة كانت أمي تطبق بكفها على فم سنية. وبعد خروجهم أعلن أبي أن الأمير قد أسرّ له بحادثة المقهى، وأن الزفاف سيكون بعد عودة الأمير من سفر لن يطول، لكن سنية صاحت: لا يا أبي.

بصمت أقبل كل منهما على ما طلب ليأكل. ولما طال الصمت تلفت منيب حوله، وأقبضته الوحشة التي رآها ترين على المطعم: ثلاث طاولات أخرى متناثرة، رؤوس مطرقة ورؤوس تنظر في الفراغ، ربما فرغت من الطعام، أو هي تنتظره. وأياً يكن أمرها فهذه نظرة بلهاء، وهذه نظرة حزينة، وهذه نظرة لا مبالية، وهذا إسلام يعلن الشبع: الحمد لله، فيلحق به منيب ويطلب الشاي. لكن النادل اعتذر عن تقديم الشاي، وأشار إلى الساعة الجدارية قائلاً:

– لم يبق لآذان العصر إلا ربع ساعة، وعلينا أن نغلق المطعم قبل عشر دقائق.

ثم وضع سبابته على ورقة تحت غطاء الطاولة الشفاف، فأحنى إسلام رقبته، وبينما ابتعد النادل، أخذ يقرأ بصوت مسموع: «اعلم رحمك الله تعالى أن الله أوجب على كل مسلم بالغ عاقل صلاة الجماعة في المسجد مع إخوانه المسلمين، وأن التخلف عن صلاة الجماعة بدون عذر شرعي من صفات

المنافقين، فاحرص رحمك الله تعالى على أدائها بخاصة صلاة الفجر التي أصبح شريحة من الناس لا يعرفها في حياته لموت قلبه وعقله.

فعلى ذلك يجب على كل صاحب متجر قبل النداء بعشر دقائق إغلاق متجره. وكذلك على أي رجل خارج المسجد في الطرقات التوجه إلى المسجد لأداء فريضة الله تعالى الواجبة عليه وعدم التأخر أو الجلوس للحديث في الطرقات والمسلمون في مساجدهم.

ومن وُجد أثناء الصلاة فاتحاً متجره أو خارج المسجد في الطرقات فإن متجره سوف يغلق ويُطلب للمساءلة الشرعية وستتم المحاسبة بعد ثلاثة أيام من تاريخ البيان.

وسع الله لكم في أرزاقكم وبارك لكم فيما رزقكم فإنه أكرم الأكرمين».

– آمين.

قال إسلام وهو يرفع رأسه، وكان النادل قد حضر حاملاً الفاتورة ولما تناولها منيب، دنا منه هامساً:

– أستاذ يمكن أن تبقوا مكانكم بعدما نغلق الأبواب والنوافذ.

قال منيب ممازحاً.

– ولكن نحن في مطعم، ولسنا في متجر.

ابتسم النادل، وقال إسلام ضاحكاً:

– إذاً هات الشاي.

ولما مضى النادل، وكان آخر قد بدأ بالإغلاق، تابع إسلام مخاطباً منيب:

– لم يبق في المطعم غيرنا، والوقت الباقي لا يكفي للوصول إلى البيت. حل سحري.

وإذ ما عادت تُسمع نأمة، راحت نظرات إسلام تمسح الزجاج المعتم، ثم راحت تطوف على السقف الذي بدا كأنما شاخ. ولما تنحنح ناشدته نظرات منيب أن يفصح عما به، حتى إذا حضر الشاي، قال وهو يحدق في كأسه:

– لو كان موسى معنا لما جرى لسنية ما جرى.

– ماذا تقصد؟

سأل منيب متشجعاً، لكن إسلام تجاهل السؤال، وقال وهو يحدق في منيب:

– في أيامها الأخيرة قالت مراراً: لو كان موسى أسيراً لظهر له أثر. لو كان مهاجراً لجاء منه خبر. موسى شهيد والله أعلم، أكاد أجزم أنها عندما يئست منه فضلت الموت.

قال منيب مغالباً الحرج:

– تقصد أنهما كانا على علاقة خاصة، مثلاً؟

لكن إسلام تجاهل السؤال، وجاء صوته كأنه قادم من غور:

– لا أحد يعرف سنية مثلي، ولا أحد يعرفني مثلها. عندما أخذت الجامعة تموج بدعوى الاختلاط، انتبهت لأول مرة: لسنية وموسى سرّ. كان رجال الحسبة بدأوا يدخلون إلى الجامعة، ويأمرون بعدم الاختلاط بين الطلاب والطالبات. تحديناهم أياماً فهددونا بإغلاق الجامعة. طيب، منعتم الاختلاط في الممرات والساحات والطريق، ولكن في قاعات المحاضرات ماذا ستفعلون؟ البنات في الخلف وأنتم في الأمام. الفصل لا يمنع الاختلاط، البنات إلى اليمين وأنتم إلى اليسار. ولا هذا أيضاً. كنا سعداء بما حسبناه معركة، وكان منا من وقف مع رجال الحسبة، كثيرون وكثيرات. كان بيننا من يهتف: بدنا دولة إسلامية، كما كان منا من يهتف: بدنا دولة علمانية.

في هذه الفترة أخذ شباب من خارج الجامعة يحضرون، وعلى رأسهم موسى. كانوا يحرضوننا على ألا نخضع لرجال الحسبة. وعندما يتعرض أحد هؤلاء لطالب أو طالبة يتبادلان حديثاً أو يسيران معاً، كان ينبري لهم واحد أو أكثر من جماعة

موسى: هكذا أسمتهم سنية. صرت أرى سنية قرب موسى دائماً، كأنها بعد أن يحضر ما عادت تذهب إلى قاعة المحاضرات. ولم تستمر المعركة طويلاً، اعتقلوا موسى وآخرين من جماعته ومن الطلاب والطالبات، وانهزمنا. صارت سنية لا تكاد تأكل، ولا تكاد تنام، ولم تكن خائفة على نفسها ولا عليّ. ما الذي يجعلني أقول هذا بثقة؟ لا أعرف. ربما لا تكفي فرحتها عندما أفرجوا عن المعتقلين. لكن يقيني بسرها مع موسى ازداد عندما قادنا ورفاقه في حملة (اخرجوا من الرقة). أما في حملة (طهروا الرقة من عصابة البغدادي) فقد اكتمل اليقين. كانت هفاف ممن قادونا في الحملة الأولى، ولا أظن أن ما كان سر موسى وسنية قد فاتها. ألم تحدثك عن ذلك؟

قال منيب:

- لا. لعلك تبالغ. وعلى أية حال كان لهفاف دائماً ما تخفيه عني.

- وأنت؟

- وأنا أيضاً.

- مثلاً؟

- لماذا اندفعت في (حملة اخرجوا من الرقة)؟ لا أعلم، لماذا تقاعست في الحملة الثانية؟ لا أعلم.

– كلنا تقاعسنا في الحملة الثانية، ما عدا سنية وموسى. خوفنا كان قد بدأ يكبر، وشراسة الحسبة وكتيبة الخنساء وو.. تضاعفت.

قال منيب وكفه تمسح على رأسه:

– كما ترى، أنا كبرت للكتابة على الجدران، وعلى توزيع القصاصات. كبرت على المظاهرات الطيارة والبركة فيكم أنتم الشباب والصبايا. هفاف أيضاً ليست شابة حتى تسابقكم في الحملة الأولى. عندما سألتها عن السبب، رفضت أن تجيب.

قال إسلام وعيناه تلمعان:

– كنا نسمي كل ما نقوم به: لعبة القط والفأر. لعبنا هذه اللعبة ضد النظام، كنا نجرجر رجال المخابرات حتى نضيعهم في الحارات، وهكذا فعلنا أيضاً برجال الفصائل الإسلامية جميعاً، وبرجال داعش بعد ما طردتهم وانفردت بنا. كنا نتوزع في مجموعات صغيرة، ليس أكثر من عشرة، لا بد أنك تعرف، لا أظن أننا كنا مرة عشرين. نتظاهر خمس دقائق، أحياناً أكثر، ونادراً أقل، حتى يظهروا، من زمن المخابرات إلى زمن الحسبة، لا فرق، الحقونا إذا كنتم قادرين. المهم أن سنية كانت مثل المهرة، مثل الغزال، إذا كنا في مجموعة موسى. أما إذا فارقنا فكنت تراها كأنها خائفة، مرتبكة، بالكاد تسمع

صوتها في هتاف. أمور صغيرة من هذا القبيل هي ما جلا لي سرّها مع موسى. في الأيام الأخيرة، قبل أن يختفي، صارت أقل كلاماً عندما نلتقي جميعاً، صارت تحمرّ إذا خصّها بمزحة أو نظرة. أمور صغيرة من هذا القبيل.

وكان نادل يفتح الأبواب وآخر يفتح النوافذ. ولما غمر الضوء المكان بدا إسلام لمنيب كأنما يغوص في الضوء. ولما أوشك أن يختفي قبض على ساعديه، وهمس خائفاً وراجياً:

– اعتنِ بنفسك إكراماً لسنية، إكراماً لموسى، اعتن بنفسك إكراماً للرقة.

– لا تقلق. اليوم بلغت أبي بقراري. لن أكون مع مجاهديك: قلت له، فطردني من البيت، أمهلني حتى صباح السبت. لا تسألني إلى أين سأذهب ولا ماذا سأفعل. قلت لك أنا برميل بارود ولا ينقصني إلا الفتيل. أنا في طريقي إلى الفتيل. اطمئن.

قال إسلام، وحرر ساعديه من قبضتي منيب، ووقف باسماً، وأحس منيب أنه عاجز عن الوقوف وعن الابتسام والكلام.

بين يدي الأمير

توجست شراً من أن يكرر تاريخي نفسه، عندما أخذت السماء تغبرّ، ثم تتضبب، ثم تعتم وهي مغبرة ومضببة. هذا ليس بعجاج، ولا هو بضباب. هذا ليس بكسوف. وفي المساء: هذا ليس بمطر ولا بطين. ما بك أيتها السماء؟

لم أغادر البيت طوال النهار، ولا أظن أن أحداً في الرقة غادر بيته إلا لأمر عظيم. وفي العشية جاءتني أم باسيل بصحن من اليبرق: اشتهيته لك.

تسلمي يا أم باسيل، ولكن ما هذا الطقس؟

بدلاً من أن تجيبني، تمتمتْ: يا عدرا دخيلك، وأسرعت بالخروج، فجلستُ بالانتظار. بانتظار من؟ بانتظار ماذا؟ ما أدراني؟ لست قادراً على أن أقرأ، ولا على أن أتفرج على التلفزيون، ولا على أن أفكر أو أحلم أو أستذكر. إنني أنتظر. وقد طال انتظاري حتى مضت ساعة، وربما أكثر، على أذان العشاء: قرع الباب، كذبت أذني، فقرع الباب، فصدقت أذني، وتفحصت الشاشة المعتمة وسجادة الصلاة وجلابيتي البيضاء، وفي غمضة عين استذكرت وصايا هفاف إذا جاؤوا، وفتحت الباب، ورددت التحية بأحسن منها، وانحنت رقبتي

وأنـا أصغي إلـى أمـر الحضور غداً إن شاء الله في الساعة التاسعة صباحاً إلى مقر الولاية لمقابلة الأمير. ما توجست منه قد وقع إذاً، وتاريخي يكرر نفسه، وسأرى غداً إن كان يفعل بهزل أم.. أم بماذا؟

ذلك اليوم البعيد قرابة عام، كان أيضاً يوماً من العجاج والغبار والمطر، أي الطين والضباب، عندما حضروا. سوى أنهم يومئذٍ اقتادوني معهم إلى مقر الولاية: الأمير بنفسه يطلبك.

كانت الساعة قد تجاوزت التاسعة عندما أشار لي مرافقي بالجلوس في غرفة فسيحة، وعلى كنبة فسيحة. وها أنا أخيراً قد دخلت قصر المحافظ، ولكن بعد أن صار قصر الأمير أو مقر الولاية: ما الفرق؟

بعد قليل جاء أحدهم بكأس الشاي، ثم جاء أحد آخر متجهماً، ولكنه خاطبني بلطف وهو يطوي طوله: طرأ طارئ سيؤخر لقاءك بالأمير.

رويداً التقطت أنفاسي، وغلّبت – كعادتي – نصف الكأس المليء على نصفها الفارغ، فأمير الرقة – أو رئيس جمهورية الرقة، أو ملك الرقة، إن شئت – هو أبو لقمان. وأبو لقمان هو علي الحمود الشواخ، ابن السحل، وابن عشيرة العجيل،

وزميلك في المهنة يا أستاذ منيب. صحيح أنه يحمل شهادة الحقوق، لكنه رفض المهنة التي تقلب الحق باطلاً والباطل حقاً: المحاماة، كما سمعته يعلن بجهارة مرات ملء سجن صيدنايا، وآثر مهنتك الشريفة – مهنة هفاف أيضاً: التدريس. لكن المخابرات لم تمهل هذا الشاب الذي يقلب درس التربية القومية إلى درس التربية الإسلامية: إلى سجن صيدنايا بعد أشهر بين سجن الأمن العسكري في الرقة وسجن فرع التحقيق في دمشق.

آنئذٍ، كان منيب يرفل في سنته الثالثة في سجن صيدنايا، بعد سنة تقريباً بين سجني الأمن السياسي والأمن العسكري في الرقة، جزاءً على ما اقترف من نشاط في ربيع دمشق، ليس فقط في الرقة. بل في حلب أيضاً، وفي دمشق.

في جنة عدن – كما سمى سجناءٌ سجن صيدنايا ومنهم منيب، بالقياس إلى ما عرفوه من سجون قبله – التقى منيب وعلي الحمود الشواخ الذي صيّره السجن أبو لقمان، كما التقى حسان عبود وزهران علوش وعيسى الشيخ الذين صيّرتهم السنوات الثلاث الماضية قادةً لأحرار الشام وصقور الشام وجيش الشام و... وحَسْبُكَ يا منيب، فعلاقتك بهؤلاء، بخاصة من كان منهم قد عاد لتوه من الحرب في العراق، لن

تزيدك إلا إلغازاً، أو اتهاماً بالانحراف، أو بالازدواجية، سواء لدى رهطك من اليساريين، أم لدى إدارة السجن التي كانت في تلك الفترة مسترخية غالباً، وكان للسجناء، بالتالي، أن يتبادلوا الزيارات ويطيلوا اللقاءات، فتتولد أو تتجدد أو تتشقق صداقات وعلاقات حزبية. وهكذا كان منيب وأبو لقمان قد غَدَوَا صديقين عندما فاجأ السجنَ كله الإفراجُ عن منيب حسين الخلف قبل أن يكمل سنته الخامسة في جنة عدن، في اليوم الأول من سنة ٢٠٠٨.

من خلوة إلى خلوة، وفي النهار دوماً، كان أبو لقمان يستأثر بالحديث. وكان منيب يصغي في البداية لما قدّر من حاجة صديقه إلى الكلام. ثم صار يصغي لما يجد في بوح صديقه وحكيه من لذة. وكانت البداية من النهر: أنا وأنت شربنا من الفرات: ردد أبو لقمان أياماً، ثم بدّل العبارة لتصير: أنا وأنت من الرقة، وإن تكن أنت من المدينة وأنا من الريف. أنا وأنت شربنا من الفرات، أنا وأنت شربنا من الماء نفسه. ولكن أبو لقمان سيظل يذكر ما يقف حائلاً بين الصديقين: لماذا لاتصلي يا منيب؟ لماذا لا تصوم؟ أنا أقدر فيك ما تحفظ من القرآن، ولكن هذا لا يكفيك. آه لو لم تسبقنا إليك الماركسية والشيوعية. وحين كان أبو لقمان يبلع هذه الحسرة، كان

منيب يضيف ممازحاً: والوجودية والإلحاد والناصرية، ولكن يا صديقي كله إلا البعث، فيبتسم أبو لقمان ويقول: أنا أعرف عنك هذا منذ سنوات. أنت كنت تدرّس في ثانوية الرشيد وأنا كنت أدرّس في ثانوية السبخة، ولكن أخبارك كانت تصلني. أعرف أن السبخة كانت أول نصيبك الرقاوي. ولمرة واحدة أضاف منيب: وكله أيضاً إلا الإخوان المسلمين، فازورّ أبو لقمان عنه بقية النهار.

قال أبو لقمان ذات خلوة: في البادية نشأت. أكلت القرّيص على سيف النهر. سقتني أمي عصيره لأنه ينقي الدم. مع أبي عرفت الزل وشجيرة الحرمل ووردها الأبيض وشجيرة عود الهوى، وهذا الوشم على هذا الصدغ وعلى هذا الصدغ: انظر. ومع أمي صرت مثل أحسن طبيب وأحسن صيدلاني: الدعجة، معروفة عندكم في الرقة، لونها أخضر قاتم ومُرة، تنقي حليب المرضعة ودواء لكل علة في معدتك وفي أمعائك. والشيح: ألا تعرفه؟ ورق أخضر على بياض وناعم ورائحة زكية، صلّ على خير الأنام. انقع الشيح واشرب نقيعه تبرأ بإذاً الله من أية علّة في معدتك وفي أمعائك.

في الخلوات الأخيرة قبل أن يُفرج عن منيب، كان أبو لقمان يبدو كبير الحيرة حيناً، وكبير النقمة حيناً: إذا كانت

المخابرات هي التي يسرتْ لي ولأمثالي السفر إلى العراق، فلماذا نحن هنا؟ من الحدود تلقفونا، وبعد ليلة واحدة من ليالي جهنم في القامشلي: إلى بيوتكم. ما كنت أعرف أن بيتي هو سجن الأمن العسكري في الرقة، وكل ليلة من لياليه هي ليلة من ليالي جهنم. أنت تعرف هذا البيت. لن أغفر لهم يا منيب. إياك أن تغفر لهم.

وفي الخلوات الأخيرة كان منيب يرى أبو لقمان يزداد إلغازاً: وجه مشرق، اللحية السوداء نفسها مشرقة، صوت دافئ، نظرة سارحة أو حانية أو باسمة، لا، عينان غائرتان كأنهما لمن يعيش في بئر، شفتان مطبقتان على وعيد، حتى الأنفاس ساخنة ومتهدجة وكأنها فرغت من عذاب أو عازمة على تعذيب، صوت يتوعد أو يتهجّد، ومنيب يعود إليه الحذر كما كان في اللقاءات الأولى مع أبو لقمان ورهطه، حتى إذا حل الوداع، همّ بمصافحة أبو لقمان، ولكن نظرةً باردة وصلبة لاقت كفّه التي نمّلها الخذلان، فتراجعت، وتركت كف أبو لقمان معلقة.

×××

بيد أن كف منيب هي التي ستظل معلقة في الفراغ هذه المرة حين تندفع إلى تحية الأمير الذي تصدّر قاعة فسيحة،

ربما كانت مكتب المحافظ، وربما كانت الكرسي المصدّفة الهائلة التي يملأها أبو لقمان هي كرسي المحافظ.

انكفأ منيب، وجلس حيث أشار إليه الرجل المتجهم الذي قاده من غرفة الانتظار وهو يطوي طوله. وخاف منيب من أن تكون مفاجأة كف أبو لقمان قد أربكته وجعلته لا يلقي السلام، فهو لم يسمع رداً لسلام. ولكن ماذا لو أن أبو لقمان لم يكتف بفعلة كفّ، بل لم يرد السلام أيضاً؟

مثل لصّ أخذت عيناه تسترقان نظرة فنظرة، قبل أن تتجرآ فتسرحا في جدران القاعة، مادام هاتف يلتصق بأذن أبو لقمان، وآخر لم يلتصق بأخرى، ثم مادام ثلاثة يحجبونه عن منيب، أولهم من كان صديق عمرك: جابر الخليل، الأستاذ أم الشيخ، بمَ كنت ستخاطبه لولا أنه اكتفى برد السلام، وأشاح عنك؟

فجأة صحا منيب على أنه وأبو لقمان وحيدان. وكان أول ما تنبه له أن سواد لحية أبو لقمان ما عاد نقياً، وأن لعينيه بريقاً مختلفاً. وبعد لأي، وهما يتبادلان نظرات غامضة قال أبو لقمان بحياد:

– حدثني عما بينك وبين موسى العايد وأخته.

عقلتْ المفاجأة لسان منيب، ونفثت فيه الحرارة التي

جعلته يعرق، بينما تابع أبو لقمان:

- عندي من التقارير ما يكفي عن علاقتك بهذه الأسرة من أربعين سنة حتى اليوم.

لكن أريد أن أسمع منك، وأنا أصدقك، إلا إذا كنت قد تبدلت بعد أيامنا في سجن صيدنايا.

بعسر يبدو منيب معه ينتزع كلماته انتزاعاً، قال:

- علّمت هفاف عندما كانت طالبة في ثانوية خديجة. وعندما غادرت الرقة كانت طالبة تدرس في جامعة حلب، ولم نلتقِ حتى عدت إلى الرقة سنة الألفين، وكان موسى صار شاباً، صرنا صديقين أيضاً.

قال أبو لقمان:

- اسمع يا منيب: كرمى للأيام التي جمعتنا في سجن صيدنايا، أمرت رجالنا أن يبعدوا عنك، ويتركوك لي.

أنتم أيضاً إذاً لكم مخابراتكم وتقاريركم: فكر منيب، بينما كان أبو لقمان يهمس بالهاتف وقد أدار الكرسّي الدوار ظهره لمنيب. ولما عاد إليه تابع:

- أنت بدأت مع هفاف أستاذاً لها، ثم صرت عاشقاً، لكن الثأر الذي شرّد والدك لحق بك، فهربت من الرقة حتى أنعم الله عليك وبردت نار الثأر. خلال هذا العمر ضاعت منك هفاف،

ولما رجعت إلى الرقة رجعت إلى هفاف ورجعت لك وصارت خطيبتك. لماذا لم تتزوجها حتى الآن؟

- لا أعرف. كما يقال: نصيب.

- بين تقاريرنا ما يصف علاقتك بها أو خطوبتك لها بالزنا. هل فكرت أنك قد ترجم بسببها؟ أنصحك بأن تعجل بالزواج أو أن تقطع أية صلة لك بها، وبموسى أيضاً. أما موسى فهو رفيق سوء، ثم لا تنس أنك بعمر أبيه. أي صداقة هذه؟

تاهت نظرات منيب عجزاً وقهراً، وودّ لو يستطيع أن يبكي. ولم يخف ما به على أبو لقمان، فأطال الصمت قبل أن يردف بصوت دافئ:

- خلّنا من هذا كله. أنا طلبتك لأمر آخر. طلبتك لما هو أهم. أنت تعرف فواز العايد.

- لم نلتق.

- ولكنك تعرف أنه تزوج من بنت الشيخ عبد المنان الحمد.

- سمعت.

- وسمعت أنها لمّا رفضت أن تلحق به إلى بلاد الكفر في اليونان، طلّقها.

- سمعت.

– إذاً أنت تعرف أنه أنكر عليها حقها الشرعي بالمقدم والمؤخر. كيلو ذهب مقدم ومثله مؤخر، وكله بالحفظ والصون، عند من؟

– لا أعرف؟

– عند هفاف العايد.

– ما علاقتي بهذا كله؟

– علاقتك أن هفاف أنكرت الذهب، على الرغم من شهادة الشهود، فهل ستحاول أن تردعها عن غيّها؟

– لا يمكن لهفاف أن تأكل مالاً حراماً.

– حسناً. أثبتْ لنا ذلك. أما إذا لم يرجع الذهب لصاحبته، فالعقاب سيكون أضعافاً مضاعفة، وربما يصيبك رذاذه. الضحية بنت الشيخ عبد المنان الحمد، مفتينا وإمامنا أمدّ الله في عمره.

ونهض أبو لقمان، ومشى خطوتين نحو منيب، ورماه بنظرة صلبة وباردة، ومدّ كفه، فتركها منيب معلقة، وأسرع بالخروج، ليجد بانتظاره سماءً تتلزّج بالمطر والعجاج والضباب، معاً.

حكمة الكذب

لماذا كذبت على الأمير أبو لقمان وادعيت أنني لا أعرف فواز العايد؟

هل صدقني، أم أغضى عن كذبتي أملاً بأن أجعل هفاف تعيد الذهب إلى مطلقة فواز؟

مهما يكن، ها هو الأمير أبو لقمان قد ولّى، فهل سأكذب أيضاً على الأمير أبو علي الأنباري، إذا طلبني غداً، وكرر علي السؤال: هل تعرف فواز العايد؟

لا. ولا أعرف أخته هفاف، ولا أخاه موسى.

لو أن الأمير يضحك فسيضحك. ومهما يكن فسيناولني C.D ويأمرني بأن أسمع، على مهلي، في الغرفة المجاورة لمكتبه، ثم أعود إليه بالجواب الذي لا جواب بعده.

قبل أن أبدأ بالاستماع ستكون الغرفة قد تشبهت بغرفتي تماماً، ليصدح الموبايل بنغمة الرنين: واحدة من قصار السور التي لا أملّ سماعها بصوتك يا شيخ عبد الباسط عبد الصمد، حبيبي منذ كنت طفلاً غير بريء.

أستجيب لنداء الهاتف على مضض، فمزاجي يزداد عكراً صباح مساء منذ ماتت أم باسيل، وأخذ يحل محلها في كل

يوم مسلح أو اثنان.

الصوت الغريب يتأكد من أني الأستاذ منيب، ثم يهمس: أنا فواز العايد.

أعوذ بالله. إذا كان هو خائفاً من الاتصال بي، فما هو حالي؟

– أنا أكلمك من أثينا. هل يمكن أن تلاقيني إلى دمشق بعد غد؟

– إلى دمشق دفعة واحدة يا فواز؟

– لِمَ لا يا أستاذ منيب؟ مثلك مثل كل الذين يسافرون كل يوم من الرقة إلى دمشق ومن دمشق إلى الرقة. سمعت أن عدد الرحلات اليومية صار سبعاً، والأجرة لا تعادل ستة دولارات. ضروري أن نلتقي جداً جداً. أرجوك يا أستاذ منيب.

– لماذا يا فواز، فواز يريد أن يؤجل الكلام حتى نلتقي، وأنا أريد أن أعرف الآن سبب اللقاء، وإلا كيف سأقرر إن كنت سأسافر أم لا، وأنا الذي لم يرَ دمشق منذ احتلت الرايات السود الرقة؟

قال فواز:

– إنعام وأبوها الشيخ عبد المنان الحمد وضعا اليد والرجل على الشقة التي تسكنها إنعام، وعلى شقة لي في الطبقة، ونقل

لي صديق ابن حلال مثلك وعليم ببواطن الأمور أن داعش ستضع اليد على مزرعتي في الحويجة، وعلى..

– اسكت يا فواز، أرجوك، لا تذكر داعش، لاتسمّ أحداً. سوف أغلق الخط. ماذا تريد مني؟

– أريد أن أسجّل لك في المصالح العقارية جميع أملاكي في الرقة، حتى لا يستولي عليها مفتي الأبالسة ولا ابنته ولا داعش، وليس لي ثقة بأحد إلا بك.

– عدنا إلى داعش استرنا يا فواز. استرنا يارب. لماذا أنا يا فواز؟

– بصراحة يا أستاذ؟ لم يبق في الرقة من أثق به غيرك. أبناء أعمامي وأخوالي إما صاروا من رجال داعش، وإما خرجوا من الرقة. أما الصديق الذي تثق به فأين هو؟ أنت تعرف أني انقطعت عن الرقة ثلاثين سنة دفعة واحدة، فما بقي لي فيها صداقة. وعوداتي السريعة والقصيرة إليها بعد ذلك لم تجدد صداقة قديمة ولم تبن صداقة جديدة.

أما أنت فصديق هفاف وموسى، وأنت أستاذي، وأنا من الذين يؤمنون بالمثل القائل: من علمني حرفاً كنت له عبداً.

– أنت خائف من أن تبلع مطلقتك وأبوها أملاكك أو أن تبلعها.. تبلعها السلطات، ولكن ماذا لو بلعتها أنا؟

– أنت واحد منا يا أستاذ. أمي رحمها الله كانت تعدك واحداً منا. ماذا قلت؟

– دعني أفكر في الأمر. ماذا لو أني خرجت من الرقة لألاقيك، ولم أستطع أن أعود إليها؟ أمهلني يومين أو ثلاثة.

هنا سينتهي الـ C.D، فأعود إلى الأمير، ولن أكتفي بالاعتراف بالمكالمة المسجلة. سأكفر عن كذبتي بكل ما أعرف عن فواز العايد. سأقول إنني عرفته طالباً مراهقاً في ثانوية الرشيد. كنت في سنتي الأخيرة في الرقة، وكان في صف البكالوريا. كائن من ماء، سميته. فواز ابن الفرات وليس ابني: كانت أم فواز تقول. تندر الأيام التي لا يجري فيها إلى النهر، صيفاً أو شتاء، ما عدا موسم الفيضان، كان مدلّهاً بخاصة بما كان يتبختر على الضفتين من شجر الغَرَب. وحذرتُ هفاف مرات ومرات: أخوك ليس طالباً، فواز سباح، فواز صياد، ولن ينجح في البكالوريا. قالت: فواز جعلني خبيرة في السمك. قلت: وأنتِ جعلتني خبيراً: أمي تدعوك إلى الغداء، أنا أدعوك إلى العشاء، والغداء سمك كالعشاء، وفواز يصطاد الرومي والفرخ والمشط الفراتي والمشط البحري، فواز يصطاد الكارب والبوري والسلوري والجزر والحبار. فواز عدو الذين يصطادون بالصعق أو بالشباك الجارفة. فواز يبلغ

الدوريات عمن يصطادون بالديناميت أو باللانيت أو ببودرة الكلور أو في فترة منع الصيد.

بعد السنين الضوئية التي ستباعد بين منيب والرقة، أي بين منيب وهفاف، ستروي له: لولا أن الفرات تبدل على فواز ما هاجر. بين إجازة وإجازة أثناء الخدمة العسكرية كان يرى الفرات يضمر، كان السد قد نهض، والبحيرة بدأت تمتلئ، وفواز يلوب على البحيرات الصغيرة التي تزداد صغراً، على الخلجان التي ما عادت خلجاناً، على الضفة التي بدأت تنتن، وهكذا فاجأنا في صباح مثلج: ادعي لي يا أمي. وبدعاء أم فواز بدّل فواز الولع بالنهر بالولع بالبحر. لكن بحر بيروت لم يكن كافياً ليهدأ الفرات في سريرة فواز، ولا بحر ليماسول. وحده بحر كريت، صار ما كانه الفرات، ولما اطمأن إلى ذلك بات بوسعه أن يعود إلى الرقة.

لكن الرقة ما عادت الرقة: سأقول للأمير، وسيغضب الأمير، فماذا أنت فاعل أيها العجوز الذي ما عاد من كانت تناديه هفاف: العجوز الشاب؟

بين يدي الأمير

كما في ذلك اليوم البعيد قرابة عام أعمت السماء عيني منيب وهو يجري من باب العمارة إلى السيارة. وكما في ذلك اليوم أوقف السيارة غير بعيد عن مقر الولاية، أمام ما كان محلات فتون المتخصصة بالملابس النسائية الداخلية، فصار محلات التوحيد المتخصصة بالحجاب والنقاب والعباءة والجلباب، تتصدرها العبارة التي صارت لوحات إعلانية مضاءة على أعمدة الكهرباء: مثل اللؤلؤة في احتشامك.

من موقف السيارة إلى مقر الولاية أعمت السماء أيضاً عيني منيب. لكن العماء سرعان ما تبدد في الغرفة الوثيرة التي قيل له أن ينتظر فيها من سيأخذه إلى لقاء الأمير. من هو الآن؟ سأل منيب نفسه، وبفخامة أجاب: رئيس جمهورية الرقة، أو ملك الرقة، إن شئت، أبو علي الأنباري، الذي حل محل أبو لقمان.

بعد قليل جاء من يسأل منيب: ماذا يشرب الأخ؟

– كأس من الماء.

وبعد قليل: ماذا يشرب الأخ؟

– كأس من الشاي.

وبين الكأسين يستعيد منيب ما تذكر من النزر الذي لديه عن الأمير أبو علي: عراقي وتركماني، وهذا صوت موسى العايد ساخراً: ليس لديهم سوري ولا عربي بعد أبو لقمان يولّونه الولاية ويؤمرونه الإمارة! وهذا صوت هفاف نقلاً عن سنية نقلاً عن أبيها: شعار الأمير أبو علي الأنباري نقلاً عن الإمام النووي: من لم يُدفع شره إلا بالقتل يُقتل. وفي المعارك التي نصرنا الله فيها على جبهة النصرة و أحرار الشام ومن لف لفيفهم، صار شعار الأمير: إما نثنيهم أو يثنوننا.

بعد كأس الشاي تراخى الوقت مذكراً بطارئ طرأ فأخّر اللقاء مع الأمير أبو لقمان، كما سيؤخر اللقاء مع الأمير أبو علي الأنباري، فيكون لهواجس منيب وأفكاره وذكرياته أن تلهو به كيف تشاء. هكذا سيزيده آخرون، غير موسى وهفاف، علماً بأن الأمير الجديد هو علاء قرداش أو أبو عمر قرداش، وأنه جارنا: ابن تلعفر، قرب الحدود، وهذا الأمير كان أستاذاً يدرس الفيزياء، وليس اللغة العربية مثلك، ولا الاجتماعيات مثل أبو لقمان. وهذا الدكتور نوري الحاج صبحي يضيف أن قاعدة الجهاد، قل: جبهة النصرة، طردت قرداش فأسرع إلى داعش. وهذا قارو يضيف أن الأمير، كان قبل أن يصير أميراً، يلقي دروساً في الدين وليس في الفيزياء، في جامع الإمام

النووي، بين صلاتي المغرب والعشاء.

الأمير الجديد هو من قتل الأمير القديم.

لدغت الفكرة منيب فانتفض. ولما هدأت اللدغة أخذت عيناه تدققان في الغرفة: هل أخفوا فيها كاميرا مراقبة؟

أطرق كمن يتخفى، ليلاقي ابتهاج هفاف وشماتتها باغتيال أبو لقمان: لن تسمع في الرقة من يترحم عليه. يقال: غلظته نفّرت حتى رجاله منه. وفكر منيب في مسلسل الاغتيال الذي بدأ بأبو تراب النجدي، ثم أبو لقمان، وهذا جليبيب الجزائري، وهذا أبو بكر الفراتي، وهذا أبو بكر الحلبي. وتراءى له موسى أكثر ابتهاجاً وشماتة من هفاف وهو يتمطق: حرب الكواتم، ما فيه أروع من مسدس كاتم للصوت، صدقوني، ثم يدعو مثل هفاف: رمى الله كيدهم بنحرهم.

رحمك الله يا أبو لقمان إذا كنت تستحق الرحمة: تمتم منيب وهو ينقل نفسه على بساط الريح إلى القاعة الكبرى التي لاقى فيها أبو لقمان في سجن صيدنايا، فلا يكتفيان بكفين تتصافحان، بل ها هما يتعانقان، ثم يجلسان متقابلين، ويشرع أحدهما يحدث الآخر بمودة، فتنتسج أقاصيص قصيرة جداً وتشتبك:

أنت كنت طريد العشيرة، كما كان أبوك. أبوك لم يقتل

أحداً، ولكن ما الفرق إن كان هو أو أخوه من قتل، فيبدل خلف الحسن اسمه ليصير حسين الخلف، زينة شباب العفادلة، والقتيل زينة شباب الخرصة، ومن أجل من؟ من أجل قرباطية هرب خلف الحسن من الثأر إلى الشام. بدّل اسمه وتطوّع في الجيش، وتزوج، وأنجب، وصار أبو منيب، ولما تقاعد لحق بأهل زوجته إلى بانياس، وفيها مات ودفن، رحمه الله.

وهذا هو قضاء الله وقدره: تخرج منيب في الجامعة، وتوظف مدرساً، أين؟ في الرقة، وبعد سنوات سرى أن منيب حسين الخلف هو منيب خلف الحسن، والابن مثل أبيه زينة شباب العفادلة، والثأر بعد ثلاثين سنة لم يبرد.

وأنت يا أبو لقمان؟

أنا ابن اليوم الذي خرجت فيه وإخواني من سجن صيدنايا. نحن جميعاً وأمثالنا كثر أولاد ذلك اليوم المبارك من شهر أيار المبارك سنة ٢٠١١ المباركة. الله سبحانه وتعالى أعمى بصيرتهم فكان العفو الذي به ولدت. ما قبل ذلك رميته في الفرات، وتوكلت على الله، وها أنا كما تراني: أنا هنا العقل المدبر والسيف البتار، أنا من يعيّن القادة الميدانيين ويعزلهم، أنا من يحدد الجبهات والعمليات القتالية، ومن يوقع على الحكم بالإعدام: بحبل أو رصاصة أو سيف أو بالحرق أو

بـالرمـي حيـاً فـي الـهوتـة. ألا تـعرف الـهوتـة يـا مـنيب؟

أحس منيب بلدغة كاوية، فانتفض. ولما هدأت اللدغة تساءل لأول مرة منذ خنقوا هفاف: أيـن يكونون قد رموا جثتها؟ في تلك الحفرة المقدودة من جهنم، في الهوتة يا أبو لقمـان؟

أطرق منيب وجأر في خرسه: يا الله، وانداح الجأر إلى أن بلـغ موسى فشق صوته فضاء الغرفة، ومقر الولاية، والولاية: يا وحوش. وتراءى موسى لمنيب على شفا حفرة مقدودة من جهنم وهو يصرخ: سنية، فصاح منيب: سنية أيضاً في الهوتة؟ وهمّ باللحاق بموسى ليصرخا معاً: هفاف، سنية، لكن الرجل الجهم البالغ الطول الذي قاده منذ قرابة العام، خاطبه بمودة وهو يطوي طوله: تفضل. املأ هذه الاستمارة. تفضل، هذا قلم. تفضل بالجلوس هناك.

على الطاولة الفسيحة اللامعة الفارغة، في وسط الغرفة، وضع الاستمارة متهيباً. وما إن طافت عيناه بالصفحة الأولى ملياً، حتى أسرع إلى الصفحات الثلاث، وكادت دهشته أن تطلق شهقةً لولا أنه سمع نحنحة الرجل البالغ الطول الذي جلس في زاوية الغرفة.

عـاد منيب إلــى الصفحة الأولـــى، وعلى عجل بـدأ يملأ

الفراغات: الاسم: منيب، اسم الأب: تساءل منيب: قبل أن يبدل الثأر اسمه، أم من بعد؟ حسين الخلف أم خلف الحسن؟ اسم الأم، الإخوة، الأخوات، الأعمام، العمات، الأخوال، الخالات، الأصهار، الزوجة، الأبناء، البنات، رقم هاتف كل اسم، من منهم في جيش النظام؟ ما رتبته؟ أين يعمل؟ من منهم في الجيش الحر؟ من منهم في جبهة النصرة؟ من منهم... أين درست؟ ماذا درست؟ أين تعمل؟ ماذا تعمل؟ هل انتسبت إلى حزب؟ ما البلدان التي زرتها؟ هل أديت فريضة الحج؟ هل أديت العمرة؟ هل اعتقلت؟ متى؟ وأين؟ ولماذا؟ إلى أية عشيرة تنتمي؟ الديانة، المذهب.

عندما انتهى منيب من ملء الاستمارة، بات على يقين بأنها هي الاستمارة نفسها التي ملأها في فرع الأمن السياسي وفي فرع الأمن العسكري، هنا في الرقة، سوى أن الدولة الإسلامية أضافت حقولاً للحج والعمرة والعشيرة والمذهب.

والآن: تفضل. الأمير بانتظارك: قال الرجل الجهم البالغ الطول بمودة، وهو يطوي طوله، وقاد منيب إلى قاعة أبو لقمان نفسها، غير أنها بدت أصغر، ربما لأن الجدران ضاقت بالستائر المرخية، أو لأن كثيراً من الكنبات ملأها آخرون، سيعرفه الأمير أبو علي الأنباري على واحد منهم فقط: القاضي

عايش عبد الحميد، وهذا منيب حسين الخلف، قال الأمير مبتسماً. واستبشر منيب بالابتسامة خيراً، على الرغم من أن حضور القاضي عايش عبد الحميد أقبضه، فهذا ليس فقط أبو إسلام وسنية، بل قد يكون هو من حكم على هفاف بالموت خنقاً. لكن عطر هفاف ملأ القاعة وأسكر الآخرين، لتنفرد بمنيب وتهامسه: رئيس المحكمة يا حبيبي، وأعضاؤها، والمدعي العام، والكاتب، والمنادي، كلهم كانوا رجلاً واحداً. كلهم كانوا الشيخ مانع. لا تسألني ما تمام اسمه. ولكن رئيس المحكمة الشرعية كان القاضي أبو نادر: فكر منيب، وهمّ بأن يذكِّر هفاف، فأدركت ما به، وأسرعت تقول: رئيس المحكمة هو مانع الذي هجر درعية الرياض ليجاهد في درعية الرقة. وفجأة شق صوت هفاف فضاء القاعة، وبدد عطره، صارخاً بالشيخ مانع: هذا كتاب الله أمامك، خلّ هذه التي كانت زوجة أخي فواز تقسم على كتاب الله أمامك أن صداقها معي، وأنا سأسدد كيلو الذهب بكيلو من لحمي. لكن الشيخ مانع صرخ بهفاف: تأدبي وإلا حبستك يا حرمة، فصاحت به: تأدبْ أنت يا شيخ، أنا بعمر أمك. عيب على لحيتك أن تأمرني: تأدبي، وأن تهددني. بماذا أغوتك هذه الفاجرة؟ بالذهب يا شيخ أم بماذا؟ أعوذ بالله من شر ما خلق.

كان أحد الحاضرين قد أطال الوقوف أمام الأمير. وكان آخر قد أطال الوشوشة في أذن القاضي عايش. وبعد لأي تنبه منيب إلى أنه بات وحيداً بين الأمير والقاضي الذي بادره بعداء:

– أين ابني إسلام؟

– انتظر منيب حتى لملم الربكة التي رماه بها القاضي، واصطنع الابتسامة متسائلاً:

– وما أدراني؟ ألم تجد من تسأله عن ابنك غيري؟

قال القاضي عايش وهو يغالب غيظه:

– لأنك كنت آخر من رآه.

قال منيب والتأثر يلون صوته:

– أنا رأيت إسلام يوم الخميس، وقال إنك أمهلته بالخروج من البيت حتى صباح السبت، إذا لم يلتحق بمعسكر الزرقاوي. صحيح؟

– ها أنت تعرف كل شيء، وبالتفصيل. هل أنت من حرضته على ألا ينتظر حتى السبت؟

قال القاضي عايش وصوته يتهدج، فعاجله منيب متظاهراً بالبراءة:

– ولماذا لا تكون أنت قد اختصرت المهلة؟

عندئذٍ نفد صبر القاضي، فانفجر صوته:

- لأني لم أختصرها. أما أنت فلأنك الوسواس الخناس، الذي وسوس لابني بالخروج على طاعة أبيه، وبألا يلتحق بالمجاهدين، فلم ينتظر حتى السبت.

- إسلام ليس غراً حتى أجعله أنا أو غيري يتخذ قراراً خطيراً مثل هذا القرار.

- لو وقع لابني مكروه فأنت المسؤول.

- لماذا تهرب من المسؤولية وتلقيها على غيرك؟ من رمى إسلام بالهلاك لا سمح الله هو أنت، أبوه.

أشهر القاضي كفه التي كانت ترتعش في جبهة منيب، قائلاً:

- حتى في ديار الكفرة أمثالك، يعدّون كلامك تطاولاً على القاضي، جزاؤه الحبس.

عندئذ أشارت كف الأمير بالهدوء فحاص القاضي عايش، ثم سأل منيب:

- ما أخبار موسى العايد؟

لا لا، لن يمضي هذا النهار على خير: دوّمت العبارة في صدر منيب وهو يلملم الخوف الذي رماه به القاضي، وحاول أن يصطنع ابتسامة، لكنه عجز، فتساءل:

– ما أدراني؟

وران الصمت حتى قطعه الأمير وكفه تربت على مصنف أمامه:

– هنا من يقول إنكما تتواصلان، ومن يقول إنكما تلتقيان.

قال منيب:

– بعدما اختفى لم أسمع صوته ولم أره.

قال الأمير:

– هنا من يقول إنكما لا تلتقيان مباشرة، بل عبر وسيط، عبر شخص ثالث.

– ادعاء كاذب. الرقة صغيرة وعيونكم ساهرة، لا يخفى عليها مثل هذا الادعاء.

– لموسى العايد وأمثاله في الفترة الأخيرة آثارهم في الرقة، خلايا نائمة، أصابع خبيثة ترمي قذاراتها على الجدران، توزع مناشير، ومن يدري، ربما تزرع الألغام غداً، وتغتال مجاهداً بعد غد.

عندئذٍ قال القاضي عايش وعيناه تنتقلان بين الأمير ومنيب:

– قد يكون موسى العايد أوقع ابني في حبائله. ولماذا لا يكون قد خطفه؟

قال منيب:

- لا حول ولا قوة إلا بالله.

قال الأمير وهو يضغط على زر الجرس المخفي تحت غطاء المكتب:

- سيحضر الآن من يأخذك إلى التحقيق. وبعد أن يأخذ أقوالك، عد إلى بيتك، ولكن لا تغادر الرقة في هذه الفترة. لنا قريباً لقاء آخر. انتظر في الخارج.

وخرج منيب متوجساً، بينما كان الضباب قد أخذ يتبدد في الخارج، مثل العجاج ومثل المطر.

في أي قاع هي؟

اجتاحت منيب عصراً رغبة عارمة في أن يكون وحيداً، ولكن ليس في البيت، لذلك تسلل من العمارة، ولما نجا من مصادفة أم باسيل أو قارو – وحدهما من تبقى من الجيران – سار متحاشياً النظر في وجوه من يعبر بهم. وبعد مبنى البريد آثر الشوارع الفرعية شبه الخالية، ولكن إلى أين؟

لا سبيل لك إلى الوحدة إلا النهر. لكن السبيل إلى النهر طويل، لأن حاجزاً لداعش يقطعه تلو حاجز، ولم تدع الحواجز ثغرة للالتفاف عليها. فليكن. ستقول للحاجز الأول: اشتقت لعراء النهر. وللحاجز الثاني ستقول: اشتقت لغرغرة النهر ورغواته. وللحاجز الثالث ستقول: اشتقت لهذر النهر، لدلاله، لآهاته. لكنك قبل أن تبلغ النهر ستكون قد غدوت مسخرة على الحاجز الأول، ومثاراً للريبة على الحاجز الثاني. لذلك لن تبلغ الحاجز الثالث، وستقف بعيداً عن النهر حتى تتناظر ندوبُ السماء ندوبَ النهر، ويشرع الليل ينشر هباته. عندئذٍ ستعود، ولن تتحاشى الشوارع الرئيسية، فالمدينة كلها صارت شبه خالية منذ أن تلقفتْ – كالنهر وكالسماء – هبات الليل.

أقلَّ رغبةً بالوحدة كان عندما عاد إلى البيت، ولذلك تباطأ

أمام بيت قارو. وعندما توقف أمام بيته هو، نظر إلى الأعلى، لعل أم باسيل تطل. وعندما ناشد اللابتوب أن يؤنس وحدته، تذكر أنه لم يرَ أم باسيل ولم يسمع صوتها هذا اليوم، ولا أمس. وكان اللابتوب قد أخذ يهزج مع جمهرة من النساء الجميلات الرشيقات ومن الشباب الجميلين الرشيقين أيضاً:

إبليسْ إجانا وحضرْ

يلله نتلاقى القمرْ

وبينما أخذت اللهجة العراقية الأثيرة لديه، تدغدغ سمعه، فاجأته الأغنية: إبليس هو داعش، فنظر إلى الباب حذراً، وأخفض الصوت، وترك أصابعه توقّع مع الأغنية:

حرَّمنا شرب السجارة وهجّرنا كل النصارى

يا قاطعَ الراس وينك

حرّمنا كل شيء إباحي إلا جهاد النكاحِ

يا قاطعَ الراس وينك

ها هنا غافلته عيناه ونظرتا إلى الباب الذي زجرهما، فأخرس منيب اللابتوب، وغادر الصالون إلى المكتب، وإذا بالرصاص يأتي من قريب، ثم ينأى، ثم يأتي من أعلى، ثم ينأى، ثم يشبك الجهات، ويشرع يتراقص كأنما بخيلاء، فعاد منيب إلى الصالون: ها هنا أكبر أماناً من رصاصة طائشة: فكر، وفكر أن أم باسيل قد تلجأ إليه كما فعلت مراراً بعدما

باتت وحيدة، كلما تراقص الرصاص: البيت في الطابق الأخير أكبر خطراً، وبيتك أكبر أماناً: كانت تقول، وستقول عما قليل.

لكن الرصاص هدأ، ولم تظهر أم باسيل، كما لم تظهر ربما منذ ثلاثة أيام، لذلك سوف يصعد منيب إليها، وسيكفيه أن تفتح الباب ليطمئن عليها.

للمرة الأولى يحرن هذا الباب. كانت هفاف تقول: كأن أم باسيل ترابط خلف الباب. قبل أن تقرع أنت الجرس تكون هي قد فتحته وغردت مرحبة. ومنيب أيضاً لم يطل وقوفه يوماً أمام الباب الذي ازداد حرناً، ولم يُجْد أن تخبط كف منيب عليه، ولا أن ينادي أم باسيل بصوت أعلى فأعلى. هل يعقل أن تكون قد رحلت؟

نزل السؤال بمنيب إلى بيت قارو الذي لم ير أم باسيل، ولم يسمع صوتها، لا هو ولا أم خضر، منذ يومين أو ثلاثة. وقارو يجزم مثل أم خضر أن أم باسيل لم ترحل، فماذا إذاً؟

اقترح قارو أن يخلعا الباب، واستعدت أم خضر للقاء الموت، واقترح منيب أن يخرجا معاً إلى الشارع، حيث سيصادفان دورية ما، فماذا لو أنهما خلعا الباب ووجدا أم باسيل، لا سمح الله، ميتة؟

امتدت الطريق الخالية بهما – في سيارة منيب – حتى

المجمع الحكومي القديم. وامتد التحقيق معهما عمن يكونان وعما خرج بهما، طوال الطريق الخالية، وفي سيارة الدورية، من أمام المجمع حتى المركز الإعلامي الذي صار مقراً لتنظيم وتسيير الدوريات الليلية.

من المقر إلى سيارة منيب، إلى البيت، أطبق الشفاه شبحُ الموت بعلّةٍ أو بجريمة. ولما خلع أحد المسلحين الباب بلبطة واحدة، اندفع المسلحون الثلاثة الآخرون خلفه مشهرين «بواريدهم». وما إن اختفى أحدهم حتى صاح: ها هي.

ها هي أم باسيل ضائعة في سريرها العريض، بثوب أصفر طويل، لعله هو ما ضاعف صفرة وجهها. وسوف ينقضي وقت طويل يمتد حتى آذان الفجر، ليبلغ أحدهم منيب وقارو المرابطين أمام مقر الدوريات أن هذه المرأة النصرانية – ما عاد اسمها مهماً ولاعمرها ولا سبب موتها – قد ماتت منذ ساعات فقط قبل اكتشاف موتها، وأن بيتها وما فيه قد آل إلى الديوان – أي ديوان؟ – ليس لأنه ليس لها وريث في الرقة، بل لأنها نصرانية.

والآن، وما دام المؤذن يؤذن للفجر، فعلى منيب وقارو أن يسرعا بالوضوء والانضمام إلى المسلحين الذين انتظموا في ثلاثة صفوف صغيرة، ملء الساحة المسفلتة أمام المقر.

بعد الصلاة عاد منيب وقارو صامتين، وبجانبهما مسلحان سوف يقيمان في بيت أم باسيل ويحرسانه ريثما تتم إجراءات الاستيلاء عليه. وعندما أوقف منيب السيارة أمام العمارة، اجتاحته رغبة عارمة بالفرار، ولكن إلى أين؟

لا سبيل لك الآن إلا إلى بيتك الذي سترزح مثله تحت وطأة الموت، وجيرة المسلحين، وما شوش عليك صلاة الفجر – هل أديتها من قبل؟ – إذ تماثلت لك أم باسيل مشلوحة أمام هذا الذي أمّ بكم الصلاة، تنتظر من سيدفنها. وها أنت قد عدت إلى بيتك الذي لن يرى أم باسيل بعد، ولن يسمع صوتها أو يشم رائحتها، فماذا تحسب أنهم سيفعلون بالجثة المسيحية الأخيرة في الرقة؟ سيفعلون خيراً لو رموها في الفرات مثقلة بحجر في كل قدم، فإلى القاع ستغوص أم باسيل حتى تستقر بجوار هفاف وسنية. ولو رموا أم باسيل في (الهوتة) فهو خير أيضاً، فإلى القاع ستتدحرج حتى ترتطم بهفاف وسنية. ولكن ماذا لو شلحوها في البرية لقمة سائغة لضبع أو لذئب؟

فصول من زمن العشق

١ – روحي تهفو إلى النهر مثلما كانت تهفو إلى البحر.

٢– السبخة.

٣ – هفاف

٤ – جنة أم فرحان

٥ – جنة خديجة.

٦ – من يجعل منك مسخرة؟

٧ – جنة أم فرحان

٨ – هفاف

٩ – هيام

١٠ – رجل وامرأة

١١ – سينما.

١٢. أنا عاشق هفاف

١٣. فيضان

١٤. عاشقة

١٥. خبزة مقمّرة

١٦. المدير

١٧. الولع المر

١٨. المدير

١٩. كأنه عارٍ

٢٠. عروس

روحي تهفو إلى النهر
مثلما كانت تهفو إلى البحر

من بانياس أقلته مع حقيبته إحدى السيارات الصغيرة التي تنطلق إلى حلب قبل أذان الفجر.

كان السهر والوداع قد أنهكاه، لكنه لم يغفُ طوال الطريق، على الرغم من العتمة ونوم المسافرين الآخرين. كان ثمة قلق خفي يناوش غبطته بالسفر، وعبثاً حاول أن يجمع شتاته، بينما انعطافات الطريق الحادة تجفله مثل صعودها وهبوطها. وحين أخذت تنبسط، راح منيب يخاتل صخب المذياع وأنوار السيارات القادمة في الاتجاه المعاكس، وفجأة أشرقت الشمس.

كان صباحاً جديداً غير ما عرفه من قبل في بانياس، أمام البحر، أو في أية قرية زارها في الجبل، أو في دمشق أيضاً.

هو صباح فسيح، نقي، هادئ، يغمر السهول التي أخذت تقرّب حلب، بينما أخذت يد دافئة وغاوية تمسح على إحدى وعشرين سنة طواها منيب، ليودع أمه وإخوته وقبر أبيه والبحر والمدينة الصغيرة الوسخة، ويَعمر محمد الذي يصر على أن يناديه منيب: صديق العمر، ثم يلعن المنادي ويلعن هذا العمر.

حين أقبلت حلب كبيرة ومهيبة، تمنى لو أن السيارة تباطأت في مدخل المدينة المرتفع الذي يفتح العينين على مدى من المآذن والبيوت والبقع الخضراء وتلك القلعة التي زارها ذات يوم في رحلة مدرسية، قبل أن يُوْدِعَ طفولته في وكنةٍ قصية وضائعة.

من كراج إلى كراج أرخى خطاه، يقاوم الحقيبة التنكية التي تشد ذراعه إلى أسفل، يحملق في وجوه الناس المسرعين الذين يملأون الرصيف، ويتشمم رائحة الزعتر والغار وأكياس التوابل، وتبرق عيناه للمكانس المعلقة، والساعة العتيقة، والواجهة الضخمة للمكتبة الوطنية، وهذا الزقاق الضيق الذي ينطلق من جوارها. لا بد أنه الزقاق الذي حذره منه يعمر محمد غامزاً: بخمس ليرات فقط تستطيع أن تختار أحلى امرأة.

ألوى منيب عنقه عن الزقاق لاعناً يعمر. ومن أحد المحال المجاورة لكراج الرقة تناول سندويشة مدججة ببيضتين مسلوقتين وقطع البندورة. وسرعان ما انزج في سيارة أكبر من تلك التي أقلته من بانياس. وما إن خرجت السيارة من المدينة حتى أرخى رأسه ينشد النوم. لكن الطريق بدت بعد المطار ملأى بالحفر، تزيدها عسراً المقاطع الترابية الطويلة. وراح الهواء المنسرب من نافذة السيارة يسخن كلما تقدمت، ثم راح الغبار يفرض عليه أن يغلق النافذة فيتضاعف الحر داخل

السيارة، ويتبرم جاره. ورويداً مالت به مسامرات المسافرين الآخرين مع السائق بلهجة لم يسمعها من قبل إلا من أبيه ومن الأغاني العراقية والبدوية التي أورثه حبها. ورويداً أخذت تستفزه السهول التي تبدو بلا نهاية، جرداء، مستوية ومبهمة، تعتورها بين حين وآخر بعض القباب الطينية أو الحيوانات الهائمة. وفكر في قدرة الإنسان على أن يعيش هنا، حيث لا بحر ولا جبل، لا زرقة ولا خضرة ولا نسمة، بل هذا اللون العصي على الأسماء. وها هو الإسفلت الداكن يعج بالبثور، لكنه يلمع أحياناً: ومضة هي مثل ومضة البرق، لا تكاد تغشى العينين حتى تنطفئ. لكنها بعد حين أخذت ترق وتطول لتغدو بريق ماء أو زجاجاً ينفطر نقاوة: هل هذا هو السراب؟

لم يستطع أن يكتم انبهاره وغبطته على من حوله الذين بدا أنهم قد ألفوا مثل ذلك من الوافدين الجدد إلى منطقتهم. وفي مدخل أبو هريرة توقفت السيارة أمام أحد المطاعم للاستراحة. وملأت رائحة الشواء صدر منيب، بينما أخذ يعزف له صدى كلمات والد يعمر الذي خبر هذه الأنحاء من حدود العراق حتى حلب: سوف تشبع من لحم الغنم ولبن الغنم، بلاد خيّرة يا منيب.

ولم تكد السيارة تقلع ثانية حتى أخذ يعزف له صدى

أحاديث نبوية رواها أبو هريرة. وفكر في أن الكتب ملموسة إلى هذا الحد الذي جعل هذه القرية تحمل اسم أبو هريرة. ومثل الكتب هي أيضاً دنيا العرب والمسلمين الشاسعة، وأزمنتهم المديدة.

بعدما غابت الاستراحة أخذت الطريق تغدو أيسر، ومنيب أوفر عافية، وقد صار الفرات يخاتله، مثل بقايا القطن في الحقول المحاذية، والشجيرات المتناثرة، والبشر الذين أخذوا يظهرون في القرى المتواترة، أمام البيوت أو على ضفة النهر. وحين عبرت السيارة الجسر، ودّ لو أنها تسير أبطأ، كي يتملى من هذه الصفحة القريبة التي تنادي صفحة البحر، لكن زرقتها أكبر غموضاً، كذلك هو نثار البياض والمويجات فيها. ولم يفق من هجسه إلا حين توقفت السيارة وأخذ المسافرون يغادرونها، بينما صوت أجش ينادي: حلب حلب، ويهش لمنيب: أهلاً بالأستاذ. تعال يا ولد احمل حقيبة الأستاذ. سفرة ثانية أم أوتيل أم؟ نحن بالخدمة يا أستاذ.

أوتيل يا أخي: قال منيب وهو يجيل عينيه في الساحة الصغيرة المرصوفة بالحصى، والتي كانت ترابية وأصغر عندما رأيتها آخر مرة: همس صوت في أذن منيب، وخيل له أن الصوت قادم من قبر، أو هو لميت. وحين أدرك أن الصوت

لأبيه اقشعّر وحدق في الكراج الذي يتصدر الساحة، ثم تلفت: بناء كبير قبالة الكراج تتصدره لوحة مهيبة: ثانوية خديجة للبنات، وإلى اليمين ينفتح شارع على جانب منه دكاكين، يقابلها السجن، الشارع مرصوف بالحصى أيضاً، وجدار السجن ترابي- هل كان كذلك على عهدك يا أبي؟- والهواء أقل سخونة منه في السيارة، وهذا أوتيل الرشيد: تفضل يا أستاذ.

ينفتح مدخل الأوتيل مباشرة على الرصيف الضيق. بعض النزلاء يقتعدون كراسي صغيرة على طرفي المدخل، ومنهم من قرفص طاوياً جلابيته بين فخذيه. وهذا الرجل القصير يلاقي منيب بابتسامة غامرة ملء وجهه المدوّر الطافح. أهلاً بالأستاذ. أنا عمك أرتين.

في الغرفة المتطاولة البالغة الضيق - أرتين يقسم أنها مربعة ورحبة - يضحك الأستاذ من الأستاذ وهو يفر إلى السرير بعد شقاء مئات الكيلومترات، ويغرق في النوم حتى العصر، ثم يهرول عشرين خطوة ما بين غرفته في طرف الأوتيل والمرحاض في الطرف الآخر، ثم ينصاع إلى كأس الشاي الذي أمر به المعلم أرتين، ثم ينطلق متخففاً من التعب والقلق والحر، إلى ما حول الأوتيل والكراج.

بطمأنينة تكبر، أخذ ينأى دون أن يخطئ في تقدير موقعه

من شارع إلى آخر، لكنه ظل يتحاشى فروع الشوارع.

كانت دمشق قد ظلت تعجزه سفرةً تلو سفرة، قبل أن يحفظ الطريق من الكراج إلى الجامعة، من المرجة إلى البرامكة، من الجامعة إلى أوتيل العربي، من الأوتيل إلى الغرفة التي يقطنها يعمر في الطبالة.. أما الرقة فتبدو أقرب إلى بانياس في الأزقة الخلفية العديدة لكل شارع، ما هو منها ترابي أو ما تقشر قميصه الإسفلتي.

ولكن، ليس في بانياس مثل سينما غرناطة، ولا مثل مكتبة الخابور، ولا مثل هذا المقهى المجاور للمكتبة: «يلّله» يا منيب، ادخل. سوف تجد أقراناً لأبيك، وأقارب، وسيهتف أحدهم: أنت ابن خلف الحسن، سبحان الله، كأنك هو. لكن الله يخلق من الشبه أربعين، لكني منيب بن حسين الخلف، احذر.

كهاربٍ يدير منيب ظهراً، ويسير صُعُداً في شارع المنصور، حتى أوقفته في منتصف الشارع الرائحة الآسرة الغريبة أمام بائع السندويش الذي تحلق حوله عدد من الفتية والشباب. ويبدا منيب غريباً بينهم بقميصه وبنطاله وبياض بشرته وشقرة شعره، لكنهم أفسحوا للغريب بمودة واحترام، ورحب البائع به بلهجة مختلفة: في السيارة لهجة، ولأرتين لهجة، ولهذا البائع لهجة، ولك أنت لهجة، فعلى كم لهجة تنطوي هذه المدينة؟

في بانياس لم يسمع منيب إلا لهجة أبنائها، ولهجة الريفيين الهابطين إليها من الجبل، ولهجة المرحوم خلف الحسن الذي كانت له وحده، ولم تزدها السنون إلا عتاقةً. اسمع يا منيب، إنها لهجة هؤلاء الفتية، هؤلاء الشبان، وربما كان لك بينهم ابن عم أو ابن عمة. اهتف إذاً: أنا ابن خلف الحسن و.. وإياك أن تهتف، فأمك تودعك فجراً: احذر يا منيب، قد تشي بك لهجة أبيك، وإذا لم يبرد الثأر برأس خلف الحسن، فسيبرد برأس ابنه.

بعد السندويشة مضت خطواته كيف تشاء، إذ كان مشغولاً بالبحث عن أثر لأبيه حيث تقع عيناه: هنا كان يمشي، هناك كان يركض، يلعب، يشاجر، يغني، وهنا كان يأكل، هنا كان ينام، هنا كان يكبر، ويظل يكبر حتى يفوز دائماً بالسباق إلى النهر أو بالسباق إلى خيمة هذه الحجيّة النورية القرباطية: سمّ كما تشاء، يهمس خلف الحسن في أذن منيب ممازحاً ومتباهياً بشبابه. لكن الثأر طلبك يا أبي، فبترك من الرقة، وهربت إلى دمشق، وتطوعت في الجيش طلباً للأمان. وإمعاناً في التخفي بدلت اسمك فصرت حسين الخلف. وعندما صرت الرقيب المتقاعد حسين الخلف، لحقت بحميك إلى بانياس، فلم يعوضك البحر عن النهر، ولا ذووك الجدد عن ذويك القدامى،

ورحلت وأنـت تبكي الرقة في ضحكتك وغنائك وصمتك وشرودك. وهـا أنذا أقف بين يدي السور الترابي المتهالك، حيث كنت تقف، ولأن الليل بدأ يظلل السور، فسأدعك هنـا كما تركتك في بـانياس، إلا إذا أرشدتني إلى السبيل إلى النهر، فروحي تهفو إليه مثلما كانت تهفو كل مساء إلى البحر.

السبخة

في الصباح الأول لمنيب في الرقة، تناول الشاي القاتم من صبي الأوتيل. لذع الشاي لسانه وملأ أنفه بنكهة مخرشة، مثلما أشبعه بالحلاوة الزائدة منذ الرشفة الأولى: مثل الشاي التي كنت تحرص يا أبي على أن تعدّها وأنت تدندن: خدري الشاري خدريها.

من الأوتيل أسرع إلى المجمع الحكومي، حسبما أرشده المعلم أرتين. وفي غرفة فسيحة، لم يكلف مدير التربية نفسه عناء أن يرفع عينيه عما بين يديه من أوراق، فتطامن منيب وهو يسأل راغباً وقلقاً:

– أليس لي في مدارس المدينة مكان يا أستاذ؟

من غرفة الديوان كان قد تسلم أمر تعيينه في قرية قريبة على الطريق إلى دير الزور. كان الموظف لطيفاً، ألح عليه أن يتناول الشاي، فجلس خجلان بجوار شابة ترخي عباءة سوداء على كتفيها، ويبدو شعرها الأسود الطويل الناعم امتداداً للعباءة، فيما أسفر وسط العباءة عن فستان يزهو بتموجات حمرته، واسع الفتحة. وحين رن الجرس في مكان ما من الغرفة، وهرع الموظف إلى المدير، أجفل منيب على سؤال الشابة:

– الأستاذ جديد هنا؟ أول مرة؟

أعاد منيب الكأس المرتجف إلى الترابيزة اللامعة، وخرج من صمته بصعوبة:

– نعم، أول مرة.

– وأين عينوك؟

– في السبخة.

– ماذا ستدرس؟

– اللغة العربية.

وأردف حابساً ضحكة خجولة:

– والتربية الدينية.

فانطلقت ضحكتها رقراقة، وارتبك، فعاد إلى كأس الشاي وهي تقول:

– لماذا يرسلونك إلى هناك؟ مدرستنا بحاجة إلى أستاذين في اللغة العربية.

– أين تدرّسين؟

– أنا موجهة في ثانوية البنات.

قالت وهو يتشرب الغنة البدوية التي زوّقت صوتها. وعاد الموظف متجهماً، فألفى منيب نفسه ينهض مودعاً.

حول المجمع تنبه إلى كتاب العرائض والمصورين، ولوحة

صغيرة قرب المخرج الخلفي تعلن عن المركز الثقافي. وفي الخارج تنبه إلى سور طويل نظيف يوازي الشارع المزدوج الذي يشبه شوارع دمشق.

في نهاية السور قرأ اللوحة الكبيرة: ثانوية الرشيد للبنين، فسال لعابه، ولعن مدير التربية الذي رماه بعيداً عن المدينة، وأخذ يستعيد ملامح الموجهة وغنّة صوتها، وتحسر على أنه لم يعرف اسمها، وربما لن يلقاها أبداً. وفي الطريق إلى الأوتيل أخذت عيناه تبحثان عن أية عباءة، منذ أسلمه الشارع المزدوج إلى الكنيسة الصغيرة.

في الأوتيل دعا أرتين للأستاذ بالتوفيق، ونهر الصبي كي يحمل الحقيبة إلى سيارة السبخة. كل السيارات الذاهبة إلى دير الزور تعبر بالسبخة، والطريق إليها مؤمن ليلاً نهاراً يا أستاذ: قال أرتين وابتسامته الغامرة تملأ وجهه المدور الطافح. ولم تكد شفتا منيب تنفرجان من بعد. وبدا كمن تفيض البلاهة من نظراته وهو ينحشر في الباص، ولا يلتفت عن النهر المحاذي للطريق حتى يرميه الباص أمام الإعدادية.

وتضاعفت عليه ومنه البلاهة وهو يقدم نفسه إلى مدير الإعدادية العجوز، ثم يغرق بقية النهار في التفاصيل: السكن الذي تدبره آذن المدرسة رمضان، وابور الكاز، الفانوس،

ملاعق وإبريق الشاي وصحون وسكر وملح وسكين وخبز وإبريق الماء الذي تنقله الجارة أم حسون على الحمار من النهر، وهذا هو المرحاض بعيداً عن الغرفة، ومغمور بستارة الخيش التي تحجبه عن الزقاق الترابي.

من الإعدادية إلى الغرفة عبر منيب بمهرجان من الأغنام السارحة وموتورات المياه والعباءات والصياح وصوت المؤذن في المئذنة الصغيرة فويق الجامع الصغير.

وسط الغرفة الطينية العارية وقف يتأمل فراش الصوف المنبسط في الزاوية اليمنى، والحقيبة التي اضطجعت في الزاوية اليسرى، والأشياء التي كومها رمضان قرب الباب. واستعاد صوت رمضان وهو يودعه: الجيرة في هذا البيت أفضل جيرة في السبخة: أبو حسون يحصل رزقه من الخدمة في المخفر، من مناسبات الزواج والموت، وأم حسون تخدم في بيوت مدير الناحية ورئيس المخفر ومدير الإعدادية طوال السنة، إلا في موسم القطن.

هذا إذاً هو عالمك الجديد: عالم بسيط ومحدود وسريع الألفة، تتضاعف عليه ومنه البلاهة مثلك، فتنسى أنك عرفت يوماً الكهرباء أو الطاولة أو الخزانة أو الغاز إلا في السينما أو في حلم أو ربما في مجلة ملونة. ومنذ الصباح سوف يغدو

الطعام هماً كبيراً، إذ لا يعقل أن تثقل على فقر أم حسون وأبو حسون بكأس الحليب أو رغيف الخبز أو بثلاث قطع من الجبن. ولا يليق بالأستاذ أن يأكل واقفاً أمام الدكان الذي يبيع اللحم ويشويه: يؤكد المدير العجوز ذلك بنفسه، وهو يرثي للشاب القادم من الساحل، ويتحسر على العز الذي كان له هو، عندما كان في مثل سنّك، وجاء تعيينه مدرساً في القامشلي: كان في القامشلي مبغى ولا في حلب نفسها. يوشوشك ويكتم ضحكته، ثم يوشوشك حيران مثلك في بلاهتك: اذهب إلى قيادة الحزب في الرقة، اسأل عن الرفيق محسن، هو أيضاً من الساحل، ربما من بانياس نفسها، بإشارة من إصبعه يستطيع أن يجد لك مكاناً في الرقة. سيفرضك على مدير التربية. مدير التربية ليس على وفاق مع قيادة الحزب، وهم يبحثون عن واحد من رفاقهم ليحلوه محل ذلك الشائب الذي أنكر أهله. كنا معاً أنا وهو في المدرسة، نحن من بلدة واحدة على الحدود، تستطيع أن تقول: نصفنا عراقي ونصفنا سوري، ولكنه لا يحفظ الود ولا يصل قرابة ولا زمالة. أنا لست في الحزب، لكني أتمنى أن يجعلني الرفاق أشمت به. هل أنت منهم؟ إياك أن تكون في حزب آخر.

لا، لست منهم ولا من غيرهم: تمتم منيب وقد أضمر أن

يطير إلى الرفيق محسن، ولكن متى؟

تناءى الجواب ريثما فرغ المدير والآذن رمضان أبو حسون وأم حسون وصاحبة الدكان الجارة الكردية سيوماند، كلٌّ مما يرويه عن الشاب الأشقر الصموت والمشدوه بكل ما يرى وما يسمع: سرب باصات السكانيا - وشاحنات البوزينك وصهاريج البنزين القصيرة والطويلة والبيك آبات - والذي لا ينقطع نهاراً، ولا يغفو منيب إلا على هديره ليلاً، وسرب القطا وسرب الكلاب السائبة وسرب القباب الطينية وتعال يا أستاذ: لاتخف، مشوار صغير إلى حويجة السبخة، تفرج على القطن، وإذا لم تعجبك هذه الحويجة فتعال إلى حويجة شنان، لاتفارق الفرات بعد اليوم، واخترْ لك واحدة من العشائر، لعل نسبك يصح أو يكتمل. انس المدير. المدير غريب مثلك. أمامك رمضان من ولدة الشامية المترامية من الدبسي إلى السحل، وأبو حسون من البوسبيع المترامية بين التبْني ومعدان، وكلنا من السبخة، والسبخة من البوشعبان، مثلنا مثل البوجرادة ومثل البوعسّاف، وإياك ثم إياك أن تصدق أن البوشعبان شوايا الفرات أو شوايا البليخ، فنحن زبيديون يا زبيدي. لكن منيب حسين الخلف - أي منيب خلف الحسن - من العفادلة، والأب كان الحنين والفخر يجرحان صوته وأنفاسه وهو

يحدث ابنه صغيراً وكبيراً: نحن العفادلة منازلنا كانت تشرق مع الفرات من الرقة حتى خس دعكور، وكان لنا بيوت في الشامية. وفي كل مرة كان صوت حسين الخلف – أي خلف الحسن – ينوح:

يا دهر يا خوّان مالك روابيعْ

ادعيتني ما نام ليلي أغنّي

ولكن انسَ يا منيب، إياك أن تذكر أنك من العفادلة ولا من الرقة كلها. احذر يابني الله يرضى عليك: صوت أم منيب هو أم صوت أبيه يهمس في صحو أو في منام، فكأنما يهمزه كي يطوي ما تبقى من الأسبوع طيّاً، ويطير إلى الرفيق محسن.

هفاف

في يوم غير معلوم، رأى هفاف العايد لأول مرة.

من زاوية القاعة اليسرى كان شعاع سماوي قد أعشاه، وهو يقف خلف المنبر، ففرت عيناه عبر النافذة التي تطل من الطابق الثاني على ساحة الساعة والكراج، ثم لجأت العينان الذاهلتان إلى وجوه الطالبات العشرين. وربما لم يكن لولاهن ليتجرأ على أن يعود إلى تلك الزاوية التي أشفقت عليه، فبدلت الشعاع بشفتين لمياوين تبتسمان دون أن تنفرجا.

بعد قليل يغامر منيب فيسأل الزاوية عن اسم هذه الطالبة التي تملأها، فسرى صوت سماوي: هفاف العايد. ولن يتذكر منيب بالضبط ما الذي جرى من بعد. قد يكون سأل هفاف عن حضورها اليوم لأول مرة، وقد تكون عللت ما أخّرها عن الالتحاق بالثانوية، بمرض أبيها أو بموته، وقد يكون تحاشى أن يكلمها وهو ينظر إليها، وقد تكون لطشته في نهاية ذلك الدرس الطويل، كما تلطش الجنية الإنسي.

جنة أم فرحان

كان قد أودع بلاهته في السبخة، وامتلأ حبوراً وثقة عندما تدفق الرفيق محسن: الانتقال إلى هنا نافذ منذ الآن، وليس عليك إلا أن تبدأ البحث فوراً عن مسكن وتأتي بأشيائك من السبخة.

لكن منيب لن يعود إلى السبخة. وفي أوتيل الرشيد سيمضي تلك الليلة منشرحاً، بعد أن يحضر الفيلم الذي صادفه في سينما الزهراء، وخلّف له صدى لا ينقطع من أغنيات نجاة الصغيرة. وفي الصباح رافق أرتين إلى بيت قريب، خلف الكراج، واتفق مع أم فرحان على أن تؤجره الغرفة المفروشة الكبيرة التي تتصدر البيت، مقابل ثلاثين ليرة كل شهر.

ما إن لطشته هفاف حتى كبُر عليه أن يكون غريباً في الرقة، وزيّن لنفسه الحلم بأن يعلن الاسم الرقاوي لأبيه، ويهتدي إلى أعمامه وأبناء أعمامه وعماته وأبناء عماته، وينزل في بيت كبير سيخصونه به. لكن صوتاً مثل صوت أمه، بل مثل صوت أبيه، أسرع بالهمس: احذر يا منيب.

من يوم إلى يوم باتت الرقة عالم منيب الوحيد، لكأنه لم يعش في سواها. لكأنه طوى عشرين سنة – أم أقل –

بانياس، وأشطاراً من سنين أخرى في دمشق، فكل ذلك الماضي صار يتراءى كأنه كان منذ عهد سحيق، وما عاد يعنيه في شيء.

الآن هو ذا بيت أم فرحان الواسع، وقبالته يقوم بناء حجري كبير وفائق الروعة للطبيب الذي سحرت قصصه منيب: عبد السلام العجيلي.

وهي ذي أم فرحان الضاحكة دوماً، والتي ترفل دوماً بثوبها الأسود السابغ، فتبدو أكثر سمنة، لكأنها كتلة ضخمة، وليس ثمة ما يشي بأنوثتها سوى بروز خفيف على القفا.

غير أن منيب سرعان ما سوف يعاين في أم فرحان جديداً كل يوم، فيضحك من غفلته، إذ صار للمرأة عينان سوداوان واسعتان، وتسطعان بما يؤكد أنها مازالت فتية، على الرغم من أن فرحان شاب، وخود صبية، وخلفهما يتجرجر ثلاث فتيات وطفلان، ولا ريب أن «أبو فرحان» يكبرها بعشرين سنة: سيجزم منيب عندما يرى الرجل أول مرة.

رويداً سيكون لأم فرحان حركة مثيرة وهي تنتقل في فسحة الدار، ترتج مقبلة وترتج مدبرة، تعمر بالانحناءات وهي تقرفص، ويداها لم تعودا كبيرتين وممتلئتين مثل يدي أمك يا منيب. لم يعد منيب يحسّ بالذنب وهو يستعيد هيأتها

في وحدة غرفته، سواء كان أبو فرحان أو فرحان أيضاً في البيت، أم كانا في غيابهما المتكرر الطويل.

باب غرفة منيب يطل على مصطبة إسمنتية قبالة باب الدار الحديدي الأسود. وعبر درجات أربع تفضي المصطبة إلى أخرى أكبر، تحتل يمينها الغرف الثلاث التي تتوزعها الأسرة، ويقابلها المرحاض المشترك، والحمام المشترك.

منذ يومه الأول، كانت خشية منيب الكبرى أن يكون أحد قد سبقه إلى هناك. وفي مساء الخميس الأول هربت عيناه وأذناه من أم فرحان وهي تدعوه إلى الماء الساخن، وأن يترك ثيابه المتسخة في الحمام لتغسلها له.

بيسر وسرعة تبدد الإحساس بالغربة وبالحرج، واندغم في نسيج البيت، حتى بات يستحث من يصادف أن يكون قد سبقه إلى المرحاض، وإن تكن خود، أو أم فرحان.

كانت أم فرحان تتباهى مرة بما حشدت في الغرفة، وتأسى مرة: سرير عريض يضيق بالفراش الصوفي المنتفخ، طاولة صغيرة وثلاث من الكراسي الخشبية، واحدة منها لا تصلح إلا للقرفصاء. أما المدفأة فلن تتوسط الغرفة حتى تعلن ليالي تشرين أنه قد آن الأوان، وأن الشتاء قد أهلَّ، على الرغم من صفاء السماء الدائم، وسطوع شمسها أو قمرها. وريثما

تمكن الشتاء كانت النافذة المطلة على المصطبة قد تحولت إلى مكتبة صغيرة، تجاورها على طول قامة منيب مرآة مدورة حائلة، وتقابلها بموازاة السرير نافذة أعرض، بالأحرى فجوة في الحائط تبلغ السقف، وتحتشد بالفرش الصوفية والوسائد الملونة. وكانت أرض الغرفة وحدها من بين غرف البيت الأخرى، مبلطة، ويستر عريها بساطان صغيران ومهترئان، فرشتهما أم فرحان عندما نصبت المدفأة.

كان منيب هانئاً بهذا العش، كما يسمي الغرفة، تيمناً بالغرفة التي انفرد بها في بانياس بعد موت والده. وكما في العش البانياسي، هو ذا يقضي العشيات في العش الرقاوي– كان يسميه أيضاً: العش الفراتي – برفقة هذا العدد من مجلة المسرح القاهرية: هذه مسرحية الطريق لسوينكا، وهذه مسرحية بلاتونون لتشيخوف، وهذه صفحات وصور لمهرجان دمشق الأول للفنون المسرحية، لكأن يعمر محمد هو الذي يتحدث متباهياً كي يغيظ منيب ويثير حسرته: لو رأيت يا صاحبي دريد لحام وعمر حجو في محاكمة طارق بن زياد بعد ما قبض الأمن عليه. وآه لو أنك رأيت مسرحية الفيل يا ملك الزمان، ومنيب يقتني عدداً أقدم من المجلة، كان ضائعاً في مكتبة الخابور، وتمضي العشيات هذه المرة، برفقة

السينما: سيناريو فيلم مودوموازيل لجان جينيه، مقابلة مع روبرتو روسلليني صاحب فيلم روما مدينة مفتوحة، ويعمر محمد «يتمطق»: لو شاهدت هذا الفيلم يا منيب، يا رجل، أسابيع وسينما دمشق مكتظة بفضله!

إبان ذلك بدأ أصدقاء جدد يزورونه. ولا أحد يعرف كيف كانت خود تعلم بقدوم صديق، فتباغت منيب بالشاي. وكانت خود تسأل أيضاً عما إذا كان الأستاذ يرغب بعشاء لصديقه أو لأصدقائه. وخود مثل أمها، أمرت بأن يتناول منيب طعامه في البيت. عيب يا أستاذ: قالت خود، وقالت أم فرحان: ستدفع لي في نهاية الشهر ما يكلفني طعامك، وكررت خلف خود: عيب يا أستاذ.

ولكن متى كان ذلك كله؟ قبل هفاف أم بعدها؟

جنّة خديجة

كان يرفل في كسل الضحى عندما داهمته رائحة غريبة. كان الباب مغلقاً، ولأنه يوم الجمعة، فلن تقترب أم فرحان ولا خود حتى يعلن المرحاض عن يقظة الأستاذ.

أخذت الرائحة تخدش أنف منيب، ولكن ما الذي يخدش عينيه؟

ستقول أم فرحان: العجاج يا أستاذ، وسيكذبها فيما ستروي عن العجاج. ولكن لن يجدي الأستاذ أن يحكم إغلاق النافذة والباب، ولن يجديه أن الغرفة منزوية ومحمية بذلك الجدار العالي الذي ليس له نظير في ارتفاعه وزينته، ويفصل بين بيت أم فرحان والجيران، فالغبار ينفذ من المسامات، وهو وحده يعرف كيف ينفذ: تحت البساط أو تحت الثياب، وربما تحت الجلد، فكيف هو إذاً في الخارج!

طعم جديد للطبيعة إذاً هنا، فلا الضياء هو الضياء، ولا سطوع الشمس، ولا سطوع القمر، ولا نسيم الفرات، ولا عزفه المستكنّ، وصدر منيب يخفق بمطر غزير وبحر يعصف، لكنك لست في بانياس. ها هنا طعم آخر للطبيعة ولبوس آخر، ربما قرأت عنهما ذات يوم في كتاب للجغرافيا أوفي رواية، ربما

عرفتهما في مشهد سينمائي، لكنك الآن تحيا في صميمهما، ويلوح لك بريق مغامرة يدفعك أبعد وأقوى في حياتك الجديدة، ليس في بيت أم فرحان، بل في ثانوية خديجة للبنات التي يحلو لك أن يردد أصدقاؤك الجدد أسماء أخرى لها: القاضي العقاري معزز عبد الواحد: قلعة النساء، والمحاسب في مركز شراء الحبوب فندي الفهد: حبس البنات. أما أنت فتسميها في سرك، ولك وحدك: جنة خديجة.

كان يغبط نفسه في سره، مثلما يغبطه أصدقاؤه الجدد في علنهم على جنة خديجة. كان يغالب الحرج، إذ ليس ها هنا من الذكور سواه وثلاثة من المدرسين الذين يتنقلون بين ثانوية الرشيد وثانوية خديجة. لكنه وحده مع الآذن سطام لا عمل لهما إلا في جنة خديجة.

في أيامه الأولى لم يكن من السهل أن يتعود منيب على أن تكون المديرة امرأة، والموجهات والمدرسات والآذنتان وأمينة السر وأمينة المخبر.. كلهن من النساء، عدا أن أغلبهن – المدرسات بخاصة – يسوّرن رؤوسهن بالإشارب، ومنهن من كانت تلتف بالثياب من رأسها إلى وجه حذائها، سوى الوجه والكفين. غير أن الوجوه جميعاً كانت مزوقة: حمرة الشفاه قليلة، لكن الحواجب تهزج، ولون البشرة يرهج. أما الطالبات

فأغلبهن يختفين داخل العباءة السوداء حين يقرع جرس الانصراف. ومنهن من كانت تبدأ بالاختفاء داخل الصف، ومنهن من تتلكأ حتى الخطى الأولى خارج الباب الرئيسي. ولم يكن منيب ليلمح واحدة منهن ولا من الزميلات في شوارع المدينة، لا بعد انتهاء الدوام، ولا في أيام العطل.

في نهاية اليوم الأول فوجئ بها مندفعة صوبه وضاحكة، ولما وقفت أمامه مدت يدها مصافحة، بينما غنة صوتها ونعومة شعرها الأسود الطويل، تذكرانه بالشابة التي التقاها في مكتب مدير التربية: موجهة في ثانوية البنات قالت، والآن: هيفاء، تقول، ومنيب يبحث عن عباءة مرخية على كتفين، وعن فستان تتموج حمرته، وعن فتحة الصدر الواسعة، ويحزنه أنْ ليس لهيفاء شيء من ذلك، ويصعقه أنها تدنو منه هامسة:

- مالك تبحلق؟ العباءة معلقة في غرفة الموجهات، والفستان بدّلته، شعري والله العظيم هو هو.

ثم تلتفت إلى طالبتين تقتربان بغنج وضحكتهما تنفجر، فتنهرهما:

- امشي بأدب واضحكي بأدب.

وإذ تعود إليه تجده يبتسم ويتمتم:

– كنت قاسية معهما.

فجازته بغمزة، وقالت:

– لا تتهاون مع طالبة، نصيحة. وخذ حذرك من جحفل العوانس.

– عوانس؟

سأل بدهشة، فهمست ضاحكة:

– زميلاتك المدرسات يا أستاذ.

وتركته للعبة جديدة: يسرق من مدرّسة الفنون والتدبير المنزلي عدوية نظرة: ثلاثون سنة على الأقل، من أمية مدرّسة الرياضيات: ثلاثينية أيضاً، من مدرّسة العلوم سعاد: سعاد أكبر، ومن مدرّسة الإنجليزي حياة: حياة أصغرهن، ربما في مثل عمر هيفاء. ولن تتوقف لعبة العوانس حتى تضيق غرفة الإدارة مثل غرفة المدرسات بأصواتهن تلعن المدينة التي لا تعدو أن تكون سجنين كبيرين: المسكن والمدرسة. عندئذٍ يفكر في أولاء القادمات مثله من بعيد، لكنهن قادمات من المدن الكبيرة، من حلب ومن دمشق فقط. وأياً يكن الجلباب أو غطاء الرأس، فهنّ يخرجن هناك إلى الشوارع، فلماذا لا يفعلن هنا؟ لماذا تحبس هذه المدينة نساءها، إلا إلى العمل؟ مَن هنَّ اللواتي يصادفهن إذاً في الشارع من نساء المدينة؟ لابد أنهن

من الريف القريب أو البعيد، بالعباءة نفسها، أو من الموظفات القادمات من دير الزور أو الساحل، أو من حلب بخاصة، كما سيعلم بعد حين.

كان بين أصدقائه الجدد، بخاصة معزز عبد الواحد وميخائيل زويتينة من تسكره النشوة إذ يرى، ولو من بعيد، عباءة أو خيال امرأة: تنتفخ عروقه، تتسع حدقتاه، يسيل لعابه. هم أيضاً في سجن كبير، يحسدون منيب على دخوله إلى ذلك العرين - اسم جديد أطلقه معزز على ثانوية البنات - ويلحفون عليه بالسؤال عن كل كبيرة وصغيرة هناك. ومنيب يستمرئ لعبة جديدة: يدع لسانه يهذر على هواه، أو يلجمه تماماً، فيؤجج غضب الأصدقاء وخيبتهم.

في العاشرة من صباح يومه الأول في جنة خديجة، قرع الباب الرئيس الحديدي مطولاً قبل أن يظهر الآذن من الكوة التي تتوسط الباب. تردد الآذن في فتح الباب، إذ لا يعقل أن يكون هذا الشاب مدرساً، بخاصة مدرساً هنا. لكن شكل الرجل شكل أستاذ: أهلاً وسهلاً، تفضل، أنا سطام.

خلف سطام أسرع منيب إلى المديرة: الأستاذة سهام، قال سطام. لقاء دافئ مسح على تهيّب منيب، لكن اللقاء أعلن عن حدود مرسومة بدقة. وفي غرفة المدرسات كان اللقاء

بالزميلات والزملاء أكبر دفئاً، ربما لأن منيب رمى التهيب خارج الغرفة. غير أنه عندما غادرها إلى الدرس الأول، أحسّ بنظرات تخز في ظهره، كما ستكون نظرات الطالبات وهو يكتب على السبورة، أو يخطو بين المقاعد، أو يغادر القاعة. لكن ذلك كله صار سريعاً ذكرى غابرة، ساذجة ومضحكة، وتبدل بالألفة التي تغمر جنة خديجة: الأستاذة عدوية تأتي بالفستق العاشوري، بل بالعنتابي، بل بناب الجمل، بل «براس الخاروف»، فمن عطلة كل أسبوع تعود بنوع من الفستق الحلبي وبحكاية أو خبر عن قطافه، تقشيره، تجفيفه، تحميصه، وأبو عدوية هو حامل راية الفستق الحلبي في حلب وإدلب معاً، أما الأستاذة حياة فهي سيدة الغرائب والعجائب: من ير ملكة الحيّات أو يسمع صفيرها، قولوا: الله يرحمه. وكيف نعرفها؟ سأل منيب مصطنعاً الجد، فأدركت مزاحه وازورت عنه، وخاطبت الآخرين: على رأسها إكليل طوله ثلاثة أشبار، وعلى رأسك حجاب طوله أربعة أشبار: وشوش منيب هيفاء التي جلست آنئذٍ إلى يساره، ومثلما كتمت ضحكتها كتم ضحكته، بينما كانت حياة تتابع: حية حادة البصر، صفراء، ولكن صفرتها مشربة بالسواد، وكل طائر يطير فوقها يسقط ميتاً حتى لو رآها من بعيد. وعادت حياة إلى منيب بنبرة مجافية: حتى من يلمس بدن ملدوغها، قل: عليه رحمة الله.

من بينهن كانت أمية من الرهافة بحيث تبدو كأنها تنفطر إن تأذت من أمر، مهما يكن. وفي لحظة نادرة من لحظات بوحها بدت كأنها تواصل حديثاً، فإذا بها سليلة بيت البهت الذين ينتسبون إلى حجر البهت: من ينظر إليه يتحير ويبهت: قالت، وقالت: الإسكندر المقدوني بنى مدينة من حجر البهت، ولكن في الليل، كيلا يبهت الفعلة! وهنا حلا لمنيب أن يتعالم، فقال بلهجة حاسمة: سمعت أن الياقوت أفضل من البهت، وإذا بأمية تنطلق: بالكاد يمكن أن يقارن الياقوت المبهرم أو البرماني كالمعصفر، بالبهت. لا يا أستاذ منيب، حتى أفضل الياقوت: الطاووسي، لا يقارن بالبهت. ولكي يسترضيها عندما صادف أنهما كانا وحيدين في غرفة المدرسات، وضع في البيك آب أسطوانة لنجاة الصغيرة، وانتظر حتى أشرق صوتها: «املا لي القناني محبة»، فدنا من أمية، ورقق صوته: أصابتني امرأة بالبهت، فماذا أفعل، فنهضت غاضبة، ونظرت إليه شرراً، واندفعت إلى الخارج، فتهالك منيب مبهوتاً، وإذا بعينين تبرقان في الباب ثم تختفيان، فشبّ منيب واندفع إلى الخارج منادياً: هفاف.

من سيجعل منك مسخرة؟

من أعماقه أخذ صوت يعلو يوماً فيوماً بعبارة واحدة: ابعد عن هفاف. كان الصوت غريباً، لكنّ له شبهاً بصوت أم منيب حيناً، بصوت أبيه حيناً، وحيناً بصوت يعمر محمد الذي استطردت رسالته أخيراً، ولمرة واحدة: ستجعلك هفاف مسخرة الثانوية، بل ستجعلك مسخرة الرقة.

كان البرد قد أخذ يغلب الشمس الساطعة دوماً، بخاصة في الليل، فباتت المدينة تبدو مقفرة في المغيب، مثلما كانت تبدو في العشايا إبان وصول منيب إليها. هكذا تطاول الليل وتثاقل بما يتقاذف منيب فيه: زيارة خاطفة إلى أقربهم إلى غرفته: معزز في حارة البكري، زيارة أطول لإياس غانم وحده أو بصحبة آخرين يملأون فضاء غرفة منيب بدخان السجائر وعبق العرق والذكريات. ولا تكاد الغرفة تنفرد بمنيب حتى تسرع إليه هفاف ملفوفة بغيمة من لُبان القمر: حتى الآن ليس متيقناً من أن عينيها سوداوان أم شهلاوان أم..؟ ولأنه سيبعد عنها، لن ينظر إليها مدققاً، ولتتلوّنْ عيناها كيفما تشاءان. ومنيب ليس متيقناً حتى الآن من طولها ولا من امتلاء خصرها أو عجيزتها، إذ لم يرها إلا جالسة في المقعد الأخير

في الزاوية اليسرى من القاعة، ولم يجرؤ على أن يطلب منها أن تقف وتجيب على سؤال.

من هفاف كان يهرب إلى كتاب أو مجلة أو إلى الراديو الترانستور الصغير، لتغني له صباح أو عبد الحليم حافظ، أما إذا غنى له ناظم الغزالي أو عفيفة إسكندر فسيجرفه الحنين إلى من أورثه الرقة وحرمه منها في آن معاً: هل ستجرؤ على أن تعلن أنك ابن حسين الخلف، وأنك رقاوي أو رقي أكثر من هارون الرشيد؟

ذات ليلة لم تنفع في بردها مدفأة المازوت، ولا اللحاف الصوفي الذي ضاعفته أم فرحان بفروة قديمة لأبو فرحان، أومض الحل السحري لمنيب: الرفيق محسن، كما نقلك من السبخة إلى جنة خديجة، يخرجك من الجنة وينقلك إلى ثانوية الرشيد، فتبرأ من داء هفاف العايد.

هكذا شع الدفء في الفراش وفي الغرفة، وقصّر الليل، واعتذر منيب من المديرة عن الدرس الأول للصف الثاني الثانوي – الفرع العلمي، بالأحرى اعتذر عن رؤية هفاف، ليلتقي بالرفيق محسن الذي تدفق عتاباً ومودة، ثم غواية: الرقة فرص ذهبية للنجاح والترقي، كل ما على شاب مثلك أن ينتسب إلى الحزب. أخبار المدرس المميز منيب حسين الخلف

ممتازة، ليس في ثانوية البنات فقط، بل هنا في القيادة، وهناك في مديرية التربية، ولتكن خطوتك الأولى هي هذه المساهمة في المسح السياسي.

نسي منيب ما كان قد جاء من أجله، عندما أدرك أن المسح السياسي يعني أن يصنف سياسياً زميلاته وزملاءه وطالبات المرحلة الثانوية ومن هو على صلة به في المدينة: من منهم عدو للحزب، ومن منهم صديق، ومن منهم محايد؟

على الطريق إلى جنة خديجة داور ضحكته مراراً كيلا يُظن به المسّ. فالرفيق محسن يعامل منيب منذ الآن كعضو في الحزب، ولذلك خصّه بهذا السرّ وهذه المهمة المكْرمة. وعلى منيب إذاً أن يعمل كمخبر مجاني، بل كموظف في الأمن السياسي. ولكن ماذا لو جهر بما تلمسه منذ أيامه الأولى في جنة خديجة، وبات على يقين منه الآن: ليس في الأسرة التدريسية صديق ولا صديقة للحزب؟ كل المدرسات يتحجبن ما عدا عدوية، فهل سيكتب أنهن من الإخوان المسلمين أومن الرجعيين أو من المحافظين؟ وماذا سيفعل إذا ما ترتب على ما سيكتبه أذى لزميلة أو لطالبة؟ ماذا بوسعه أن يكتب عن أم فرحان؟

لا يا رفيق محسن: اصطخب صدره بالرفض، واندفع إلى

جنة خديجة مشوقاً، وندم على أنه فوّت فرصة رؤية هفاف. ولما رأى على يمين المدخل باب غرفة الموجهات مفتوحاً، أسرع إليها ملبياً دعوة قديمة من هيفاء إلى فنجان قهوة.

هللت هيفاء لقدومه، ولما ضبطت عينيه تجوسان في العباءات المعلقة، أشارت إلى الوسطى: هذه عباءتي، الأحلى. وكما في لقائهما الأول، تشرب الغنة البدوية لصوتها، وأكد أن عباءتها هي الأحلى، وإن تكن لا تتميز عن غيرها بشيء. وبينما انتقلت إلى الكرسي المجاور له، تساءل عما يجعل هذه الشابة القصيرة السمراء النحيفة تثير الرعب في الطالبات وفي المدرسات: هل هو المسح السياسي؟

بدّد السؤالَ قربُ هيفاء منه، وامتلأ صدره برائحة شعرها، وأحس بالارتباك، ثم زاده ارتباكاً دخول سطام بالقهوة: إكراماً للأستاذ أحضرت القهوة بنفسي. ولما خرج واربت هيفاء الباب. وكان منيب يفكر في سر هذه الرائحة التي ليست لزميلة، ولا لطالبة. والتفت إلى هيفاء، وخيل إليه أن شفتيها تقبّلان فنجان القهوة، وقفزت نظرة منه إلى الباب الموارب، كأنه يخشى أن يضبطه وهيفاء أحد، وإذا بها تنهض بأناة، وتغلق الباب بأناة، وتعود أقرب إلى منيب، وتلغو بما ما عاد يتبينه.

بلع منيب لعابه ورثى لنفسه: كيف تأتّى له أن يقضي هذه الشهور وهو غافل عن أية امرأة؟

مال السؤال بجذعه إلى اليسار، فألفى شعرها يغطي وجهه، ورائحة الشعر تطيشه وتدفع بذراعه إلى مسند كرسيها، وبأصابعه إلى ما يخفي الشعر من عنقها، وبشفتيه إلى أذنها. ولما أخذت شفتاه تبحثان عن شفتيها وقفا لائبين، والتحم جذعان وسيقان وحضنان، وفجأة انفلتت هيفاء منه: نسينا الجرس، الدرس انتهى، وفتحت الباب ضاحكة، بينما فحّ صوت غريب في أذن منيب: ليست هفاف العايد من سيجعلك مسخرة، أنت من سيفعل.

جنة أم فرحان

لم يشأ منيب أن يغادر الرقة خلال العطلة الانتصافية، مثلما فعل زملاؤه وزميلاته جميعاً، كانوا جميعاً ينتظرون العطلة ملهوفين، وكانت العدوى تصيبه أحياناً، لكن بانياس أخذت تبدو له بعيدة جداً، وهينة جداً، فيما هو يندغم في الرقة، أو هي تندغم فيه.

هيفاء باركت قراره بحرارة، على الرغم من أنها باتت تتحاشى الانفراد به بعد تلك الخلوة الصباحية التي استعادها مرات غير مصدق، والأسئلة تزيده خوفاً وتلذذاً: ماذا لو أن سطام فتح الباب في تلك اللحظة؟ أو لو أن طالبة أو زميلة قد فعلت؟ من أين لك هذه الشجاعة؟ أم هي شجاعة هيفاء؟ وشجاعة هي أم جنون؟

كانت التفاصيل تغيم، وريقه يتحلب عليها كل حين، والعجب يكبر من أنه لم يفطن قبل هيفاء إلى أن العباءات ليست هي التي كانت تطبق على عينيه، ولا الحجاب الذي يغطي رؤوس الزميلات، ولا ذلك الثوب الفضفاض الأسود الذي تغطس فيه أم فرحان. لا بد أنها غشاوة وسع هذه السماء المترامية من الرقة إلى بانياس أو دمشق، غشاوة قديمة

وكتيمة مزقتها هيفاء، وإن تكن قد دأبت على أن تتعلل بعيون الجدران في قلعة النساء هذه أو في حبس النساء هذا الذي يسمونه ثانوية للبنات. وهيفاء وهي تصد منيب بغنج كانت تؤكد أن أياً من المدرسات أو الطالبات تشم رائحة الأخرى حين تتصل برجل ما، مهما يكن من التكتم والتنكر.

بعد أيام صارت هيفاء تلوح بما تعنيه الفضيحة في هذه المدينة. لا، ليست تعني فرض الزواج والستر، فليت الأمر كان كذلك. إنه الذبح. وإذا كان عنق الرجل ينجو غالباً، وغريباً كان مثل منيب أم لا، فعنق المرأة لن يفلت.

كانت هيفاء تبلبل منيب كل مرة على نحو جديد: إذا كانت تخشى حاسة الشم الرهيفة لمئات الأنوف هذه، فكيف يسرت إذاً أمر تلك الخلوة؟ وإذا كانت تخشى الفضيحة فمن أين جاءت بتلك الجرأة؟ ومرة بعد مرة أخذ كلامها يهدئ ما به نحوها، ويلجمه عنها، وإن يكن لم يقنعه، حتى إذا سألته قبيل العطلة الانتصافية عما إذا كان سيزورها في البيت ويتعرف على ذويها، تضاعفت بلبلته، لكن أم فرحان سرعان ما كشفت عن عينيه الغمامة الجديدة.

أم فرحان باركت أيضاً قراره بقضاء العطلة في الرقة، وإن يكن سؤالها عن شوقه إلى أهله وشوقهم له لم ينقطع. كانت

قد أخذت تقضي معه شطراً من الأماسي التي يؤوب فيها مبكراً إلى غرفته. وكانا قد غَدَوا يجدان الكلام الكثير الذي يملأ جلساتهما مع أكواب الشاي.

كانت تسأل أحياناً عن الطالبات والمدرسات، وربما كانت تغمز بأسئلتها دون أن يلحظ ذلك. كان يغبطه أن تنقل ما يتناهى إليها عنه في بيوت الجيران: الأستاذ منيب شريف وابن ناس، لايرف له جفن ولو كانت أمامه ست الحسن. لكن جفن منيب صار يرف منذ اختلى بهيفاء. وحين سأل أم فرحان عنها بعدما بدأت تتحاشاه، ما عاد يمكن أن يخفى السر: هيفاء إذاً تبحث عن زوج، لا عن عشيق، ليس بينهن واحدة دون عشيق أو أكثر: أم فرحان تجزم وتحلف بطاسة ويس، وتضحك مردفةً:

– لا سر في هذه المدينة، حتى لو ظهرت مثل جب الأسرار.

من أين لمنيب أن يوفق بين الذبح وبين أم فرحان؟ هي تحل اللغز بيسر، واللغز يلغز عليه أكثر. المهم يا أستاذ – تقول مقطبة – ألا يجهر أحد بالسر. ليس المهم أن يتفشى، بل هو يتفشى، بالتأكيد. الرجال يعرفون والنساء يعرفن. الأب أو الأخ، الزوج أو الزوجة، الابن أو الابنة، الأخت أو الحماة.. وكل يصون سر الآخر من أجل سره. ربما كان الخطر الأكبر في أن

تتورط الفتاة ويذهب رجل ما ببكارتها، فالزواج السريع ليس دائماً هو الستر. قد يكون الرجل غريباً عن المدينة مثلك، أو من عشيرة أخرى، وليس للمسكينة أن تتزوج منه، فماذا تفعل؟

هيفاء إذاً تبحث عن زوج يا مغفّل، وسواء صدقت أم فرحان أم لا، فعليك أن تتحاشاها. مثل هذا اللعب قد يودي برأسك، والرأس لن يكلف أحداً من عشيرتها ليرة سورية واحدة، فهم يعدون بالآلاف. وها أنت ترى أم فرحان بعين ثالثة. وبعد ليلة أو ليال ستراها كما لم ترها من قبل. ولكن احذر يا منيب: صوت أمك يحرسك ويصدعك: احذر، بينما يصير لأم فرحان تحت الفستان الفضفاض تقاطيع نافرة. وما عاد الفستان سوياً فوق صدرها. صار لأم فرحان عنقها الأعبل، خداها المكنوزان المحروقان. ومنيب صار يتحين الفرص ليمازحها، يدعوها إلى غرفته في النهار وفي المساء، فليس لديه ما يملأ يوم العطلة المديد الذي لاتقصره رواية ولا مجلة ولا إبرة الراديو التي لا تكاد تهدأ في إذاعة.

xxx

لم يكن إغلاق المدارس وحده ما حشر منيب في الغرفة، ولا ندرة أصدقائه من أبناء المدينة الذين لا يغادرونها في عطلة المدارس. وحده الشتاء الذي عصف دفعة واحدة هو ما حشر الجميع في بيوتهم.

كانت الرياح تخبط كما لم يسمعها منيب من قبل، لا من البحر الهائج ولا في رأس الجبل. ومن بعيد كان الفرات كأنما فقد صوابه، أو أصابه سعار، أو جُن. كان هديره أحياناً يعلو على صرير الرياح، بخاصة في الصباح الباكر. كان الفرات والرياح والبرد الذي يخز تحت الأظافر، كل بدوره، يسوط منيب منذ الفجر، فيلجأ إلى الشعاع الواني المتسلل من نافذة المدفأة. وكل ما انقضى لم يكن إذاً شتاء في الرقة. وفي النهار كما في الليل ليس في السماء غير الغيوم الداكنة، فأين هو المطر؟

أم فرحان تؤكد أنه آت، والثلج آت، وسوف يحبسك المطر والثلج هاهنا، كما تحبسك الآن الرياح أو كما يحبسك البرد، أما الفرات فما زال عاقلاً. وأم فرحان تأسى على زوجها وابنها اللذين لا يعلم إلا الله كيف يواجهان هذا الطقس، بينما منيب يدعو لهما بطول الغياب، ويتجرأ أخيراً على الخروج، لتفاجئه الدكاكين المغلقة، الكراج مغلق، مكتبة الخابور مغلقة، المقهى مغلق، ولكن ها هو نرسو الأرمني لابدّ خلف زجاج باب دكانه.

لأول مرة يدخل منيب إلى الدكان المدجج بزجاجات العرق والنبيذ والويسكي، وبأصناف اللحومات الباردة والنقولات والسجائر.

رحب نرسو بالزبون الجديد، ونصحه بهذه الزجاجة من

النبيذ المعتق – سنتان يا أستاذ – وبهذه البصطرمة، ولا تنسَ يا أستاذ الفستق الحلبي، ألا تدخن؟

كانت الجرعة الأولى من النبيذ طيبة المذاق، أغرت منيب بجرعات صغيرة وسريعة قبل أن تدخل أم فرحان بالعشاء، وتتعوذ وهي تضع طبق الألومنيوم أمام منيب، من الشيطان الرجيم، وتقسم على أنها لو لم تر بعينها هذا الذي تراه، لما صدقت!

خشي منيب أن يكون قد ارتكب خطأً فاحشاً يبطل مسعاه نحو أم فرحان، فراح يبتسم ويهمهم بينما كانت تجلس إلى جواره على البساط، قرب المدفأة، وتأمل أن يعجبه ما هيأت، لكأنها لم تكن تتعوذ من الشيطان للتو، فعاد منيب إلى جرعاته التي لم تعد صغيرة ولا سريعة. وسرعان ما امتلأ بدفء المدفأة، بل هو دفء النبيذ، بل هو ما يشع من أم فرحان، ولذا أطلق منيب لسانه، لكن اللسان اختار أن يسأل عن أبو فرحان: ماذا يشرب غير الماء والحليب؟

قالت أم فرحان ضاحكة: كل ما في بالك، لكنه أقلع عن المشروبات وعن الدخان بعدما قامت الوحدة السورية المصرية، وجاء جمال عبد الناصر وجلب معه الجفاف. أضاع أبو فرحان اليسير الذي ورثه في الحوايج، أبوه رحمه الله كان

مغرماً بالحوايج، من حويجة زهرة إلى حويجة هلالة، وأبو فرحان كان مغرماً ببنات حلب، ولكن الحمد لله، على ماذا؟ على أنه لم يتزوج إلا أم فرحان أيام البطر، كما فعل كثيرون من أقرانه، سواء من ترك وراءه كل شيء ولحق بالحلبية التي افتتن بها، أو من استطاع أن يأتي بزوجته الجديدة إلى دار زوجته الأولى، أو إلى دار مستقلة.

بعد تردد اختار لسان منيب أن يسأل أم فرحان عما إن كانت قد ذاقت النبيذ من قبل، ولم يعبأ باستنكارها، بل أخذ يزين لها متع الدنيا، ويهون من أمر الحلال والحرام، شرط ألا يؤذي الإنسان أحداً. وبدت أم فرحان سعيدة بهذا الشاب الذي لا يكبر بكرها فرحان إلا سنتين أو ثلاثاً، ويوقظ من جسدها منذ شهور ما غفا منذ سنين. وحين التصق بها لذّ لها أن تقشعر، وحين تغلغلت أصابعه في ثنايا ثوبها لائبةً على ثدي، احتضنته، وتمنت أن تعود أماً، وأن يكون منيب ابنها، وخيل لها أن ثدييها ينقطان الحليب.

هفاف

بعد ستة أيام من وفاة أمه، وعلى أمتار من قبرها، اقتعد منيب حجراً بجوار قبر أبيه، مثلما كانا يجلسان عصراً أمام البيت على كرسيين خفيضين، والبحر ينداح أمامهما، يتسارّان قليلاً، ثم يتباريان في الصمت.

الآن بات منيب قادراً على أن يعود إلى الرقة خفيفاً مثل ريشة. لم يبق له في بانياس إلا هذان القبران، وما يشاء البحر أن يُوْدِعه: زرقة أكبر نقاوةً من عين السماء، أو أكبر عكراً من غضب الفرات، قوارب صيد صغيرة ورمل بليلٌ وزاهٍ، ونوارس. ما عدا ذلك لم يبق لمنيب في بانياس غير ذكريات سيتضاعف بهوتها: شقيقة تزوجت لبنانياً وتقيم في طرابلس، شقيق يوشك أن يكون طياراً، ولعله سيقيم حيث كان يتمنى ربما قبل الفطام: في السماء. أما يعمر فسيظل يتسلى بدراسة الهندسة في دمشق، مختصراً صداقات منيب قبل الرقة، وأخيراً هي ذي التي تعددت أسماؤها، لتختصر من عشق منيب من النساء قبل الرقة التي استقبلته بمفاجأة تلو مفاجأة.

هفاف العايد أولاً، لكأنها كانت على موعد معه في نهاية الدرج المفضي إلى الطابق الثاني. كانت الطالبات جميعاً داخل القاعة إلا هفاف التي أودعت كفها في كف الأستاذ،

وغمغمت بما تشرّبه حرفاً حرفاً، ثم ما عاد يذكر منه حرفاً بعدما استردت كفها: هل هذا هو العزاء؟

كانت السماء الربيعية تلون الرقة بمثل ما لونت به هفاف سريرة منيب. وفي فجر الأربعاء، بدأت السماء تجعل من الرقة مدينة جديدة، يسميها منيب مدينة الثلج، وهو يحدق في هفاف التي بدلت مكانها في القاعة: في المقعد الأول الذي يلي الباب.

وهو يغادر الثانوية رآها رافعة رأسها إلى السماء وقد انزاحت عنه العباءة، وأخذت ندف الثلج التي تتراقص برشاقة تلون شعر هفاف، وتلحس جبينها وأجفانها وأنفها ووجنتيها وشفتيها وذقنها.

من بعد– بضعة أمتار– وقف يتابع ندف الثلج واحدة واحدة وهي تلاعب هفاف. ولما بدلت هفاف اللعبة – غطت رأسها وجرت – عجز عن أن يتذكر لها ملمحاً: ما لون شعرها؟ ما لون عينيها؟ لماذا لا يلحق بها ويستجدي جواباً؟

لكن هفاف كانت تتوسط سرباً من العباءات السود التي أخذ الثلج يرقشها. ولأنه سيرى هفاف غداً، هوّن على نفسه ما نسيتْ، ومشى خطواتِ الهوينى تحت الثلج، قبل أن ينحرف في الطريق التي تحمله إلى الجسر.

كان الثلج يرقش الفرات أيضاً، فبدت لمنيب صفحة الماء

الزرقـاء تبدع لونـاً جديداً. ولما بلغت عينا منيب الضفة المقـابلة كـان البياض قد تفرد بهـا، فـأسرعت العينـان الفرحتـان والذاهلتـان تطفوان فوق الجسر وهمـا تعودان إلى منيب، ثم رمحتـا يمنـة ويسرة، فـإذا بـالثلج يوحد ألوان المدينـة، والمدينـة قد أخـذت تتخلق في هيئة جديدة، مثل فتـاة رآهـا في ثوب عرسها الأبيض، ربمـا في السينمـا، أو خـارجة من كنيسة في بـاب تومـا في دمشق، أو تنزل من السيـارة قبـالة بيت يعمر محمد في بـانيـاس. وعلى أية حـال، مـا كـاد منيب ينـأى عن النـهر خطوات، حتى صـارت عروس المدينة، بـالأحرى المدينـة العروس، هـي هفـاف، وهفـاف هـي.

تواصل هطول الثلج ثلاثـة أيـام، نهـاراً بدلـع، وليلاً بجنون. ولأن هفـاف غـابت في يوم الثلج الأخير – مثل أغلب الطـالبـات – أسرع منيب بـالخروج من الثـانوية، واندفـع يضرب في المدينـة أينمـا قـدّر أن لهفـاف أثـراً. وحين اكتشف أنـه بلغ المشلب لعن الشيطـان والنسيـان: مـا الذي سيأتي بهفـاف إلى هنـا؟ وكذلك فعل حين اكتشف أنـه بلـغ الدرعية، ثم ترك لحذائـه أن يرسم على الثلـج مـا يشـاء، بينمـا عينـاه تطوفـان بـالبيوت الطينية الكبيرة والعمـارات العـالية القليلة وسقوف السيـارات والأشجـار العـارية وأسلاك الهـاتف والكهربـاء وذؤابـات المـآذن والكنـائس: أين هـي هفـاف؟

هيام

بانتهاء الامتحانات خلت الثانوية من الطالبات، وحين تحولت إلى مركز لتصحيح امتحانات الشهادة الإعدادية، ظهر يعمر محمد في بهو الثانوية، وإلى جانبه أخته هيام، وسرعان ما أضفى يعمر على حضوره غبطة وطرافة أسعدت المديرة ومن في مكتبها، فسمحت لمنيب بالانصراف المبكر كي يتفرغ لضيفيه.

عند أم فرحان ترك هيام، وانطلق مع يعمر الذي أعلن رغبته بالتعرف فوراً وسريعاً على هذا المنفى، كما نعت الرقة، فأضاف منيب: الساحر.

كانت خطوات يعمر تسابق عينيه في نهب المدينة، حتى ظهر السور. أمام باب بغداد وقف ملياً، وحاول أن ينقش اسمه في ركن نظيف، إلى جوار أسماء حائلة. وفوق تعرجات السور تنقّل ببطء وحذر كأنه يخشى سقوط السور، وليس سقوطه هو، بينما كان منيب يحدثه عن الفوائد العصرية للسور: تكية لصغار مهربي السجائر الأجنبية، وعلى ذمة أم فرحان: مخدع طبيعي لبعض المحترفات الرخيصات من قاطني البيوت المتناثرة في الخلف. قل أيضاً: ملتقى للعشاق، كما هو المرحاض المفضل لمجاوريه الذين ليس في بيوتهم

مرحاض. وفي العودة بدأ يعمر يؤخذ بالمدينة وإن قليلاً.

بعد مقام عمار بن ياسر بأمتار توقفت الغزالة بجانبهما- هكذا يسمي الرفيق محسن سيارته البيك آب تويوتا – ونادى صوت منها منيب، ثم اختلطت الأصوات. ولما هدأت في مدخل حارة العجيلي، كان الرفيق محسن قد دعا منيب وضيفيه إلى العشاء في البيت، وكان يعمر قد قبل الدعوة، ومنيب: لا راغباً ولا رافضاً.

بدأ يعمر السهرة بطلب العون من الرفيق محسن: أختي هيام تخرجت في مدرسة التمريض، ولا أدري أي ابن حلال نصحها بالبحث عن عمل في هذا المنفى – والتفت إلى منيب مفخماً كلمة الساحر- والباقي عليك يا رفيق محسن.

كان منيب في البداية منكمشاً. وزاد انكماشه عندما أسرع محسن بالشكوى ليعمر:

– صاحبك منيب لا يصل الود. أنا وهو غريبان هنا، والغريب للغريب نسيب، زد أننا من الساحل. وما أخشاه أن يكون منيب يكره حزبنا، أرجو أن أكون مخطئاً.

حاول يعمر أن يخفف من وقع كلمات محسن، فقال ممازحاً وهو يغمز:

– منيب ولد، عقله يخضّ، والجنون يهلّ عليه بين وقت وآخر.

قال منيب مغالباً حنقه:

– كل هذا لأني رفضت أن أقوم بالمسح السياسي؟

قال محسن:

– لولاي لجرّ عليك هذا الرفض الأذى. الرقة بلد صغير، وأنت تحت المجهر. الشاطر يسأل: لماذا ليس الأستاذ منيب في الحزب؟ هل يكون في حزب آخر؟ هل هو معادٍ لنا؟ وأنا لا عمل لي إلا الدفاع عنك.

قال يعمر مخاطباً محسن:

– منيب ليس معادياً ولا في حزب آخر، ولكن لن يكون في حزبنا. خذها مني. من سنوات، ما التقينا مرة إلا وفلقني: ما من طريق عربي إلى الاشتراكية، ولا من تطبيق عربي للاشتراكية. إما الاشتراكية العلمية أو لا اشتراكية، هذا مثال لما هو منيب عليه. وليس هذا فقط. حبيبي منيب فلقني في لقاءاتنا وفي مراسلاتنا باعتقالات الشيوعيين وتعذيبهم على الرغم من وجود وزير لهم في الحكومة، وهذا مثال آخر لما هو عليه.

قال محسن:

– الشيوعيون حلفاؤنا.

قال منيب:

– حلف مخادع.

سأل محسن ساخراً:

– وماذا أيضاً؟

خاطب منيب يعمر:

– أكملْ. نسيت ما قلته وما كتبته لك حول شعاراتكم الرنانة: الجيش العقائدي، لماذا؟ لأنكم لاتريدون شريكاً، ولا تعترفون بأحد إلا خداعاً. الجيش للحرب والإعمار، جميل، ولكن ماذا فعلت هذه الشعارات؟ أين صارت القنيطرة؟ أين هو الجولان؟

ثم عاد إلى محسن متابعاً:

– هذا حزب لا أمل منه.

قال محسن بانفعال:

– وأنت لا أمل منك. ومع ذلك أقول لك: اذهب غداً إلى البلدية وسجّلْ على مقسم. سيأخذون منك خمسين ليرة دفعة أولى، ثم تدفع خمسين في الأول من كل شهر. قل لرئيس البلدية أرسلني الرفيق محسن.

والتفت إلى يعمر متابعاً:

– وأنت، لماذا لا تذهب معه وتسجل على مقسم؟ بعد سنتين أو ثلاث تصبح مالكاً لقطعة في الأرض التي ستخصص للمساكن الشعبية. تبيع نصف القطعة، وبثمنه تعمر النصف

الثاني، ويكون لك بيت.

قال يعمر:

– كأنك تريد أن تأتي بي إلى هذا المنفى الساحر بعد عمر طويل، عندما أتخرج.

قال محسن:

– من طلب منك أن تأتي إلى هنا؟ المهم أن يكون لك بيت.

قال يعمر:

– أنا مازلت طالباً. من أين لي بخمسين ليرة كل شهر؟

قالت هيام:

– أنا أدفعها، إلا إذا كان عملي غير مؤمّن.

قال محسن:

– ساعتها أنا سأدفع من جيبي.

وقهقه الجميع إلا منيب الذي كان يزدرد دهشته، وقد قرر ألا يذهب غداً إلى البلدية، كما قرر أن يقضي السهرة صامتاً. وساءه أنهم لم يأبهوا بصمته، كما ساءه أن محسن وزوجته تباريا في دعوة هيام إلى المبيت معهما الليلة وكل ليلة، فوافق يعمر وهيام مباشرة، وكان الليل قد انتصف.

في الصباح الباكر غادر يعمر، تاركاً لهيام أن تتولى التسجيل على مقسم. وفي الظهيرة عاد منيب بهيام من

مديرية الصحة إلى غرفته لتناول الغداء الذي لا تقبل أم فرحان رفضاً لدعوتها إليه، بل ولدعوة محسن وزوجته أيضاً: لِمَ هذه الكذبة يا منيب؟

وداور ارتباكه في الطريق: لأول مرة أنت برفقة امرأة هنا، في الشارع، وهيام لا تغلفها عباءة، شعرها الأشقر يسرح على كتفيها، وساقاها لا بد أنهما تلمعان تحت طرف التنورة الذي كان يناصف ركبتيها أمس طوال السهرة.

حين عبرا بساحة الساعة، أشار إلى ثانوية خديجة مزهواً: هنا أعمل، وتمنى لو أن طالبة أو زميلة تراه الآن. وفي الخطوة التالية تمنى أن تراه هفاف فقط، ثم نسي الأمر كله عندما رأى ما أعدت أم فرحان للغداء، وعندما سمعها تستحلف هيام بألا تأكل أو تنام في الرقة إلا في بيت أم فرحان، تلمظ وجحظت عيناه.

كان منيب قد التقى هيام مرات قليلة في السنوات الماضية التي قضتها في دمشق، ولم تكن تعني له إلا أنها شقيقة يعمر. أما الآن فهي أمانة بين يديه، وإن تكن ستبيت في بيت محسن أو في المشفى الوطني أو حتى في بيت أم فرحان. وهيام التي بلغت التاسعة عشرة، وكان قدومها إلى الرقة مزاحاً، فجعله يعمر جاداً، استثارها موقف منيب في السهرة، وجعلها

تتفحصه وهي صامتة، مثلما تفحصت في غيابه مع يعمر سريره، ثيابه، كتبه، الراديو الصغير، إبريق من الفخار، مجلة الحرية، مجلة الآداب، كأسين، حذاء...

في دمشق، وقبل ذلك في بانياس، كان لهيام مغامراتها الصغيرة التي لا يجهل يعمر بعضها، بعدما صار يتردد على مدرسة التمريض. كانت في البداية تصطنع الغفلة والبراءة وهو يحوم حول هذه أو تلك من زميلاتها. ثم صار اللعب مكشوفاً، وصار على يعمر أن يبلع بسهولة أو بصعوبة مصادفة أخته مع شاب في الصالحية أو أمام سينما الأهرام، أو في حديقة المعرض. أما منيب، فقد غمض عليه ربما لشهور ما الذي يبتغيه من هيام، حتى دعاها أول مرة إلى الاسترخاء في السرير بعد الغداء، فرفضت أن تستأثر به وحدها، واضطجعت في عرضه متكئة على الوسادة.

اضطجع منيب قبالة هيام التي أقبلت تسأله عن حياته في هذه المدينة. وخيل له أن ما يعنيها هو المرأة فقط. وفكر في أن يحدثها عن هفاف، ولكن ما الذي بينك وبين هفاف حتى تحدث به هيام؟

ارتد عن السؤال إلى أم فرحان، فارتد السؤال عنه، واندفع يرش ما يحسب أن المرأة عليه هنا: ربما تحيا مقبورة، لكنها

تعرف كيف تلون عتمة القبر، وتنتصر على من حفر ومن يحرس. وأومضت له هفاف تسطع أمام الغرفة التي خصصت لاتحاد الطلبة، بجوار غرفة الموجهات. وبما خاطبته هفاف خاطب هيام: لأنه مكتب الاتحاد في ثانوية البنات، يريدون أن يكون تحت وصاية مكتب الاتحاد في ثانوية البنين. وهذا المكتب يا أستاذ صار بين يوم ويوم قلعة النضال، الأوصياء علينا من الطلاب يهربون من دروسهم ليشاركونا النضال في هذا الموقع المتقدم ضد الرجعية، وربما ضد الصهيونية. صارت المسكينة التي ابتليت منا بالانتساب إلى الاتحاد على كل لسان، من هنا إلى حارتها. يريدون من الواحدة منا أن تتجسس على زميلاتها وعليكم يا أستاذ. قرفت يا أستاذ. ما عدت أريد هذا الاتحاد حتى لو...

لم يكن منيب قد رأى هفاف من قبل ساخطة. وعندما بترت كلامها وابتعدت، امتلأ اعتزازاً بها، مثله الآن وهو يحدث هيام بحديثها. لكن هيام قفزت من السرير، ومسدت على تنورتها فوق إليتيها، وجاء صوتها حاداً، وإن يكن الانشراح لم يغادر محياها:

– تريد أن أصدق أنك لست مثلهم؟ أنت أو يعمر أو الرفيق محسن، أنتم تشبهون بعضكم.

استوى في السرير، وأطرق ينشد بلاهته ويداريها في آن، وإذا بهيام تجلس بجواره قائلة:

– زعلت؟ لاتزعل مني يا منيب. كلهم يقولون لي: أم لسان طويل. بعد كل هذه الشهور لم تتعود علي؟

تبسّم منيب وقد حلا له أن تكون قاسية وحنونة معاً. وفوجئ بها تعود إلى ضجعتها، فباتت ملء عينيه بجبهتها العريضة وحاجبيها الدقيقين، برموشها الحادة الطويلة ووجنتيها الممتلئتين الورديتين، بشفتيها اللتين تنفرجان وتنطبقان لاغطتين وضاحكتين: ما الذي تفعلينه بي الآن؟

ولعله جهر بالسؤال، وربما أعلن أنه سيتعود عليها كلها، وليس على لسانها الطويل فقط، وإذا بها تغرغر جذلى وأكثر غواية وتهمس:

– أتكون سريعاً بكل شيء هكذا؟ اسمح لي، ليس سريعاً، بل هشاً. اسمح لي، ليس هشاً. لم أعد أعرف ماذا أقول. ماذا فعلت بلساني؟

وبدلاً من أن يجيبها أطبقتْ شفتاه على شفتيها، واندفع لسانه إلى لسانها.

رجل وامرأة

خلّف نبأ نقل الأستاذ منيب إلى ثانوية الرشيد دوياً فاجأه كما فاجأ الجميع.

عندما بلغه النبأ أحسّ أن ضلعاً منه ينخلع، كما أحسّ بغصّةٍ مرةً، بدوارٍ مرةً، وكانت هفاف أول من هفا إليها: ما من هفاف بعد اليوم، خاطب نفسه، ولعن منيب حسين الخلف ومنيب خلف الحسن، وهتف: أين أنت يا محسن؟ يا رفيق محسن أين أنت؟ لماذا لم تؤجل انتقالك إلى دمشق حتى تعيدني إلى جنة هفاف؟

لكن الرفيق محسن كان قد طار إلى دمشق بعد أيام من الحركة التصحيحية التي جاءت بحافظ الأسد رئيساً للوزراء، أي رئيساً للجمهورية كما شرح الرفيق محسن لمنيب ولهيام عندما جاءا يودعانه.

ربما صار الرفيق محسن نصف وزير الآن، أو على الأقل ربع وزير. ولكن لا سبيل لمنيب إليه، ولا عودة له إلى الجنة التي طردوه منها، جنة خديجة، لا، جنة هفاف هي، ما دامت هفاف هي التي نادت زميلاتها إلى الإضراب حتى يعاد الأستاذ منيب إلى الجنة، وما دامت هي التي اقتحمت غرفة

المدرسات، وصاحت بهنّ: أين هو الأستاذ منيب؟ ماذا تفعلن هنا وهو ليس بينكن؟ ولما تصدى لها أحدهم من غرفة اتحاد الطلبة: الإضراب ممنوع، وهذا الذي تقومين به تخريب، صاحت به: اخرسْ، اطلعْ برّه، ودفعت بيديها الشاب الذي أصابه المسّ، فانقاد لدفعات هفاف ومن كنّ حولها، ومضى الوقت بطيئاً وقلقاً، ثم ضاعف بطئه وقلقه حتى كاد الدوام أن ينتهي قبل أن يظهر سطام وهو يخبط يديه في الهواء ويكبّر، وخلفه الأستاذ منيب، فتفجر البهو بزغرودة هفاف التي لا أطول ولا أعلى، وبالتصفيق، ودمعت عينا منيب.

مساءً فاجأته هيام بعد غيبة طويلة، ربما منذ انتقل الرفيق محسن إلى دمشق. وفي الأيام التالية أخذت تحضر في أية ساعة من ساعات بعد الظهر.

هكذا صار يقبع في الغرفة بانتظارها فور أوبته من المدرسة. صار يتحاشى أن يستقبل حتى معزز أو فندي، أو يرافقهما إلى المقهى أو في مشوار المساء على الجسر. أعيته الاعتذارات من الأصدقاء مثلما أعياه صمت أم فرحان. وقبل ذلك وبعده، أعياه أنه لا يفكر إلا في هفاف وهو ينتظر هيام، وأن رغبته بهيام تتفاقم لقاء بعد لقاء.

كانت تأتي إليه دوماً لهفى، تعانقه وهو يهيئ ما يعنفها

به جزاءً على تأخرها. لكنها تستل نقمته في غفلة منه، وتشعل ناره، تداعبه مثلما يداعبها، واقفين، متقابلين على الكرسيين، مستلقيين في السرير أو مضطجعين. لكنها لم تكن تدعه يذهب بعيداً، فهيام لن تلقي بعذريتها إلا في فراش الزواج، ومنيب لم يشغل باله بالزواج يوماً، ولكن تلك هي هيفاء وهذه هي هيام. نسيت هفاف يا مجنون؟

حين استطاع المجنون أن يباعد بين الزواج وهفاف وبين هيام، ألح عليها أن يكملا وصالهما. كانت قد حضرت بعد الغروب، وقد بلغ تأخرها بحنقه أقصاه. وربما لذلك انقلب الحنق شهوة جارفة. ومثله بدت في عجلة من أمرها، فلم يرميا ثيابهما، لكنها استطاعت أخيراً أن تملص من حضنه، وراحت تتفرج عليه وقد همد، ثم سألته ببرود:

– ما الذي فعلته؟

عادت أنفاسه إلى الاضطراب وهي لما تكد تنتظم. وصمت وهو يصدّ السؤال تلو السؤال: أيكون قد أتى على بكارتها؟ ولكن ألم يكن ذلك سيجعلها تصرخ أو تتألم؟ وأنت، من أنت؟ خشبة؟ حيوان؟ لم تشعر بشيء؟

ببرود أيضاً سألت:

– ماذا سنفعل الآن؟

هي إذاً على يقين: فكر، وتساءل عن سبيل إلا الزواج.

لا، ليس هذا ما كان يرغب به، وليس هذا ما كان يدعوها إليه. وناشدتها عيناه أن تقول الحقيقة. ولما طال الصمت ناشدتاها أن تكسراه، فاقتربت من منيب، وقبلته على جبينه، وربتت على كتفيه، وتظاهرت بالعبوس وهي تأمره.

– اضحك. مالك أخذتها جد؟ أنا أمزح.

وخرجت جذلى وهو يتنفس الصعداء. وفي اليوم التالي، لا هي حضرت ولا هو انتظرها. ثم صارت زياراتها تتناءى، وصارت أم فرحان تأتيه بأخبارها: هيام تنام في المستشفى الوطني، وأنت ما الذي تعرفه عن المستشفى الوطني أكثر من أنه المستشفى الحكومي الوحيد في المدينة؟ أنت لا تعرف كيف يحتال المريض، فيملأ جيبه بمئات الليرات، ويدخل المستشفى في حالة إسعافية، وتُفرد له غرفة، ولا يهدأ طوال الليل من ممرضة إلى ممرضة حتى تنهّد عافيته ويمرض حقاً. وأم فرحان تحلف بطاسة ويس أن الواحدة من هؤلاء أكبر عهراً من التي تركض خلف خمس ليرات من وراء السور إلى بيت هذا الشريف، أو تستقبل ذاك الشريف في قبرها الذي يسمونه بيتاً، خلف السور. وأم فرحان تجزم أن عاهرات المستشفى جميعاً غريبات عن المدينة، قادمات من مكان ما، مثل هيام. وحين لا يعود لأم فرحان ما تقوله، تراها تمسح على رأس منيب، وقد توسِّده صدرها، أو تلثم شعره، أو ترسل كفها اللدن الساخن في

صدره، وتجعله يتكور في حضنها كالجنين المرهق والعليل في رحم عامر بالعافية والحنان. عندئذٍ كان يسأل نفسه: إذا كانت هيام عاهرة، فماذا تكون أنت يا أستاذ؟

رأفةً بنفسه من الجواب هاتف هيام في الصباح من غرفة المدرسات. ولأنه خاف من أن يدعوها إلى الغداء أو العشاء في غرفته أو في المقصف، ترك للسانه أن يدعوها إلى سينما الزهراء: فيلم رجل وامرأة، شاهدته؟ سأل، فقالت هيام متحسرة أنها لم تشاهد فيلماً في الرقة، وهي التي ما كان يفوتها فيلم في دمشق.

أمام سينما الزهراء، في السادسة إلا ربعاً: اتفقا على اللقاء. وقبل أن تعتم الصالة كانت عينا منيب قد طافتا على الرؤوس، ولم يصدقهما حين وقعتا على رأسين ليسا لرجلين: جزم وهو يدقق في الشعر الأسود المرفوع عالياً على كل رأس، بينما كانت هيام تهمس بلا توقف: يعمر كلمني أمس وسألني عنك. الرفيق محسن أيضاً كلمني. تقريباً يكلمني كل يوم، ويدعوني إلى دمشق. يريدني أن أنتقل إلى دمشق، وأنا أحببت الرقة، ما رأيك؟

باغته السؤال الذي حرك شكوكه، لكنه لم يجب ولا هي ألحت، إذ كانت الصالة قد أعتمت، والمناظر التي تسبق عرض الفيلم قد بدأت: فيلم حوض الفرات، المؤسسة العامة للسينما،

المخرج وديع يوسف، دقائق تصور ضخّ المياه في حوض الفرات، وهذه لقطات للعرض القادم: فيلم أبي فوق الشجرة، وهذا عبد الحليم حافظ لا يغني فقط، بل يغرق في قبلة طويلة مع ناديا لطفي وقبلة أطول مع ميرفت أمين، يقطعها عليه الصراخ والصفير والتصفيق ملء الصالة. والآن ها هو الفيلم الذي امتدحه فندي ومعزز والصديق الجديد الذي قدماه لمنيب منذ أيام: المهندس عبد العفيف غنام.

لم تكد عينا أنوك إيميه تلتمعان بالحب ملء الشاشة حتى تضاعفت خفقات منيب. ولما تعانقت أصابعها بأصابع جان لويس ترانتبانت كانت أنوك قد أصبحت هي هفاف وهفاف هي، فتوفز منيب، وخفْقُ قلبه يتفاقم، حتى بات جان لويس ترانتبانت رجلاً ليس كالرجال، كأنه مجبول من صفاء، بل كأنه مجبول من أسرار. وتمنى منيب لو أنه يشبه هذا الرجل لتتعانق أصابعه بأصابع هفاف، وليسيرا معاً على جسر الفرات الجديد، يضحكان أو يتراقصان أو يغنيان أو تنفلت أصابعهما، فيتباعدان ثم يندفعان ليلتحما في عناق مشبوب. وكما يغرق ترانتبانت وإيميه في قبلة طويلة وقبلة قصيرة وقبلة أطول وقبلة خاطفة، سوف يغرق منيب وهفاف، بينما يعزف الفرات لهما هذه الموسيقا التي ستسكن روح منيب، ولن تغادرها من بعد.

سينما

ثملاً بالفيلم عاد إلى الغرفة، واستلقى على السرير، وغامت عيناه بأطياف من الفيلم تملأها هفاف، وتحدوها موسيقاه. وربما كان قد أغفى عندما اقتحمت أم فرحان الغرفة حاملةً طبق العشاء.

بقدر ما كانت أم فرحان متوترة، كان هو مسترخياً، ولم يطل صبرها، فرمت بالسؤال:

– ما انتهيت من العاهرة؟

– من تقصدين؟

سأل ذاهلاً.

– هيام.

– حرام عليك. لا تظلمي البنت.

– وأنت لا تظلم نفسك بها. كيف سمحت لنفسك أن تذهب معها إلى السينما؟

– أم فرحان من المخابرات يا أهبل!

صاح وهو يضرب كفاً بكف ويضحك، بينما ملامحها تتبدل بين ألم وعتاب هي تهمس:

– مخابرات يا منيب! سامحك الله.

وما كادت ضحكته تتخافت حتى داهمتها هي الضحكة، فأخذت تبترها، وفجأة اندفعت:

- فرحان رآكما أمام السينما. أنا قلقة عليك يا أستاذ. البنت ليست سهلة. قل لي: هل هي عذراء؟

- أظن. ما أدراني؟ لماذا تسألين؟

- هل تريد أن تتزوجها؟

نفت هزة من رأس منيب، فرقّ صوت أم فرحان وهي تتابع:

- كنت واثقة بك رغم أنك تركض خلفها كأنها كتبت لك عشرين حجاباً. وطاسة ويس، وراس فرحان، أتمنى أن أزوجك أحلى وأشرف البنات، لكني عاجزة في هذه المدينة. لأنك غريب سيأتي يوم تغادر فيه الرقة وتتزوج من بنات بلدك، ولكن إلى أن يأتي هذا اليوم لن أتركك تقع في حضن واحدة مثل هيام. في حارة البدو أشهى منها وأحلى، عند الحجيات أشهى وأحلى، هل تريد أن آتيك بواحدة؟ من يسمعني يظن أني قوادة، أو يظن أني عاشقة غيورة. صدقني أنني أحبك أحياناً مثل فرحان، مثل أخي الصغير. تعال.

راغباً في الأمان والدفء أوى إلى حضنها، وودّ لو يستطيع أن يحدثها عن هفاف. ولعله أغفى وهي تهدهده، ولأنه ظل كذلك حتى أضاء الصباح بهفاف، في الثامنة إلا دقيقتين،

أشار إليها قبل باب القاعة، ووقف، فعادت إليه، وانتظر حتى باتا وحيدين، فسأل:

– هل تذهبين إلى السينما؟

رسمت مفاجأة السؤال الدهشة على وجهها، وقالت:

– كثيراً.

– هل شاهدت فيلم رجل وامرأة؟

انقلبت الدهشة ابتسامة، وقالت:

– طبعاً.

– كنت سأدعوك إليه.

زادت ابتسامتها إلغازاً وهي تقول:

– إذاً أراه مرة ثانية.

– ولكن... كيف..

سأل كمن يتأتئ، فأسرعت تسعفه:

– سأتدبر الأمر. ستحضر معي أختي أو إحدى الصديقات.

متى؟

– اليوم. الساعة السادسة.

فكّر وهو يخاتل الخيبة: لن نكون وحدنا إذاً، وضحك من نفسه: وحدكما بين مئة متفرج! وتحاشى طوال الدرس أن ينظر إلى هفاف، كما تحاشى أن يطيل نظرة إلى أية طالبة،

خوف أن تكشف سره. لكنه سيضحك من تنكره حين يلتقيان أمام السينما، وتقدم له: روضة، بنت عمي. وسيضحك من نفسه عندما تعتم الصالة، لأنه لم ير روضة، ولم ير أحداً من كل هؤلاء الذين يملأون الصالة، كما لن يرى المناظر التي تسبق عرض الفيلم: فيلم أيام للتاريخ، المخرج نبيل المالح، دقائق تصور التفاف الشعب حول حافظ الأسد، وهذه لقطات من العرض القادم: فيلم الأرض، قصة عبد الرحمن الشرقاوي، إخراج يوسف شاهين. ومن رجل وامرأة لن يرى منيب إلا هفاف ورجلاً من صفاء ومن أسرار، وله به شبه، بل يتمنى أن يكون له به شبه. وفي غمرة الفيلم تحققت الأمنية، إذ تعانقت أصابعه وأصابع هفاف، ثم تعانق كفاهما، ولم يفترقا حتى أضاءت الصالة.

أمام السينما تساءل عما إن كان بوسعه أن يرافقهما. وبلا جواب توسطت هفاف بينه وبين روضة وساروا، وحين ضاق بسعادته وقد ندر من يصادفون، سأل:

– هل ستحضرين الفيلم القادم؟

– طبعاً. قرأت قصته في الصيف الماضي. وأنا أحب أن أشاهد الأفلام التي تكون مأخوذة عن روايات قرأتها.

– مثل ماذا؟

– كثير: البؤساء لفيكتور هيجو، في بيتنا رجل لإحسان عبد القدوس، بين القصرين لنجيب محفوظ. روايات ساحرة وأفلام ساحرة. ما رأيك؟

ودّ أن يقول إنها لم تترك له رأياً، وأن يسألها عما إذا كانت ستتابع دراستها الجامعية في الأدب، لكن لسانه هرف بما حلا له حتى وقفت هفاف أمام باب كبير لعمارة كبيرة وقالت: بيتي وبيت روضة هنا، هذه عمارة المهاوش، تفضل. عندئذٍ ارتبك لسانه مثلما سترتبك خطواته وأفكاره وهو عائد إلى غرفته. ولكي يخلو بنفسه، ترك الغرفة معتمة، وأسرع إلى السرير، وتحول الجدار المقابل رويداً رويداً إلى شاشة عملاقة، أكبر من شاشة سينما الزهراء، وأخذت الشاشة تعرض أشتاتاً من أفلام وروايات، ربما شاهد بعضها أو قرأ بعضها، لكن هفاف تقول إنها شاهدتها جميعاً، وقرأتها جميعاً، وبين فيلم وآخر أو رواية وأخرى كانت هفاف تبرق، حتى انتهى العرض، فملأت الشاشة، وهدهدت لمنيب حتى أغفى. وفي حلاوة نومه اقترب أبوه، فأفسحت له هفاف، فأفرد ذراعاً على منيب وذراعاً على هفاف، ولهج بالدعاء: بارك الله لكما، بارك الله بكما، وقبّل هفاف على جبينها، ومنيب على خده، وتنقلت عيناه بينهما وهو يسأل ضاحكاً: هل أحكي لكما قصة حبي؟

أنا عاشق هفاف

بعدما أدخل إلى الغرفة في مستهل الشتاء القهوةَ المرة والفروةَ التي ساعده في اختيارها صاحب مكتبة الخابور أبو يوسف، أسرع في مستهل الصيف إلى الجلابية والكلاش اللذين ساعده في اختيارهما جابر الخليل، ولم يبق إلا عقال المرعز وكوفية الماركيزيت لتصير ابن الرقة، وتنسى أنك ابن الساحل: قالت أم فرحان فرحة.

كانت ساعات النهار قد أخذت تتطاول مثقلةً بحرارة الشمس التي تتقد منذ الصباح، لكأن السماء لم تعرف غيمة في ليل أو نهار، فتتحول مكتبة الخابور إلى فرن طوال النهار، أما العشيات التي تفوح بالبرودة الناعشة، فلا تملأ إلا أولها صحبة جابر الخليل، بخاصة بعد سفر الدكتور مطر.

كان فندي الفهد أول من ألمح إلى ما عدّه العلاقة الغامضة بين منيب وجابر الخليل والدكتور مطر الزغّال الذي صار غيابه في دمشق أو سواها أطول من مقامه في الرقة: المهام الحزبية أَوْلى من عيادة الدكتور، قال فندي غامزاً من الشقاق الذي يعصف بالحزب الشيوعي. وقال جابر إنه يعرف فندي جيداً منذ ثلاث سنوات: فندي هو الغامض: ضد المخابرات،

لكنه لا يغيب عن مكاتبهم أو طاولاتهم في المقصف، يساري، يضع ماركس على يمينه ويمشي، لكنه لا يفوت صلاة جمعة ولا صلاة عيد، كن حذراً منه.

ويأخذ منيب بالنصيحة، ولكن بعد أن يذكّر جابر الخليل بما اعترف له به: أنت يا منيب غامض، ولست وحدي من توجس منك، أبو يوسف أيضاً. لا تزعل. ولكي لا يزعل عقّب أبو يوسف آنئذٍ: الرقة امتلأت بالغرباء الموظفين، وواحدهم له غالباً بالسلطة صلة ما، غير حميدة، حتى يثبت العكس.

في البداية كان مما استمال منيب في جابر الخليل، بقدر ما حيره، أن مدرس التربية الدينية لا ينفر من أن يكون على الطاولة كأس من العرق أو من الويسكي أو من النبيذ. ومن لقاء إلى لقاء، ومن أبو يوسف إلى الدكتور مطر الزغال إلى الموسوعة أم فرحان كما يلقبها منيب، بات يعرف ما يعرفه الجميع من عودة هذا الشاب من دمشق بعد أربع سنوات، حاملاً شهادته الجامعية، دون أن يبدو أنه قد كان لدمشق فيه أثر: يواظب على الصلوات الخمس مذ كان طفلاً، يقرأ القرآن كل ليلة قبل أن يهجع، وكل صباح قبل أن ينطلق إلى إعدادية عمار بن ياسر من قبل، ومن بعد إلى ثانوية الرشيد، ولعله لم ينظر في عيني امرأة مرة واحدة. وحدها ثيابه كانت قد تبدلت، إذ هجر الجلابية، كما حرص على أن تكون ذقنه حليقة

دوماً. وفي غمرة اعتياد المدينة على الأستاذ جابر الخليل، لم يكن عسيراً أن تألف صحبته للدكتور مطر الزغال منذ عاد من ألمانيا، ولا مشاهدته ذات مساء في المقصف.

منذ عهده في الجامعة، ألف جابر أن يجلس مع كثيرين ممن يحب وممن لا يحب، وربما كانت سنتاه الأخيرتان قد جعلتاه أكبر بطئاً في بناء صداقة جديدة، بعدما تكرر اعتقاله بشبهة الانتماء للإخوان المسلمين.

يفضي جابر لمنيب على مشهد من الفرات أنه كان مدفوعاً في دمشق إلى معرفة أجناب الدنيا المتناقضة، وإلى اختبار إيمانه وإرادتــه. وعبر ذلك كان أن توطدت صلته بزملاء وبأساتذة يتحدثون عن الإخــوان المسلمين والإضرابات والمظاهرات في دمشق وحمص وحلب، وفي بانياس أيضاً. أين كنت أنتَ؟ وفي سنة التخرج دعي مرة ومرتين وثلاثاً إلى الانتظام في الجماعة، لكن الاعتقال مرة خمسة أيام ومرة تسعة عشر يوماً، جعله يتردد، ثم نادته الرقة، فأسرع إليها، وربما كان يفر من دمشق إليها، وأنتَ يا منيب؟

كان جابر الخليل من بعد، والدكتور مطر الزغّال من قبل، قد كررا السؤال على منيب، مرة مغلفاً بالورق الملون، ومرة عارياً. وفي كل مرة أحزن منيب وأربكه أنْ ليس لديه ما يقوله: حياة فقيرة إذا ما قيست بحياة جابر، فكيف بحياة الدكتور

مطر؟ حتى بالقياس إلى حياة يعمر محمد، هي فقيرة، فيها التعلق بجمال عبد الناصر، وليس بالناصرية، فيها التعلق بسارتر وكامو وليس بالوجودية، فيها التعلق بماركس، ولكن ليس بالشيوعية. ماذا بقي؟

قال جابر:

- بقي الكثير. بقي من يحكمون سوريا والعراق.

قال منيب:

- وبقي الإخوان المسلمون. هل استحييت من أن تعدهم؟ قل: بقيت الأحزاب والجماعات الدينية. أنا قد لا أعرف من أكون أو من سأكون، لكنني أعرف يا صديقي أني لن أكون من هؤلاء جميعاً. يكفيني أن أكون رأيت بعض ما فعله من يحكموننا أو يحكمون العراق حتى أقول لهم: لا. تكفيني منهم، بل ومن جمال عبد الناصر، هزيمة ١٩٦٧. أما الإخوان وأمثالهم فبيني وبينهم الله، كما يقال. إذا كنت حائراً وعاجزاً ومستميتاً معاً أمام سؤال الدين، فكيف يمكن أن أكون مع هؤلاء؟

وفي لحظات الصمت التالية، فكر منيب في أنه، والأمر كذلك، لا شيء. وفجأة التمعت عيناه، وأنكرتا أنه لا شيء، بل على العكس تماماً، وتموجت في صدره الهتفة: أنا عاشق هفاف، ماذا أريد أكثر من ذلك؟ ماذا تريدون مني أكثر من ذلك؟

فيضان

لم يعد الجسر العتيق مكاناً ملائماً لخلوات منيب بنفسه بعد المغيب، بعدما تكاثر المتنزهون مشياً أو في السيارات التي تبرق في بعضها عيون النساء.

من حيث يصادف أن يقف على الجسر العتيق، كان يتملى الجسر الجديد المقابل الذي طال انتظاره، وكان يجهد في استعادة الحدود التي كانت ضفتا النهر تراوحان عندها منذ سنة، منذ سنتين، منذ.. متى قدم إلى الرقة؟

كان النهر يضيع الجواب مع الحدود التي ضيعها. وعندما شكا لأم فرحان ذلك، ظلت لعشايا عديدة وطويلة ترسم لهذا الذي لا يعرف إلا البحر، كيف كانت أم فرحان التي لم تبلغ مبلغ النساء، تبكر مع أمها، وتضيع في سرب النساء على الجسر العتيق أو على ضفة النهر: نثار من جزات الصوف وأكواخ القصب وقطعان الغنم وعرائس الذرة الصفراء أو البيضاء والصبيان الذين يتراكضون وينقذفون في النهر، وأصوات تحذر من الدوارات والطمي، وقفف العجّور واللوبياء، وأعواد السوس والطرفاء وقامات الغرب ووشوم تلمع على هذا الصدغ وهذا الرسغ وهذا الأنف: ليس على أنف هفاف وشم، لكنك لم تر منها صدغاً ولا رسغاً، فهل تكون تخفي وشماً؟

عندما أخذ لون النهر يعتكر، وهديره يختلف، أخذت الرهبة تتسلل إلى منيب، وأخذ يتشمم نكهة افتقدها منذ زمن بعيد، فيها من زرقة البحر ومن عكره، حتى بدا له من مساء إلى مساء، كأن البحر والنهر يجتمعان عليه، فصار يفر منهما إلى مكتبة الخابور غالباً، بخاصة بعدما تكررت فيها مصادفاته للدكتور مطر الزغّال وللأستاذ جابر الخليل: لكل منهما سره الذي يجذبك إليه.

كان قد مال بمنيب اللسان الذرب لهذا الأربعيني الأجلح الذي عادت به من برلين هزيمة ١٩٦٧، مخلفاً زوجة وابنة، وبعدما كان يحسب أنه لن يعود. كان لسان الدكتور مطر لا يكل ولا يداري: من تفاصيل العشائر والقبائل إلى تفاصيل الشيوعية في ألمانيا الشرقية حيث كان، وفي ألمانيا الغربية أيضاً. ومن الطب إلى إمامه المتنبي – لم يذكر المتنبي مرة إلا بهذه الصفة – إلى الشعر الحديث الذي بدأوا يدرسونه في سوريا في البكالوريا، وأخيراً، من المقبرة التي رُحّلت ليقوم مقامها المقصف: تعالوا نسهر يوم الخميس في المقصف، أنا الداعي.

فوجئ كثيرون بدخول منيب إلى المقصف لأول مرة: من يعرفونه، ومن ألفتهم وجه غريب جديد. كان الدكتور مطر قد

سبقه وتصدر طاولة قصية من الركن المشرف على الوهدة العريضة التي تنتهي بالنهر. تمنى منيب لو أن المقصف أقرب إلى النهر، بدون هذا السور البللوري الذي تنعكس عليه من بعيد أضواء السيارات العابرة للجسر. ولأمر ما، جاء النادل يرخي الستارة الفضية الهائلة، فرجاه منيب أن يدعها. وبينما أطلق عينيه إلى النهر، ترك أذنيه للأستاذ جابر يعدد: طاولة مدير المالية وطاولة مدير المصرف الزراعي، طاولة قيادة الحزب، طاولة رئيس الفرع: أي فرع، التفت منيب يسأل، فبهتوا، ثم قهقهوا جميعاً وعالياً وبلغت القهقهة الطاولة التي يتصدرها المهندس عبد العفيف غنام، فرفع ذراعه وظلّ يطوّح به حتى تنبّه منيب، فردّ التحية بأحسن منها.

في البداية أذهلت منيب ألوان علب السجائر المهربة المتناثرة، وألوان الزجاجات على الطاولات، وحاول أن يوائم بين العباءات والجلابيب وربطات العنق وياقات القمصان، مما يزركش الجلساء. ثم حاول أن يوائم بين اللهجات، ثم حاول أن يوائم بين الغناء العراقي الذي ينبعث من المكبرات ملتاعاً وكاوياً، وبين الأهزوجات الحماسية التي تصدع الإذاعة بها الرؤوس ليل نهار. لكن محاولاته سرعان ما كانت تخيب، حتى بين جلسائه حول الطاولة: هذا الدكتور

مطر الزغّال، القيادي الشيوعي، وابن من صودرت من أملاكه آلاف الدونمات، وهذا الأستاذ جابر الخليل، مدرس التربية الدينية في ثانوية الرشيد، والذي لا تكاد تخرج مظاهرة للإخوان المسلمين في سوريا، حتى يستضيفه الأمن السياسي في الرقة. وقبل أن يتابع منيب فيمن حوله، تنبه إلى أن هذه السهرة كانت ستجر عليه المتاعب، لو أن الرفيق محسن لا يزال في الرقة. وكان الدكتور مطر يلامس بكأسه المترع بالعرق كأس جابر المترع بماء زمزم، وقهقهوا حتى قطع اللغط حولهم قهقهاتهم، ورأوا كثيرين يشبون ويلتصقون بالسور البللوري، وأخذت الصيحات تعلو: بدأ الفيضان.

كان ثمة باب صغير إلى يسار الباب الرئيسي قد انفتح، واحتشد فيه وأمامه عدد من المعمرين مشدوهين. وهمس جابر في أذن منيب: سيعودون إلى الغرفة ويقفلون هذا الباب ليتابعوا مقامراتهم.

تلك هي إذاً الغرفة السرية التي ادعى فندي مراراً أنه ربح فيها المئات، وكذبه معزز مراراً، كما لم يصدق منيب أم فرحان مراراً وهي تسمي من تسمي من مزارعين كبار وتجار أكبر وموظفين فوق الجميع، يتحلقون كل عشية في مكان خاص بهم من المقصف، يسكرون ويقامرون، ثم ينطلقون

فـرادى، بعد منتصف الليل، يتلصصون على بعضهم وعلى الرقة، حتى يغيبهم مأوى آخر مع النساء والغناء والرقص والشراب.

في الشارع كان الناس يتدافعون نحو النهر. منهم من كان يجري باتجاه المستشفى الوطني لينعطف نزولاً، ومنهم من كان يقفز فوق السور الخفيض لحديقة المقصف، ومنهم من توجه صوب الساعة، لينعطف نزولاً أيضاً.

من سائر المنافذ التي تقطع الشارع الموازي للنهر، كانوا يندفعون. وما إن يغدوا أمامه وجهاً لوجه حتى يتسمروا. لا – فكر منيب– ليس الرعب هو ما تنضح به أصواتهم، ولا ما يلجم حركتهم للوهلة الأولى، ففي كل لحظة كانت تنبق رفوش ومعاول، وفي كل لحظة كانت الأذرع والجذوع تتضاعف حرارة واندفاعاً. ومن بعيد أخذت تدوي نداءات مكبرات الصوت من السيارات ومن المآذن تحث الناس على النهوض لحماية أطراف المدينة من الفيضان.

كانت البيوت المتناثرة في الأطراف القصية قد راحت تمتلئ بالناس، يرفعون منها ما تقع عليه الأيدي عن ألسنة الماء. وبدا الحشد كأن حمى قد أصابته أو مسّاً قد مسّه، ولم يعد لمنيب أو لسواه اسم محدد ولا صفة. ضاع في الحشد مثلما

ضاع الدكتور مطر والأستاذ جابر والأستاذ عبد العفيف وهذا فرحان، وهذا سطام، وهذه هي أضواء السيارات المسلطة على المشهد تزيد الناس ضياعاً ولحمة في آن. هذه هي الفوانيس أيضاً، وهذه رسوم لتخم ترابي تخرج من أقلام وريش لتوازي النهر، على أمتار في موقع، وعلى أشبار في موقع.

كان الليل قد انتصف منذ ساعة أو اثنتين– وربما أكثر، إذ ما عاد أحد يأبه لوقت– عندما أخذت أصوات في مكان ما من التخم تهزج وجعاً وفرحاً، ضعفاً وقوة ودعاء. وخيل لمنيب أن لهذه الأصوات رائحة أيضاً، والفرات قد غدا صخباً وغضباً وغثاء وطمياً وأشلاء. وأحس منيب أنه بات مثل ورقة طائرة، ممزقة ومدعوكة، لكنها تزخر أيضاً بالحياة، إذ تندغم بهؤلاء الذين جعلوا التخم الترابي، بومضة عين، يربو على مستوى الصدر، وكان الفجر أخذ يلون الأفق بالأسرار.

بدأ الناس يسعون إلى أن يضاعفوا عرض التخم، وكان منيب قد صار كتلة من الطين والعرق والرهق، يوشحها الأمان، لذلك حمل خطواته إلى الغرفة.

كانت أم فرحان بين نساء كثيرات ملء الفسحة الفاصلة بين بيتها وبيت الدكتور عبد السلام العجيلي. ولما ظهر منيب لاقته لهفى: رأيت فرحان؟

وهـي تعينه على الاغتسال، وعلى تبديل ثيابه، تدفق حديثها ولهاً بالنهر، وتقديساً لفيضانه، ونتفاً من حكايات: ماذا تراه فعل بالقرى التي على ضفافه من حدود تركيا إلى هنا؟ ومن هنا إلى دير الزور، من يدري ماذا فعل بالأراضي؟ كل سنة يبلع مساحات جديدة وبيوتاً جديدة، وأرواحاً أيضاً. قالوا بلع هذه المرة حتى الآن امرأة وطفلين. هذه المرة لاقاه الناس مبكرين. هذه المرة هجم قبل أن يناموا. سنة وصولك إلى الرقة جرف ثلاثة بيوت بمن فيها. ومع ذلك من نحن بدون الفرات؟

أغفى منيب على صوت أم فرحان، وأفاق في العاشرة والنصف على صوتها: لا أحد في المدينة ذهب إلى عمله اليوم. فرحان عاد منذ قليل، وكثيرون مازالوا مرابطين على التخم. قال فرحان: اندفاق النهر تضاعف. يا رب. وقال فرحان: وحده السد سيلجم النهر. هل يلجمه حقاً؟

قد تكون أم فرحان هي من سألت، وقد يكون منيب نفسه من سأل وهو يبدل ثيابه ويندفع إلى الخارج، مخلفاً أم فرحان لذهولها: لمن جهزت هذا الإفطار؟

كانت الشوارع شبه خالية، ومن بعيد أطل الفرات أكبر عكراً وأعلى موجاً. ومن بعيد كان هديره يتلاطم، ومنيب كأنه

في سباق من أجل أن يطمئن على هفاف. ولما ظهرت عمارة المهاوش عالية ومهيبة وتُدِلُّ بالأمان، تباطأ، وأطلق عينيه تجوسان خلل الشرفات والنوافذ، ولهج بالدعاء إلى **الله** أن تكون هفاف بأمان، وأن يلهمها بأن تطل، حتى لو لم تره. ولما بلغ العمارة أقسم على أن يظل يحوم حولها حتى تطل هفاف. وما إن أكمل قسمه حتى استجاب **الله** لدعائه، وسطعت شرفة الطابق الثالث بشمس أعشت منيب، فظلل عينيه بكفه، ولما رأته الشمس ظللته بضحكتها وبذراعها تلوح له، وربما تدعوه إلى الدخول.

عاشقة

تنفتح غرفة هفاف، إنْ من النافذة العريضة أو من الشرفة الرحبة، على البساتين، فالفرات، فالطريق الذي يمضي إلى دير الزور، فالأفق الذي ترتسم عليه منعرجات خفيضة وعارية.

قرب الباب الذي يفضي إلى الشرفة جلستْ وروضة متجاورتين، وقالت كأنها ترتق حديثاً متقطعاً:

– هذه المرة لست عاشقة لمطرب ولا لممثل، لا عبد الحليم حافظ ولا عمر الشريف.

انتظرت روضة حتى تمثلت المفاجأة ثم قالت:

– ولا لشاعر.

قالت هفاف باسمة:

– ولا لرامبو، تعرفين، أنا لم أعشق من الشعراء إلا رامبو ونزار قباني.

– من هو إذاً؟

– هو من لم أكن أظن أني سأعشق يوماً واحداً مثله. كل يوم أسأل نفسي: لماذا هو مادام ليس فيه ما يعجبك يا بنت؟

– هل أعرفه؟

– ظننتك أذكى.

– هل هو الأستاذ منيب؟

– عليّ أن أعترف أنه مدرس ناجح، ولكن من قال إنني أريد مدرساً ناجحاً؟ الأستاذ منيب وسيم، حلو، أنت رأيته، ولكنه ليس الرجل الذي يستهويني، لا في طوله ولا شقرته ولا شعره ولا مشيته، حتى ولا صوته.

– عين المعجبة وحدها تدقق كما تدققين، بل عين العاشقة، يقال العشق يأتي أحياناً بثوب الكره أو النفور.

– لكنه رجل خجول جداً، أو حذر جداً، كأنه فتى ساذج، كأنه لم يعشق أبداً.

– هل عليه أن يعانقك في الثانوية أو في الشارع؟ ها هو قد دعاكِ إلى السينما، وأنت لم تلبي الدعوة فقط.

– ماذا فعلت؟

– كنت تطيرين طوال الوقت.

– الفيلم هو السبب.

– والفيلم هو ما لمَّ كفك على كفه.

– انسي أني قلت لك ذلك. هي لحظة نسيت نفسي فيها.

– لحظة بطول ساعة، بل ساعة بطول لحظة، يا سلام يا غرام!

– اضحكي مني وعليّ كما يحلو لك. أنا خائفة من أن أكون

عاشقة حقاً. لكنني عاشقة يا روضة. أنا خائفة من... لا لست خائفة، أنا أريد أن يكون هذا هو عشق عمري.

– وإذا لم يكن؟

– سيكون، سترين. لن أعشق غيره، ولن يعشق غيري.

– والله على ما أقول شهيد.

قالت روضة ضاحكة، ورددت هفاف قولها ضاحكة، ثم قالت:

– يجب أن نلتقي وحدنا ولو لمرة.

سألت روضة:

– بماذا تفكرين؟

– فكري معي.

همست هفاف وعيناها ترسمان في وكنة من وكنات النهر مطرحاً للقاء.

خبزة مقمّرة

لكي لا تتوالى الأيام بلا أي احتمال لرؤية هفاف، اقترح منيب على زميلاته وعلى المديرة أن تقيم الثانوية احتفالاً تكريمياً للطالبات اللواتي سيتفوقن في البكالوريا وفي الشهادة الإعدادية.

في بداية تصحيح أوراق امتحانات البكالوريا نادى بالاقتراح. وقبل أن ينتهي التصحيح كان الاقتراح قد تحول إلى تفاصيل تنتظر التنفيذ، فأخذ السؤال ينغّص على منيب: وماذا إن لم تكن هفاف من المتفوقات؟ بل ماذا لو كانت من الراسبات؟

منيب والسؤال ظل يداور كل منّهما الآخر حتى أُعلنت النتائج. وثَقُل الوقت على منيب أحد عشر يوماً بطولها قبل أن تشرق هفاف بين تسع من الطالبات محفوفات بذويهن.

بعدما قدمته هفاف لأمها ولأخ طفل نسي اسمه، لم ير منيب أحداً في الحفل غيرها. كانت وحدها ترفل فيما يشبه فستان سهرة: بلوزة وبنطلون يبدوان كقطعة واحدة، والقبة مكشكشة، واللون السماوي يصدح – و– أين العباءة – كان منيب قادراً على أن يعب فوح الورود التي تملأ صدر البلوزة.

وفي لحظة مخطوفة سألها:

– لماذا لا تزورين المركز الثقافي؟

فكتمت ضحكتها وقالت:

– أنت لا تزوره. تعال الأربعاء بعد العصر، في السادسة.

بعد الاحتفال ظل منيب يضحك من غفلته، وبدأ يزور المركز الثقافي كل مساء، حتى الأربعاء.

بصحبة روضة أقبلت هفاف، ولم تفترقا طوال الوقت، ولم يفارقهما منيب طوال الوقت: ماذا تنوين أن تدرسي في الجامعة؟

الفلسفة وعلم الاجتماع.

هل ستقيمين في حلب؟

طبعاً، سأسكن وروضة.

ولكن الدراسة في كلية الآداب لا تتطلب الحضور.

الدراسة عن بعد ليست دراسة. إما جامعة وإما لا. ولماذا أفوّت على نفسي العيش أربع سنوات خارج الرقة؟

إذاً أنت واثقة من أنك ستتخرجين خلال أربع سنوات؟

طبعاً. وأنت أستاذ منيب: هل ستبقى في الرقة؟

مراراً استعاد اللقاء الذي لم يتكرر. ومن خيبة إلى خيبة كان يضيع ما قالت، وما قال، والندم يكبر على أنه لم يطلب رقم هاتف، ولم يحدد موعداً آخر.

ثم كان أن زار جابر الخليل في بيته لأول مرة، وأن صادف شقيقه الأصغر ياسين الذي استبد بالحديث طوال السهرة: الله سبحانه وتعالى أنعم علينا، فتحولت الشركة السورية للتعمير إلى وسيط لنا نحن المتعهدين. الشهادة لله هي من بنى آلاف الشقق في الطبقة، عدا المدارس والأسواق في السنوات القليلة الماضية، والآن جاء دورنا. المطلوب كثير يا أستاذ، مساكن للموظفين، لمراقبي الري، للخادمات، هل تعرف منطقة الحمرات، منطقة السلحبيات؟ ألا تعرف المشروع الرائد؟ أنت مثل أخي جابر. ماذا في الرقة؟ اخرجوا منها وانظروا إلى الدنيا كيف تتغير. الطبقة لم تعد هي الطبقة، وبين أن تغمض هذه العين وتفتح هذه، يكون السد قد قام، والفرات ما عاد هو الفرات.

قبل أن يغادر منيب كان قد سمع ياسين يتحدث عن معسكر للطلاب والطالبات سيبدأ غداً السبت في الطبقة. لماذا؟ ليساعدوا العمال. والطلاب والطالبات من الرقة؟ سأل منيب، لا، من المريخ، قال ياسين ضاحكاً، وضحك منيب من أعماقه، وقرر أن يكون غداً في المعسكر، ولكن ماذا لو لم تكن هفاف مشاركة فيه؟

في الغداة، وتحت صهد الشمس، لاقاها: هو برفقة جابر، وهي برفقة روضة. كانت الشمس قد لفحت وجنتيها خلال ساعات معدودات، فكيف ستصبحين بعد ستة أيام؟ سألها وقد انتحيا وأقبلا على النهر. وضحكت، وتراءت له رغيف الخبز المقمّر، كأنها هذه الوجنة، وهذه الوجنة كأنها الرغيف الثاني، وهمس بجوعه واشتهائه للرغيفين، وضحكت، واستدارت ليعودا إلى روضة وجابر، وقبل أن ينفصلوا همست آمرة بألا يعود إلا في نهاية المعسكر، يوم الجمعة.

المدير

في العيادة التي ضيعت المرضى بطول وتكرار إغلاقها، التقى جابر الخليل والدكتور مطر الزغال الذي بدا ببيجامة الرياضة أصغر سناً. وبعد أن تأمل جابر المكتبة الزجاجية الصغيرة، كعادته كلما زار العيادة، قال كعادته:

– لن تخفي المجلدات الألمانية والإنجليزية فقر مكتبتك بالكتاب العربي.

ثم جلس لتواجهه هذه المرة على الجدار المقابل صورتان لماركس ولينين تتوسطهما شهادة الدكتوراه. وعلى غير عادته، لم يغمز من الصورتين، بل أسرع يسأل:

– لماذا تظن أنهم نصّبوا منيب مديراً لثانوية الرشيد؟

– كرمى لك، لتكون تحت ولاية صديق. إياك أن تكون قد أخذتك الغيرة منه.

– اطمئن، مع أنها لو أخذتني لكنت على حق. أنا أقدم منه في الوظيفة، وأنا من الرقة. منيب يبقى غريباً.

– لماذا إذاً؟

– من حسن حظه أن الرفيق محسن زار الرقة في هذه الفترة، وكل من هو من الساحل لا بد أن تشمله رعاية الرفيق محسن، حتى بعدما انتقل إلى الشام.

- ليس هذا التعصب المناطقي علتنا الوحيدة ولا الكبرى.

- لكنه بالنسبة للرفيق محسن ليس بالتعصب الوحيد. أضف إليه التعصب الطائفي. الرفيق محسن لا يخفي علويته ولا رعايته لمن في الرقة من العلويين.

- ومنيب ليس علوياً. وأنت نفسك وصفت مرة علاقته بالرفيق محسن بالبرود. وهذا كله غير مهم. المهم ماذا يفعل منيب كمدير. ما بلغني أن سمعته كمدرس ناجح في ثانوية البنات لحقته كمدير ناجح لثانوية البنين. أريد أن أسمع منك.

- منيب اعترف أمامي بخوفه من الإدارة في البداية. ليس له أي خبرة سابقة، لكنه يتعلم كل يوم، بل كل ساعة. صار باب الثانوية يغلق قبل خمس دقائق من بداية الدوام الصباحي. عشرات الطلاب المتأخرين حرموا من الدخول في الأيام الأولى، فتسكعوا سعداء في الشوارع. لم يأخذ أحد منهم ولا منا الأمر مأخذ الجد. بل صرت تسمع في المضافات من يسخر من المدير الفرخ الذي يصرخ هنا ويشتم هناك، كأن الثانوية عادت مدرسة ابتدائية قبل عشرين سنة. لكن الشوارع سرعان ما صارت مسرحاً للسباق كل صباح في الدقائق الأخيرة قبل موعد الافتتاح. وحدهم الطلاب الذين يبيتون في القرى والمزارع المجاورة، وتتحكم السيارات بموعد وصولهم، يُسمح لهم بالتأخر وفق القوائم التي أُعدت بأسمائهم.

– إنجاز مهم أن يضبط دوام الطلاب. سمعت أنه ملأ رفوف مكتبة الثانوية التي كانت تصفر.

– لم يكتفِ بما اشتراه من مكتبة الخابور، بل ذهب إلى حلب وعاد بحمولة جمل على رأسها مجلدات حمراء وزرقاء وصفراء لماركس ولينين وماوتسي تونغ. افرحْ. في هذه الأيام يقود حملات التفتيش على الطلاب الذين يدخنون في زوايا الباحة الكبيرة، خلف أشجارها أو في المراحيض. ومدرب الفتوة ببذته العسكرية بجانب منيب، يضرب المقص في شعر الطالب الذي يضبط مدخناً، ثم يُطرد الطالب أسبوعاً. ومع علب السجائر والكبريت ضُبطت عشرات المطاوي الصغيرة وعدة خناجر، احتفظ منيب بواحد منها لنفسه وعلقه في صدر الإدارة، وتوزع مدرب الفتوة والموجهون بقية الغنائم. حتى الأساتذة لم ينجُ بعضهم من التأنيب الفج.

– ولكن سمعت أنه واجه ويواجه معارضة ليست سهلة.

– أنا على يقين من أن منيب يتعمد مضاعفة عقوبة أي طالب من حزب البعث، أو أي طالب يعلم أنه من أسرة ثرية. وإذا كان هذا قد وطد من سطوته، فقد عكّر عليه أصداء نجاحه. في المقاهي كما في المضافات صارت الثناءات تنهال على من استطاع أن يضبط انفلات الشبان، ولكن بدأ أيضاً

الامتعاض من تطاول المدير الفرخ -هكذا شاع لقبه - على الجميع. وفي اتحاد الطلبة وفي مديرية التربية بدأ الثناء يختلط بالاستنكار، وصرت تسمع من يتهم منيب بالتساهل مع الطلاب الشيوعيين، ومن يؤكد تنامي نشاط الطلاب والأساتذة الشيوعيين والناصريين.

- إذا كان منيب قد حقق كل ذلك في ثلاثة شهور، فهذا نجاح يُحسد عليه.

- بالمقابل لا تنس أن منيب حوّل الثانوية إلى ما يشبه الثكنة العسكرية. وعندما ألمحت إلى ذلك سألني متحدياً: من يضبط ألف طالب إلا العصا؟ وعندما مازحته مرة فقلت كأنك كنت تريد أن تكون ضابطاً، زعل مني. غيري يقول منيب يخفي في داخله ديكتاتوراً. منيب ديكتاتور صغير، ولو كبر فاسترنا يا رب.

- هذه مبالغات فيما أظن. من له ملاحظة فعليه أن يبلغها للرجل وجهاً لوجه. وإذا لم يخب حدسي فأنت قد تبدلت مع منيب.

- منيب هو من تبدل، وخلال فترة قصيرة. كل يوم كان يتبدل أمام عيني، وأنا لا أرى. الصداقة غللت نظري. عندما ستلتقيان، سترى.

– هل تخفي عني شيئاً؟

– منذ فترة استدعاني من الصف. وجدته مسترخياً على الكنبة ومرسلاً ساقيه بعيداً. كان مغمض العينين، مصفر الوجه، كأنه في إغماءة. خير يا منيب؟ ما بك؟ أمر الآذن بألا يسمح لأحد بالدخول، واعتدل بصعوبة في جلسته، وأرسل زفيراً أشبه بالأنين، وقال: طالت غيبة الدكتور مطر. هل تشكو من شيء يا منيب، قل لي، أنا أخوك جابر. قال: إذاً لا تكذب عليّ ولا تتشاطر. أنت الآن مع الإخوان المسلمين أم لا؟ أعوذ بالله من الشيطان الرجيم، هل أرسلت خلفي لتسألني هذا السؤال؟ هل تريد الدكتور مطر من أجل ذلك، أم لتسأله: أنت الآن شيوعي أم لا؟ أهذا كلام يا منيب؟ قال حازماً رغم ضعفه: هذا هو الكلام. قلت سأجيبك فيما بعد. خلّنا الآن بما أنت فيه. بدأ يكرر عليّ ما كان عليه الإخوان المسلمون هنا أو في مصر. قاطعته وسألت: ما جدوى المماحكة في الماضي، مهما كان مهماً؟ هات إذاً عن الحاضر يا جابر: خاطبني واندفع يخطب: هل أنت وصي على إيمان الناس؟ لماذا هذا العداء للعروبة؟ هل من عدالة دون الاشتراكية. أعوذ بالله من الشيطان الرجيم. أين كان يخبئ منيب كل هذا؟ كنا نختلف كثيراً، نختلف كأصدقاء، وأنت تعرف ذلك، ولكن هذا عداء،

هذا ليس صداقة. قلت له: منذ عدت إلى الرقة لم تقم لي صلة بالإخوان، والمخابرات تعرف ذلك جيداً، لكنك بهذا الكلام كأنك تدفعني إليهم. والمخابرات، باعتقالي كلما دق الكوز بالجرة، كأنها تدفعني إليهم. لماذا يا منيب؟ وخرجت غاضباً، بل خرجت متألماً، ولم نلتق بعد ذلك. أخشى أن تكون صداقتنا قد فرطت. هل كانت هشة إلى هذا الحد؟

– قد يكون منيب في أزمة، وعلينا أن نساعده على الخروج منها. عليّ أن أسمعه أولاً. أظن لو أنه علم بعودتي لاتصل بي أو لزارني.

قال الدكتور مطر وهو ينظر إلى ساعته، وحين وضع يده على الهاتف، أجفلها رنينه المفاجئ، ونهض جابر مودعاً.

الولع المر

هي، وبدر التمام، والنهر: وجهاً لوجه وقد انتصف الليل، وشرعت النسائم الرخية الرطبة تقبّل خدي هفاف، وتكاد تظفر بشفتيها فتلويان، فتتسلل إلى عنقها، وتستر أصابع هفاف عري صدرها، ثم تستر عري ذراعيها وكتفيها، بينما تكون النسائم قد تغلغلت في الشعر الذي ازداد طولاً، وآن أوان تشذيبه، إن لم يكن قصه، كما تكرر روضة القول، فتكرر هفاف القسم في سرها على ألا تشذبه ولا تقصه حتى تلتقي منيب، وتسأله الرأي.

أستاذ: ما رأيك؟ أترك شعري كما هو أم؟ لا تقولي: أستاذ. قولي: حبيبي: هات أصابعك، خلّها ترَ كم طال شعري.

ويلك يا مجنونة! تخاطبين القمر، أم تخاطبين النهر، أم تخاطبين منيب؟ ولكن أين هو منيب؟ منذ معسكر الطبقة اختفى، فلم تكتمل فرحتك بالجامعة، وروضة صمٌّ بكم. ما عادت تنفع برأي، وما عاد لها حيلة. طيب يا روضة. تعالي. على الأقل امشي إلى جانب المجنونة كل مساء. أين يمكن أن يكون الآن؟ في شارع المنصور؟ سنقطعه ذهاباً إياباً مرتين، سأتلصص على مكتبة الخابور، بل سأدخلها، سأشتري

رواية، أية رواية، وغداً سأشتري مجلة، وغداً سأتلصص على المقهى، بل سنقطع شارع تل أبيض ذهاباً إياباً مرتين، وإذا لم أصادفه سأذهب إلى الثانوية وأسأل الآذن سطام عنه، ربما يعرف بيته، بل سأرسل سطام إلى المقصف في العشية، ربما يكون هناك مع أصحابه يأكلون ويشربون ويضحكون، وأنا لائبة في هذه المدينة الصغيرة التي لا يضيّع فيها أحد أحداً إلا أنا، ضيعت منيب.

بل منيب ضيّعك، ليست روضة وحدها تصدعك. القمر والنهر معاً يوشوشانك، ويمسحان على كربك ثم يرأفان بك، ويعدانك: سيظهر منيب، لا تيأسي، ربما سافر إلى بانياس ليرى أهله، وربما.. ربما انتقل عمله من الرقة كما يفعل كل المدرسين وكل الموظفين، بعد سنة أو سنتين أو حتى عشر. عندئذٍ ما الذي سيحل بالمجنونة؟ ستعقل وتلتحق بالجامعة وتتخرج وتعود إلى الرقة أو تبقى في حلب، أو تذهب إلى أبعد من حلب، ولكن كيفما دارت الدنيا بك، ستظلين لائبة على منيب، إلا إذا أسلمت نفسك منذ الآن للقمر وللنهر وللنسائم الرخية الرطبة، وإلى أن ينطوي الصيف، وتفتح ثانوية خديجة أبوابها. عندئذٍ ستصفق روضة بجناحها، وتسبق الجميع، لتعود إليك بالخبر اليقين: الأستاذ منيب صار مديراً لثانوية الرشيد. والآن، تستطيعين

أن تذهبي إلى الجامعة آمنةً مطمئنة، سواء دبرت روضة اللقاء أم أخفقت، فمنيب لك، وأنت لمنيب. لا يهم أن تكوني في حلب وهو في الرقة، أو أن تكوني في الرقة ويكون في بانياس، ولكن لو صح ذلك، فلماذا تبهظك هذه الفداحة كلها؟ فداحة القمر، فداحة النهر، فداحة الليل، وهذا الانتظار، هذه الذكريات الفقيرة. هذا الولع المر؟ لماذا يا منيب؟

المدير

عقب انصراف الطلاب أسرع منيب إلى بيت الدكتور مطر، متمنياً ألا يكون ثمة من يرصد زيارته. كان يحاول وهو يتلوى في أزقة حي البياطرة أن ينظم من جديد صورة الدكتور مطر وعلاقته به: هنا، كما في دمشق، كانت المباحث تعد أنفاس طالب الطب مطر الزغال أيام الجمهورية العربية المتحدة، أيام الوحدة السورية المصرية التي كنتَ ولم تزل تقدسها. لكنك كنت فتى وكان مطر الزغال شاباً يفر من اعتقالات الشيوعيين إلى بيروت، ومن بيروت إلى برلين، حيث واصل الفرار كما حدثك غير مرة، مادام ممنوعاً من العودة إلى الرقة، وما دام المنع سيتواصل من عهد جمال عبد الناصر إلى عهد الانفصال، فإلى عهد البعث، ومطر صار طبيباً، وزوجاً وأباً وعضواً في اللجنة المركزية للحزب الشيوعي، لكن الرقة ظلت محرمة عليه حتى جعلتها هزيمة ١٩٦٧ حلالاً له.

في واحدة من غرف بيت الزغال الواسعة، انفرد الرجلان. كان ثمة باب يصل الغرفة بالغرفتين التاليتين اللتين فصلتا عن البيت، لتصيرا عيادة الدكتور التي سرعان ما صار الغبار يجلل فيها مكتبه وكتبه وسرير المعاينة وغرفة الانتظار

وصورتي ماركس ولينين وشهادة الدكتوراه في الطب - اختصاص أمراض الصدر.

كانت غرف البيت الأخرى العديدة والواسعة أيضاً، تمتد على أضلاع المربع الذي يرسم محيط البيت، بينما لا يزال عبقٌ خاص لماضٍ غير بعيد يفوح من أرجائه، من بابه العريض العالي، من جدرانه السميكة وباحته الترابية الفسيحة، من البئر التي تتوسط الباحة وتئن من الإهمال إذ لم تعد من حاجة إليها، بعدما صار للمدينة شبكة مياه.

كان الدكتور مطر لا يفتأ يعبر عن تعلقه بهذا البيت الذي يعده أيضاً واحداً من شواهد الماضي الذي يثور عليه، مثله مثل مئات الشواهد ملء المدينة، في بيوت أسرها الثرية وفي المضافات، حتى في السور أو في مقام عمار بن ياسر. وفي الآن نفسه كان الدكتور مطر يسخر من العمارات الجديدة التي يتسابق الناس إليها، من هذا الذي يشيده كبار الملاكين والتجار إلى ما تشيده الدولة وتسميه المساكن الشعبية أو المساكن العمالية، ولا يرى فيها الدكتور مطر إلا أقفاصاً يغدو الساكن فيها فأراً وهو يحسب نفسه طاووساً.

كان العبق الذي يتنسمه منيب هنا، مثلما في بيت جابر الخليل والبيوت العتيقة النزرة التي دخل إليها، يبعث الدوار

في رأسه هنيهات قبل أن تستقر جلسته على واحدة من الطنافس التي تزنر عادة أضلاع الغرفة. لكن الدوار طال عليه هذه المرة حتى سأله الدكتور مطر:

- كيف تسير أمور الثانوية؟

- اليوم بدأنا حملة تشجير. دبرت نحو ألف غرسة كينا ستكون سوراً ثانياً للثانوية، لكنه سور أخضر.

- وماذا أيضاً؟

- المشروع القادم فرقة فنية للتمثيل والغناء ستكون رديفاً لفرقة الفنون الشعبية ومنافساً.

- عظيم. وأنت كيف تسير أمورك؟ أمس أقلقني عليك جابر.

قال منيب شاكياً:

- أنا جائع، ومنذ أيام لا أنام جيداً، هذا كل ما في الأمر.

قال مطر:

- جوعك ستسكته أم مطر، وأنت تحب أن تأكل من تحت يديها. أما النوم فدواؤه عندي. والباقي؟

تنقلت نظرات منيب بين صورتي زوجة مطر وابنته الكبيرتين اللتين تواجهانه في الجدار المقابل، على يمين النافذة، وبين عيني مطر اللتين أحس بهما تفيضان بالأخوة، ثم قال:

- الباقي عند الأمن السياسي.

- طلبوك؟

قال منيب ساخراً:

- حتى الآن لا، ولكن زاروني. أنا الآن مدير الثانوية الرسمية الوحيدة للبنين في المدينة، ما عدت نكرة، لذلك صار يُفرد لي مكان في الصف الأول أثناء الاحتفالات الرسمية، ولذلك لا يطلبني الأمن مثلك.

- زيارتهم كطلبهم. المهم.

- كانت الثانوية فارغة إلا مني ومن الآذن عندما دخلوا. واحد فقط من الوجوه الثلاثة كنت قد صادفته عند الرفيق محسن. فتح الآذن الباب دون أن يطرقه أو يعلمني عمن سيدخل، كما هي العادة. أضمرت له توبيخاً وهو يرحب بالضيوف، ويسألهم عما يفضلون: الشاي أم القهوة، فأمره أحدهم بالخروج وإقفال الباب، وعدم السماح لأحد بالدخول، وبادرني: اخترنا هذا الوقت لنكون وحدنا. لن نؤخرك، وأخرج من محفظة صغيرة رزمة من الأوراق: تفضل. وهو المسح السياسي إذاً. كل سنة مرة. والرفيق المدير يعرف ذلك ويقدر أهميته. السرية هذه المرة هامة جداً. تجربة السنة الماضية أضرّ بها عدم صون السرية لدى عدد كبير من رفاقنا ومن المتعاونين معنا. أنت يا أستاذ منيب تعرف كيف يتنفس كل

زميل من زملائك، وكل طالب. نحن واثقون من ذلك على الرغم من كل ما يصلنا عنك. تركته يتكلم ورحت أسأل نفسي عن هذا الحزب الذي يجمع المعلومات للمخابرات. تمنيت لو أن الرفيق محسن حاضر ليقول لهؤلاء الثلاثة إنني لست رفيقاً لهم، وقد رفضت أن أقوم بالمسح السياسي في ثانوية البنات. لا يا محترمين. لست أهلاً لهذه المهمة الوطنية. ابحثوا عن غيري. مع السلامة.

- لن ينسوها لك. ولكن لا أظن أنها وحدها ما يشكو منه سيادة المدير.

- اسمع إذاً: كانت الزيارة المشؤومة يوم الأحد، عصر الاثنين عدت إلى البيت لأجد بانتظاري أمام الباب طالباً يبادرني بالسلام ويرجو أن أستقبله دقيقتين. قال أنا رياض هباش بكالوريا علمي، وجلس يتلجلج بالكلام فأمرته بالاختصار، فازداد انكماشاً واضطراباً وهو يحلف بالله وبرحمة أمه أنْ لا عون له في محنته إلا المدير، وأنه لم يقترف ذنباً. صحيح أنه ناصري، وأبوه ناصري، وربما كانت العشيرة كلها ناصرية، ولكن أنا نفسي يا أستاذ لا أعرف ما الناصرية إلا إذا كانت حب جمال عبد الناصر، ولكنهم أرسلوا في طلبي مساء البارحة. من هم؟ أمن الدولة؟ واقع على الله وعليك يا أستاذ. استرخيت وهونت على الطالب، فاسترخى واعترف أنه

نـام البـارحـة في بيت خـالـه، وتـغيب اليوم عن المدرسـة، وأخيراً ألـهمه الله أن يبحث عن بيت المدير، وأنـا خـائف يـا أستـاذ. حتـى والدي لا أجـرؤ على أن أصـارحـه بـالحقيقة. أحضرت خود، بنت الجيران، الشاي، وقلت لـه: نم الليلـة في بيت خـالك أيضـاً، وتعـال غداً إلى المدرسـة كالمعتـاد. سـأعـالـج الأمر. لا تـخف.

– وعـالـجت الأمر أم عـالـجك؟

– في الصبـاح، ورغم تبكيري المعتـاد، وجدت رجلين قد سبقـاني، والآذن فتـح لـهمـا مكتبي وقدم الشـاي: من أمن الدولـة يـا أستـاذ: قـال الآذن مفخمـاً. سـألت: مـاذا تريدان؟ مـاذا تتوقـع؟

– الطـالب ريـاض هبـاش.

– انفجرت: لن تـأخذاه بدونـي. تركتم الرقـة وعبدتم ثـانويـة الرشيد؟ لم يعد لكم شغل إلا عندي؟ مرة الأمن السيـاسي ومرة أنتم وبكرة دور من؟ الآن سـأذهب إلى المحـافظ ليوقفكم عن التدخل في عملي. مـع السلامـة. ونـاديت الآذن، شتمتـه لأنـه فتـح البـاب أمس واليوم من دون إذاي، وقدم الشاي لـهم من دون إذاي. أقسمت على أن أطلب نقلـه إلى تل أبيض إذا مـا عـاد إلى مثل ذلك، ولـو كـان الزائر المحـافظ نفسـه.

– لا أظن الأمر انتـهى هنـا.

– طبعـاً. ذهبت فوراً إلى مدير التربيـة. أهـلاً أهـلاً. مخـالفـاتك

تكبر كل يوم يا أستاذ منيب، وكل واحدة أخطر من التي قبلها. الرفاق محتارون فيك يا أستاذ منيب: أنت معنا أم ضدنا؟ هل تظن أنه يكفي أن يكون المدير ناجحاً؟ نسيت أن في البلد سلطة؟ خرست يا دكتور مطر. هرب لساني مني. أجرى الرجل عدة اتصالات، قدرت بعدها أن المسألة عولجت. لن يعتقل الطالب: قال. يبقى بعض الأسئلة التي عليه أن يجيب عليها، سيتولاها الأستاذ منيب، وسيسلمها إلى مدير التربية غداً أو بعد غد. هذه المرة ليس عليّ أن أكون مخبراً يقوم بالمسح السياسي. هذه المرة سأكون المحقق. لن يزور رجال الأمن ثانوية الرشيد، ولكن منيب سيتعاون مع اتحاد الطلبة ومع الرفاق من الأساتذة، والطلاب، ليس فقط في متابعة نشاط القوى السياسية، وليس فقط في المسح السياسي بل في الكبيرة والصغيرة. أرأيت في أي نعيم أنا؟

– سأحدد لك، ولكن بعد الغداء.

أحسّ منيب أنه أوفر عافية منه عندما وصل، بل ومنذ أيام، ولذلك انصرف إلى الطعام تماماً، بصمت وبشغف، وحنت عليه نظرات الدكتور مطر الذي جاراه في الصمت قليلاً، ثم أخذ ينقض الصمت رويداً:

– كل نجاح له ثمنه، وأنت باعتراف الجميع ناجح. حققت

للرقة في حقلك الصغير نقلة هامة، كان يمكن أن تكون أفضل. أنا أدرك أن في داخلك ناراً تستعر، ليست فيما أظن بنت أمس أو اليوم، ربما خمدت فترة، ربما تخمد فترة أخرى، لكن إذا لم تكن حازماً مع نفسك، صريحاً، دقيقاً، فلن يكون بوسع أحد أن يقدم لك شيئاً.

وقبل أن ينتهي منيب من الطعام، توجه مطر نحو الباب الذي يصل الغرفة بالعيادة قائلاً:

- سنشرب بدلاً من الشاي مما تخبئ العيادة.

ولما عاد بزجاجة الويسكي تابع:

- لن أستطيع أن أطلب الثلج، وسنشرب الويسكي بكؤوس الشاي.

كتم منيب استنكاره لأن تكون في بيت رجل مثل الدكتور مطر كل هذه التقية من أجل كأس ويسكي. الدكتور مطر يخبئ في العيادة، إلى جانب الأدوية، بعض الزجاجات والكؤوس، وأهله لا يجهلون، ولكنه نوع من التواطؤ الصامت بين الجميع، يحفظ للبيت حرمته ولمطر حريته، شأنه شأن بيوت كثيرة في المدينة: شرح جابر لمنيب غير مرة.

أتى مطر على كأسين، وشرع في الثالث، بينما كان منيب لا يزال يداعب كأسه الأولى، لكن الانتعاش كان قد سرى فيه، وشعر بأنه يتخفف من الضغوط الغائرة ملء كيانه، أو أنه

يسيطر عليها، وإذا بمطر يباغته:

- ما الذي جرى بينك وبين جابر؟

عندئذٍ غبّ منيب ما كان في كأسه وقال:

- سألوني عنه. جماعة الأمن السياسي، ومدير التربية، سألوني. هم على ثقة بأنه حرباء، وأنه يمارس نشاطه بدهاء، ويخافون عليّ وعلى الطلاب منه، ويتشككون بصحبتي معه. هذا كلام الأمن. مدير التربية أضاف أن علاقة جابر بهم وثيقة. بهم؟ من هم؟ الأمن؟ وعنك أيضاً سألوني. ومنك أيضاً حذروني، لكن لم يشككوني بك كما شككوني بجابر.

قال مطر بانفعال:

- عليك أن تشك بنفسك قبل أن تشك بجابر. أنت تعرف أننا على طرفي نقيض في كثير من الأفكار وفي السلوك، ولكن جابر الخليل عملة نادرة.

تساءل منيب وهو يملأ كأسه:

- كأن فيك ضلعاً من الإخوان المسلمين.

- كما أن فيك ضلعاً من الشيوعية.

- أنا براء منكم ومنهم. أنتم جميعاً من الماضي، انتهيتم عام ١٩٦٧، مثلكم مثل جمال عبد الناصر ومثل حكامنا الآن. ليت جابر كان معنا الآن.

- أراك حننت إليه. ولكن دعني أحدثك عن نفسي، أقصد عنا

نحن الشيوعيين الذين لا تعرفونهم، الشيوعية الجديدة التي فيها العروبة وفيها الإسلام، قل فيها الدين، وفيها فلسطين، وليس فيها القيادة المنزهة والمؤبدة. أنا أحدثك كواحد منا، وليتك تكون معنا.

فجأة أحس منيب بالضيق من الويسكي، ومما عده مماحكة، فطالب بالقهوة، وفكر وهو ينتظرها بأنه لم يأت للشكوى، ولا للمسامرة، ولا للمناقرة، فلماذا جاء إذاً؟

ولأنه لم يعثر على جواب، شرب القهوة بسرعة، وودع بسرعة، وبسرعة مشى إلى الفرات، وأمام النهر فتح صدره متمنياً أن يتعرى، وأن ينقذف إلى باطن النهر، وخاف، وبدأ الحزن يغمره، إذ لن يكون قادراً على البرء مما به إن لم يلق بنفسه في النهر. وأرجفه صوت يذكره بأنه لم يسبح مرة في الفرات، وجمجم بأنه يخشى الفرات أكثر مما يخشى البحر، ودنا صوت يواسيه بالسباحة التي كانت له في المدينة، واعترته رعشة مثل التي اعترته ذات ليلة بعيدة حين غضب النهر وفاض. وتراءت المدينة ترقص على صفحة النهر، بل هي فيه وهو فيها، وهذا الكائن الهش الضعيف الحالم والحزين عاشق مدنف لهما، أي هو عاشق... لمن؟

لهفاف

هفاف التي ضيعتها منه الإدارة كما توشك أن تضيعه هو أيضاً، لذلك أسرع بالعودة إلى المدينة، وطاف حول عمارة المهاوش سبعاً، دون أن يرفع رأسه إلى الطابق الثالث ليرى ما إن كانت هفاف قد أطلت، ثم مشى هوناً إلى غرفته، وعزمه يتضاعف خطوة فخطوة على أن يستقيل من الإدارة غداً.

كأنه عارٍ

لم يستقل منيب، إذ وجد نفسه مزجوجاً في معركة تحتدم من يوم إلى يوم، إلى أن دعي إلى اجتماع في مقر اتحاد الطلبة، بحضور مدير التربية وعدد ممن يُفترض أنهم قادة حزبيون أو أمنيون، ما داموا قد احتلوا المنصّة.

تصدر الرفيق جودت عبد الغني المنصة، بجوار إبريق كبير من الشاي وعدة كؤوس وكومة من السندويش. وفي نهاية المنصة، إلى اليسار، جلس منيب.

من متحدث إلى آخر، انهالت الانتقادات لمنيب، أقوى فأقوى، بينما يد الرفيق جودت تسابق فمه، حتى اختفت كومة السندويش وفرغ الإبريق. وحين جاء دور منيب في الكلام، حاول أن يرد على منتقديه بهدوء، لكن صوته تهدج سريعاً، وجمله تلاحقت كأنه في الاجتماع الصباحي، في باحة الثانوية. ولما انتقل من الرد إلى انتقاد من نقدوه، بدا واثقاً من النصر بينما كان الرفيق جودت قد احتضن رأسه منذ حين، وأغفى.

بعد الاجتماع، ما كاد منيب يدخل مكتبه حتى ناداه الهاتف إلى رئيس الأمن السياسي: مكالمة قصيرة لم تترك

لمنيب فسحة ليفكر في هذه الدعوة الحازمة والموشاة بالود، إلا في الدقائق التي استغرقها سيره من الثانوية إلى مكتب النقيب علي أبو راس.

تسللت المهابة إلى مسام منيب وهو يصافح النقيب، ويلف بنظرة الأثاث المتواضع، ولوحة من الخرز تمثل خريطة الوطن العربي، ومن وسطها ينبثق علم حزب البعث، ويسوّرها شعاره، وإلى جانبها صورة رئيس الجمهورية القائد الأعلى للجيش والقوات المسلحة، والأمين العام للحزب.

تبسم النقيب وهو يأمر الرجل الواقف في الباب بتقديم القهوة المرة، ثم يخاطب منيب:

– أعجبتك اللوحة؟ كلما دخل زائر تراه يتأملها مثلك. هل تصدق أن الذي أنجزها كان سجيناً هنا منذ عدة سنوات؟ كان من رفاقنا، ودخل السجن لأنه وقف ضد خطنا اليساري.

– أما زال..؟

سأل منيب، لكن لسانه لم يسعفه على إكمال السؤال، فقال النقيب، وقد غادرته الابتسامة:

– فرّ من السجن إلى العراق، دعنا منه الآن. بلغني أنك تغلبت على كل خصومك في الاجتماع. أهنّئك.

قال منيب محاذراً:

- ليس لي خصوم. الاختلاف لا يعني خصومة. ولكن أليس عندكم من يمكن أن يتولى الاجتماعات إلا الرفيق جودت؟

قال النقيب وقد عادت إليه الابتسامة:

- أنت ذكي كما وصفوك لي. وأنا يعجبني الذكي. أما الرفيق جودت فهو مثال يضرب للطموح. هل تعلم أنه تعلم القراءة والكتابة بعد ما تزوج، وأنه انتسب إلى حزب البعث عندما كان الإقطاعيون في عزهم؟ رفيقنا جودت نجا من الموت بقدرة قادر مرات، ولم ينس الطين الذي طلع منه، لكن الرجل يحب الأكل، والنساء، صحتين وعوافه.

- لن تجعلني أغير رأيي فيه.

قال منيب ممازحاً، فتابع النقيب:

- اسمع إذاً: عندما عاد من ألمانيا الشرقية، وكان على رأس وفد حزبي، سأله أحد الخبثاء: كيف وجدت ألمانيا يا رفيق؟ ففرش كفه أمام جبهته وقال: الركوب لهين.

وقهقه، فجاراه منيب، وفجأة بدا وجه النقيب كأنه تقنّع بقناع جامد، وقال:

- أول من حدثني عنك كان الرفيق محسن. يبدو أنكما صديقان حميمان.

- لا أستطيع أن أقول إننا أصدقاء.

– هذا أفضل لك. محسن دعيّ، يظن أنه يفهم في كل شيء، في السياسة وفي الأدب وفي التاريخ وفي سد الفرات وفي الماركسية. أنا أفضل رفيقاً مثل جودت عليه. أنت زرت الرفيق محسن في بيته، ألم تسأل نفسك من أين له كل هذا السجاد مثلاً؟ لماذا لا يدخن إلا السجائر المهربة؟

– ومع ذلك ها هو يترقّى أعلى فأعلى.

قبل أن يرد النقيب كان هاتفه قد رنّ، فأفسح لمنيب أن يتأمل حركات الشفتين والشاربين ورنة الصوت، وأن يقيس طول الأذنين، وفكر في أن أجهزة الأمن والسجون والسجناء والصراعات السياسية والشعارات المدوية.. كائنات حية وملموسة، وسره ذلك، فابتسم، وكان النقيب قد عاد إليه، وشرع يخاطبه بحياد:

– أنا عاتب عليك. كيف تعامل دوريتنا ودورية أمن الدولة هذه المعاملة؟ أنا أهملت تقارير كثيرة عنك منذ كنتَ في ثانوية خديجة، وكلها تتحدث عن عدائك لنا، ولكن لا تتوقع أن يكون صبرنا بلا نهاية. أنا أيضاً لست راضياً عن كثير مما يجري في البلاد، وأنا أعرف أكثر مما تعرف، ولكن هذا لا يعني أن أمد يدي إلى الأعداء. من هو جابر الخليل؟ من هو مطر الزغّال؟ من هن العوانس اللواتي كنت وإياهن في

ثانوية خديجة مثل السمن والعسل؟ ليس بينهم جميعاً صديق لنا ولا صديقة، وأنت حبيب الجميع. الآن أريد أن أسمع منك بالتفصيل: ما علاقتك بـ.....

هنا أصمّ منيب أذنيه، ونهض عازماً على الخروج، ليس من الغرفة، بل من جلده. وسوف ينسى ما أعقب نهوضه، إذ إن النقيب علي عاد فجأة إلى الرفيق جودت عبد الغني، وخاطب منيب بحياد:

– أنت وهو من عشيرة واحدة.

– أنا ومن؟

سأل منيب ساخراً، وكرر السؤال مستنكراً، فتابع النقيب:

– أنت منيب حسين الخلف، أي منيب خلف الحسن. أبوك رحمه الله من أية عشيرة؟ لماذا بدل أبوك اسمه؟ لماذا لم تجرؤ على أن تكشف من أنت لأحد في الرقة، حتى اليوم؟ كما ترى أنا دقيق في عملي، وقد استقصيت عنك وعن المرحوم من طقطق إلى سلام عليكم. أنا أتمنى لك النجاح والتوفيق ولكن إياك أن تقف ضدنا.

خرج منيب بعد حين ما عاد يذكر إن كان قد طال أم قصر. ومن مكتب النقيب علي إلى غرفته مشى مطأطئاً خجلان كأنه عارٍ، وكل من عبر بهم يحدقون في عورته ويضحكون. وكما سيواجه دهشة وقلق أم فرحان، سيواجه أسئلة الجميع

بالصمت، بينما كان ذبوله يكبر ليلةً فليلة، إذ ما عاد قادراً على النوم إلا ريثما يبلوه كابوس، فيرى أباه قد اقتحم غرفته، وأنهضه ودفعه أمامه إلى مضافة كبرى تكون مرة في حارة العجيلي، ومرة في حارة محطة شل، ومرة في المشلب، وفي كل مرة تكون مدججة بالدِّلال والشيوخ والعبيد والسلاح. وفي كابوس لا يكاد أبوه يقترب منه حتى يلعلع الرصاص، فيكون على منيب أن يفتدي أباه، لكن أباه يسبق إلى القتل. وفي كابوس – وربما ذلك ما كان حقاً قبل أن يغادر مكتب النقيب – يرى نفسه يهدد النقيب: إن جرى لي مكروه فالويل لك. دمي في رقبتك وليس في رقبة من سيصيحون بالثأر.

بعد أيام، بدأ كل صباح ينفحه بنسمة من أمان. ومن صباح إلى صباح كانت النسمة تكبر وهي تأمره مرة بأن يسلم أمره لله، وتطمئنه مرة: لن يرتكب النقيب علي حماقة، وتنصحه مرة: ما عاد لك في الرقة خبزة، امشِ وانفد بجلدك.

وبعد أيام أطول، بدأ كل مساء يدفعه إلى النهر، والنهر يسأله عن هفاف. ولما ما عاد أحد يطيق صبراً، لا المساء، ولا النهر، ولا هو، توجهوا جميعاً إلى عمارة المهاوش، ورابطوا أمامها زمناً حتى هبت عليهم نسائمها من شرفات العمارة جميعاً، وليس من شرفة بعينها: أين هفاف؟

عروس

لا مفر أمامي من أن أحكي لأحد حكايتي، بالأحرى حكاية أبي. ومادامت السبيل إلى هفاف مقطوعة، فمن أوْلى من أم فرحان بالحكاية؟

اذهب إلى الدكتور عبد السلام العجيلي: قالت بصوت الحكيمة – واذهب إلى من تعرف من وجهاء المدينة. كلما كانوا أكثر وأكبر مكانة، كان أفضل. هم يعرفون مع من سيتكلمون من أهل غريمكم ومن عشيرته. أنت عليك أن تحكي الحكاية وتطلب الشفاعة. بعد ثلاثين سنة يصبح الأمر أسهل.

وبما أني لا أعرف الدكتور عبد السلام، ولا أعرف أحداً من وجهاء المدينة، سلّمت أمري للدكتور مطر الذي أصرّ على أن أطلب من جابر الخليل أن يكون شريكه.

قال جابر:

– أبي خير من يمكن أن يتدخل في أمر كهذا، ليس بسبب مكانته فقط، بل لخبرته في قضايا العشائر والثأر والمصالحة.

وقال الدكتور مطر:

– لمنيب عزوة في الرقة. لماذا لا نبحث عن أعمامه ونصلهم به؟

وحين جمعني جابر بأبيه، كرر الدكتور مطر السؤال، فقال أبو جابر:

- دع البحث عنهم لي. أما وصلهم بمنيب فالأفضل أن نؤجله حتى نرى ردة فعل الغرماء. لو علم أعمام منيب به الآن، فقد تُستثار الحمية وتتعقد المصالحة.

ثم خصني بالسؤال:

- ولكن لماذا لم يدفع أهلك الدية ورفضوا الصلح؟

والآن جاء دورك مرة ثانية يا أم فرحان. هفاف يا أم فرحان. من عيوني: قالت وصوتها يرجف، وعيناها تغالبان دمعة. لماذا يا أم فرحان؟ كأنك تودعينني بلا رجعة. أرجوك، بي من الخوف ما يكفي. عمارة المهاوش تعرفينها، والحجة تدبرينها. المهم أن أرى هفاف، فمن يدري ماذا ينتظرني؟

بحكمتها - وربما تحت وطأة قلقها - انتظرت حتى عاد الوفد، وأرسل الدكتور عبد السلام في طلبي. كانوا يملأون الصالون الفسيح. عرفت منهم والد جابر والدكتور مطر فقط.

بعد صمت قصير انهمرت خلاله عليّ نظراتهم، فزادوا خوفي خوفاً. خاطبني أحدهم بجفاء:

- اتفقنا معهم على أن تترك الرقة، مقابل ألا يتعرضوا لك. نقلت نظري بين الدكتور مطر وأبو جابر، فأشارا بالقبول،

بالأحرى بالرضوخ. وسواء عنت الإشارة قبولاً أم رضوخاً، فقد أسعدني الاتفاق. ولما بدأوا ينسحبون، أومأ لي أبو جابر بالاقتراب منه، وهامسني:

– اسبقني مع جابر إلى البيت، نتعشى ونكمل الحديث.

سألت جابر متشككاً: ماذا يريد أبوك مني؟ قال: اطمئن. ولكني لم أطمئن حتى سمعت أبو جابر يقول قبل أن يبدأ العشاء:

– عمك الذي قتل وأورثكم الثأر، اختفى بعد القتل، وانقطعت أخباره سنوات قبل أن يتأكد موته، ولكن دون أن يُعرف أين، ولا ما إذا كان موته ثأراً أم لا. ابنه الوحيد لم يتحمس للقائك، ويفضل السلامة والنسيان. عمك الحي الوحيد يتمنى أن يراك وفوضنا بالاتفاق مع غرمائكم. حضر معه واحد من أبنائه، هو طالب عندك في ثانوية الرشيد، وهو معجب بك ولكن يخاف منك.

سألت وأنا أغالب خوفي وغضبي:

– والديّة؟ والصلح؟

قال أبو جابر وهو يربّت على كتفي:

– الجماعة لا يريدون الديّة. وهذا الاتفاق الآن خطوة على الطريق نحو الصلح. توكلْ على الله.

ثم استغرق في الطعام. ولم تنقض الصمتَ كلمة حتى حضرت الشاي. عندئذٍ أخذ أبو جابر يرمي بنتف من ذكرياته، وأنا ألهث خلفها، حتى إذا تعبت سهوت عنها، فإذا به يباغتني وقد توشى صوته بالحنين وبالفخر:

– عندما كنت في مثل عمرك كنت واحداً من ستة عشر رجلاً شكلوا مجلس دولة الرقة المستقلة.

قاطعته مكرراً باستنكار اسم الدولة وسألت: متى كان... فلم يدعني أكمل سؤالي، إذ تابع:

– في صيف ١٩٢٠.

قلت: وكم... لكنه لم يدعني أكمل سؤالي، إذ تابع:

– عاشت الدولة أقل من سنة ونصف، ولولا أن تركيا الكمالية ساندتنا بالرجال والسلاح، لما عاشت دولتنا شهرين. ولكن بموجب اتفاقية أنقرة سلمتها فرنسا كيليكيا ومرعش وأورفة وماردين وسعرت وكِلّس وعينتاب، أي أكثر من ١٨٠٠٠ كلم٢ من الأراضي السورية، فتخلت عنا تركيا، وانفردت بنا فرنسا.

وأتى على ما كان في كأس الشاي الثانية، ووقف داعياً لي بالتوفيق، ورأيت نفسي أرتمي في حضنه، ولم يغادرني دفء أنفاسه حتى رأيت أم فرحان تنتظر في غرفتي. وبدلاً من أن

ترد تحيتي قالت: بشّر. قلت: فُرِجتْ، فهمّت بالزغردة، وخجلتْ، واحتضنتني، وأسرعت إلى هفاف. وريثما عادت بها وبروضة، تبددت فرحتي، فعن أي ظفر وعن أية نجاة أتحدث؟ الآن عليّ أن أترك الرقة، وربما إلى أبد الآبدين. لكنني رقّاوي، وكما لم أرث عن أبي قرشاً ولا شبراً، لا أريد أن أرث عنه ثأراً، ولا نفياً. ولما رأيت هفاف تجدد نسبي الرقاوي، أو تأكد، فالرقة أنتِ، وأنتِ الرقة: قلت لها بعدما خرجت أم فرحان وروضة، وابتسمت، وبكت، وقالت: موعدنا حلب، وسألتْ: ماذا قلت لأم فرحان؟

– عن ماذا؟

– عنّا، عنك وعني.

– لا شيء، والله العظيم لم أقل لها إلا أنني أريد أن أراك قبل أن أرحل.

ستعود يا منيب: همست، وهمستها تتبلّل بالدمع. وتهجدت أصابعي على عينيها، وعلى خديها، وارتمت في حضني وقالت ضاحكة: سنعود معاً، لا تقلق، أمامي أربع سنوات سأقضي أغلبها في حلب. وأنت؟ إلى أين ستذهب؟

قبلت رأسها، ودعاني ضوع شعرها إلى أن أطلب نقلي إلى حلب. ولكن صوت أبي عاجلني: رحْ اقض الخدمة العسكرية كما فعلت أنا عندما طلبوا رقبتي. بدّلْ اسمك أيضاً. لا تأمن

لهم جانباً. ورأيته يدنو من هفاف وصوته يقطر حناناً:

امدوّر الخديْن بدر المطاليعْ

نجمة الثريا بجبينهْ أظنّي

ولما اختفى الصوت كان قد نـأى برأس هفاف عنّي، وكانت أصابع تنقر على الباب، وقلت لهفاف:

- هذه هي أم فرحان، لا يفوتها شيء.

قالت هفاف مصطنعة الغضب:

- ماذا تظننا نفعل؟

وكان الباب قد انفتح، ودخلت روضة، ثم دخلت أم فرحان حاملة إبريق الشاي، وقالت ضاحكة:

- تفعلان ما يفعل العشاق. وطاسة ويس سأرقص بعرسك يا هفاف العايد يا أحلى عروس.

ونظرتُ إلى هفاف، فرأيتها تزهو في ثوب عرس يشعّ بياضاً ويترامى ذيله حتى الباب، وربما كان سيظل يترامى لولا أن روضة أغلقت عندئذٍ الباب.

فصول من زمن التيه

مقتطفات من يوميات ومراسلات

١- منيب: من رسالة في ١٥ أيار ١٩٧٧.

٢- هفاف: من رسالة في ٢١ تموز ١٩٧٨.

٣- منيب: من يومية عيد الحب ١٩٨٠.

٤- هفاف: من رسالة في كذبة نيسان ١٩٨٠.

٥ - منيب: من رسالة في ١١-١٠

٦ - هفاف: من رسالة في الكريسماس ١٩٨١.

٧ - هفاف: من رسالة في ٣-١-١٩٨٢.

٨ - منيب: من رسالة في ٨-٣-١٩٨٢.

٩ - هفاف: من يومية صباح الجمعة.

١٠ - منيب: من يومية ٢٥-٤-١٩٨٣.

١١ - منيب: من يومية رأس السنة.

١٢ - هفاف: من رسالة من الشارقة بلا تاريخ ولم ترسل.

١٣ - منيب: من يومية برج بوعريريج ٢٥-١١.

١٤ - منيب: من يومية بوعريريج، بلا تاريخ.

١٥ - منيب: من يومية في بوعريريج، بلا تاريخ.

١٦ - هفاف: من يومية في الشارقة بلا تاريخ.

١٧ – منيب: من يومية في بوعريريج، بلا تاريخ.

١٨ – هفاف: من يومية في الشارقة بلا تاريخ.

١٩ – منيب: من يومية في بوعريريج قبيل مغادرته لها.

٢٠ – هفاف: من يومية في الشارقة بلا تاريخ.

٢١ – منيب: من يومية في بوعريريج فجر مغادرته لها.

٢٢ – هفاف: من يومية في دبي بلا تاريخ.

٢٣ – من يوميات منيب في دمشق بلا تاريخ.

٢٤ – من يومية منيب في الرقة بلا تاريخ.

مقتطفات من يوميات ومراسلات

١- منيب: من رسالة في ١٥ أيار ١٩٧٧:

هفاف: الفرات لا يفارقني هذه الأيام. أحاول أن أتابع أخبار الفيضان الربيعي هذه السنة. ليل نهار لا يفارقني، انظري، كأنه نواح الغرَب على الضفتين، كأنه نهر طعين، وهذا والله هو وبر النهر، هذا قميص النهر، هذه ندوب النهر. هفاف: قولي له أن يرحمني.

٢- هفاف: من رسالة في ٢١ تموز ١٩٧٨:

سبحان الله يا حبيبي! كأن العرسان كانوا أمام عمارة المهاوش ينتظرون أن تتخرج حبيبتك في الجامعة وترجع إلى بيت أبيها حتى يتسابقوا إلى طلب يدها.

العريس الأول كان صديقك الصدوق الدكتور مطر الزغّال. هل تذكر ماذا كتبت لي عنه؟ كم مرة كتبت لي عنه؟ أنا أحببته من رسائلك، ولكن كصديق لك. ورجوت أن يكون صديقاً لي وليس عريساً في عمر أبي، وصلعته أكبر من صلعة أبي. وحياتك ضحكت عندما رأيته، ونويت أن أناديه عمي. أبي لم يكن راضياً به ولا أمي. قال أبي: صحيح أنه ابن عائلة من

أشرف وأكبر وأغنى عائلات الرقة، ولكنه شيوعي، واليوم هو حر طليق بكرة تطارده الحكومة أو ترميه في السجن حتى تتخّ عظامه، أمي قالت: كان عليه أن يستحي ويبحث عن أرملة أو مطلقة بمثل عمره، لا عن بنت بعمر بنته.

العريس الثاني أيضاً صديقك الصدوق، وأيضاً كتبت لي عنه مرات، وأحببته من رسائلك. ما قصة أصدقائك معي؟ ما هذا الحظ الذي يفلق الصخر؟ الأستاذ جابر الخليل أيضاً متزوج وله ولدان وبنت، وعمره فيه البركة وإن كان أصغر من الدكتور مطر. قلت للأستاذ جابر أمام أبي: لماذا ستتزوج وعندك امرأة، وأولاد؟ قال حلّل الله لنا أربع. قلت: وإن لم تعدلوا ولن تعدلوا فواحدة، كنت سأقول له: أنا حبيبة صديقك منيب ولن أتزوج غيره. المهم، عبس وتولى. سأعلن يا حبيبي أنني مخطوبة حتى يكفّ العرسان عن الاصطفاف أمام عمارة المهاوش.

٣ - منيب: من يومية عيد الحب ١٩٨٠:

لَسْكُنْ بيروت لو كان معايا مالْ
لَسْكُنْ بيروتْ وآخذ سبع بنات
يدقّوا العودْ

عود يا زماني عودْ

أدارت ظهرها وقاطعتْ غنائي قائلة: مبروك عليك بنات بيروت جميعاً.

لا مزاح مع هفاف.

أنا كنت أمزح معك عندما قلت لك: تعالي إلى بيروت.

أين يمكن أن أجدك إذا جئت؟

إلى أين؟

إلى بيروت.

اسألي من تشائين في أي مقهى في الحمرا عن الملازم السوري منيب خلف الحسن.

يا إله العالمين! جاءت وسألت وقبضت على هذا الضابط المجند في قوات الردع متنكراً بقميص وبنطلون ويتلصص على البنات من خلف زجاج مقهى باريس.

لا مزاح مع هفاف.

أنا كنت أمزح معك عندما قلت لك: ننزل في أي أوتيل، في أي استوديو، قلتِ ننزل.

كم ليلة؟

قل أنتَ.

في النهار ستكونين وحدك، عليّ أن أكون في الثكنة.

حاضر سيدي الملازم. أريد أن أراك في البذلة العسكرية.

كنت أكلمكِ وليس في رأسي إلا سؤال واحد: هل سننام معاً؟ لم أجرؤ على أن أسأل، ولكن هفاف تقرأ ما أفكر فيه.

لا تترك خيالك يشطح. لن نتزوج اليوم. لن نتزوج في بيروت. من الذي حكم علينا عندما غادر الرقة: لن نتزوج إلا في الرقة؟

لا مزاح مع هفاف. إذاً قبلة، وهذا أضعف الحب.

قالت: وأهون الشرور.

قبلة واحدة. يا ظالمة!

أنتَ قلت قبلة، لم تقل: قبلتان، قبلات.

٤- هفاف: من رسالة في كذبة نيسان ١٩٨٠:

ما عادت الرقة تروق لي وأنت لست فيها.

أخي فواز مزعج جداً.

أمي مريضة أغلب الوقت.

قررت أن أتابع دراستي، الآن إلى الماجستير، ومن يدري، قد يأتي يوم أقول فيه: إلى الدكتوراه.

كيف تريدني أن أقضي الوقت في غيابك؟ كم سنة مضت وأنت في الجيش؟ بعد الخدمة الإلزامية جاءت الخدمة

الاحتياطية، وبعدها ماذا؟ صرت أخاف أن تقضي عمرك في الجيش مثل والدك. لن أتزوج العسكري منيب خلف الحسن حتى لو حمل رتبة اللواء. بل أكثر من ذلك. خذ هذا الإنذار القاطع: لن أستمر في عشقك إذا كنت ستظل تلبس البذلة المبرقعة مهما كثرت النجوم والنسور على كتفيك.

منيب: حبيبي... أحبك يا منيب.

٥ - منيب: من رسالة في ١١-١٠-١٩٨١:

أمس التقيت بالشاب الإيطالي المترهبن باولو دالوليو في مكتبة النوري.

صاح: المكتبة تجمعنا دائماً، وضحكنا، وحكى للنوري كيف التقينا أول مرة في مكتبة دار الطليعة في الجامعة العربية في بيروت، ثم مشينا من المكتبة إلى المزرعة. هو اتجه إلى دار الفارابي وأنا ركبت تكسي، لو تعرفين إلى أين!

بصراحة إلى سينما البكاديللي. وشفت فيلم سكس يا سلام. كان باولو يطمح إلى أن يدرس اللغة العربية في الجامعة اليسوعية، لكن الحرب دفعته إلى مصر.

قال لي النوري: باولو من أحسن زبائن المكتبة. سألته: أحسن أم أدسم؟ ضحكنا وسألت باولو: ماذا تعمل هنا؟ أدرس

في كلية الشريعة كمستمع. ماذا يا باولو؟ أسلمت؟ ألم تكن راهباً بالجزويت؟ ومازلت..

تعشينا معاً في باب توما، وحدثني مطولاً عن أستاذه في الكلية مستر بوتي، يقصد محمد رمضان سعيد البوطي، وعن حلقات الذكر الصوفية التي يحضرها عند قبر شيخه محي الدين بن عربي، كما حدثني عن الدروس التي يحضرها من مسجد إلى مسجد، وعن إعجابه بالشيخ أحمد كفتارو.

حبيبتي: ها قد سُرّحت من الجيش، وعدت إلى التدريس، اليوم أول يوم لي في ثانوية جوبر.

دمشق لا تطاق بدونك. إلى متى سنظل هكذا؟ أنا أخاف أن أعد السنين التي باعدت بيننا. الماجستير مازالت بعيدة، وأنت ببطئك تزيدينها بعداً. إما أن تنتقلي إلى دمشق أو أن أنتقل إلى حلب. لا تقولي لن نتزوج إلا في الرقة. اطمئني. أنا لا أطالب بأن نكون في مدينة واحدة من أجل الزواج. على الأقل أراك في اليوم مرة، أشم رائحتك. هل ستضحكين مني أو عليّ لو قلت لك إنني أستميت منذ أيام من أجل أن أستعيد لون أسنانك. هذا الصباح فقط عرفت أنه لون الياسمين. وشفتك السفلى، ما لونها؟ حواء؟ لمياء؟ من يعرف إلا رب العالمين؟

٦ - هفاف: من رسالة في الكريسمس ١٩٨١:

كرمى لك حبيبي اشتريت اليوم من نوفوتيه رفيدا في التل فستاناً أصفر مقلّماً بالأسود، ولفوق الركبة.

روضة قالت كيف ستلبسينه إلا تحت العباءة، والعباءة في الرقة وأنت في حلب، عدا أننا في كانون الأول والبرد يقص المسمار؟

لم أرد عليها. قلت لحالي: لن يراني في هذا الفستان إلا حبيبي. والآن أنا ذاهبة إلى السينما. لم أقل لك: انتسبت إلى النادي السينمائي. سأحضر فيلم صوت الموسيقا. جولي أندروز ممثلتي المفضلة. اشتقت لك يا عمري. أنت عمري، اسمع أم كلثوم.

٧ - هفاف: من رسالة في ٣-١-١٩٨٢.

لن أبقى في هذا البلد يوماً آخر إذا استطعت، وسأستطيع، أنا لا أقصد حلب. أقصد سوريا. سوريا كلها لن أبقى فيها يوماً آخر. طبعاً سأقول لك: تعال معي. لنذهبْ معاً إلى أي مكان. الآن لا أعرف إلى أين سأذهب، ولكن غداً، بعد غد، على الحدود، في المطار، سأعلم، وإليك ما جرى.

أنا وروضة اتفقنا مع بنت خالي لجين التي تدرس في

معهد إعداد المدرسين على أن نسهر رأس السنة في بيتهم وننام عندهم. العودة في الليل من حارتهم مستحيلة في هذه الأيام. هم في المشارقة.

حلب ساحة حرب حقيقية يا منيب، ونحن نعيش بين رصاصة ورصاصة.

بعد ما نام خالي وزوجته والصغار سهرنا نحن الثلاثة على صوت فيروز شوي، نجاة الصغيرة شوي، صوت الرصاص شوي، وبعدما دخلت السنة الجديدة انقطعت الكهرباء وما عدت تسمع إلا صوت الرصاص. حتى صوت خلع الباب لم نسمعه، وعلى ضوء الشمعة الوحيدة رأينا مسلحين صغيرين، نبتت ذقن الواحد منهما البارحة، وخلفهما مسلح أكبر منهما معاً، ولحيته شبر وحمراء. طبعاً نحن سافرات، وبثياب النوم.

يا كافرات: صاح بنا الكبير وسأل: من في البيت؟ وقبل أن نتجرأ على جواب كان خالي قد صار في الباب، وما عدت تعرف صوتاً من صوت: كيف تنتهكون حرمات البيوت وأنتم تدعون الإسلام؟ جيش الكفار يلاحقنا فاضطررنا إلى أن نلجأ إلى بيتك. اخرجوا من بيتي. أمسكوه يا شباب. أمسكه الصغيران. اندفعت بنت خالي إلى أبيها، دفعها الكبير قبل أن تصل إليه ووقعت على الأرض وصرخت وبكت وعقرت ساقها

وفخذها، وصحت بهم يا كفّار ما لكم أخت؟ ما لكم أم؟ صوّب الكبير الكلاشينكوف عليّ وعلى روضة، ورفس بنت خالي وإذا بالرصاص في الخارج كأنه في الغرفة، التفت الكبير إلى الباب وترك الصغيران خالي والتصقا بالكبير ورصاص رصاص رصاص يا منيب. سقط المسلحون الثلاثة بين أيدينا وسقط من المهاجمين لا أعرف كم.

أمر أحدُ المهاجمين أبي: ارفع يديك وامش أمامي. صحت: من أنتم؟ قال خالي بصوت يرتجف: أنا منكم. أنا عضو قيادة...

لم يتركوه يكمل، واحد شحطه وواحد لبطه وواحد قال: كلكم صرتم منا عندما تقعون.

صاحت بنت خالي: الإخوان اقتحموا البيت ورأيتم حالتنا. أبي عضو قيادة نقابة... صاح أحدهم: اخرسي، وصاح آخر: انقبري، وأمر ثالث: فتشوا البيت، أكيد فيه غيره. نطينا فوق المسلح وركضنا، كان خالي صار بره. سمعت صوته كأنه مذبوح: رح اسأل الضابط المسؤول عنكم سيعرفني، لا بد أنه سمع بي، اسأل... انقطع صوت خالي وانحشرنا ثلاثتنا في الباب. والله يا منيب لا أعرف ماذا أقول لك. لا أعرف هل أنا في كابوس؟ هل هذا ما رأيته؟

بيت خالي أول طابق. أمام البناية على الجدار المقابل دكاكين مغلقة، رأيت عشرة أو عشرين رجلاً لا أدري كم، عميت، كانوا مصفوفين متلاصقين وظهورهم لنا. ما عدت أعرف من منهم هو خالي. ورصاص يا منيب، رصاص رصاص، وكل المصفوفين تطوحوا وضربوا ببعضهم ووقعوا والشرفات صارت نساء تولول وأنا ماذا صرت؟

أنا لن أعيش في هذا البلد بعد اليوم.

٨- منيب: من يومية ٨-٣-١٩٨٢:

طوال النهار وأنا أحاول الاتصال بها كي أهنئها بهذا العيد. لماذا لا تردين؟ كنت سأمازحك وأقول عيد سعيد وعيد مبارك، أقصد عيد الثورة وليس عيد المرأة.

لكنني ما كنت سأتجرأ على المزاح لو ردتْ.

لا مزاح مع هفاف.

كانت ستغضب وتسألني: عن أية ثورة تتحدث؟ كلها انقلابات عسكرية كما يقول أبي. لو ردتْ كنت سأقول لها: إذاً هو عيد المملكة السورية، اسألي أباك عن قيام المملكة السورية في الثامن من آذار عام ١٩٢٠. اسأليه عن هذه المصادفة العجيبة التي جمعت في يوم واحد قيام المملكة

السورية وثورة أو انقلاب الثامن من آذار ١٩٦٣. وبالمناسبة أمس كنت مع يعمر محمد والرفيق محسن، وأردت أن أغيظهما، فقلت الملك جمال عبد الناصر، مادام حكم طيلة حياته فلماذا لا نقول الملك؟ هاجا وماجا فقلت الملك ستالين، فسكتا، فأردت أن أغيظهما وصرت أعدد من الرؤساء الملوك الذي يحكمون وسيظلون يحكمون إلى أن يموتوا ميتة ربهم أو ميتة خصومهم.

مثل من يا غليظ؟ سألني يعمر.

قلت: مثل الحبيب بورقيبة. سكت. قلت مثل هواري بومدين، فهاجا وماجا.

طبعاً تجادلنا في هذا القتال المجنون بين الإخوان المسلمين والسلطة. وعندما قلت محاربة الإخوان المسلمين لا تكون بتدمير حماة، هاجا وماجا وما بقي إلا أن يصنفاني نصيراً لإخوان الشياطين. يقال إن حزب الدكتور مطر يقف مع الإخوان. ليتني أراه لأسمع منه الحقيقة.

ما دمت لم أسمع صوتك فلا عيد ولا...

٩ ـ هفاف: من يومية صباح الجمعة:

أيها اللغز الذي كلما أدركتك تلغزتَ: صباح الخير.

في هذه الأيام لا يفارقني سيدي ومولاي جبران خليل

جبران. آه لو تصلك رسالتي أو لو يمكنني أن أهاتفك لأطلب منك فقط هذا الطلب: لا تفارق نبيّ جبران هذه الأيام.

كما سنّ سيدي ومولاي، رغبتي الآن فقط أن يجرحني فهمي للحب.

كما سن سيدي ومولاي، رغبتي الآن فقط أن أذوب وأسيل كالغدير، أنشد للّيل لحنه. أنشد لك، أنشدك يا حبيبي.

هل تذكر أحاديثنا في الزواج؟ الآن امزجْها بحديث جبران، أي بحديث نبيّه، وسترى أننا، أنت وأنا، نتبادل الحب، ولا نجعل منه وثاقاً. على هذا تعاهدنا، وأنا الآن أجدد العهد. وأنت يا منيب؟

سنتزوج في يوم ليس ببعيد مهما بعد. ويومئذٍ نتقاسم الخبز، ولكن لا نأكل من رغيف واحد.

يومئذٍ نجعل في عيشنا المشترك فسحاً، لماذا؟ لكي ترقص الرياح بيننا.

يومئذٍ لن أفسد عزلتك، أنا أعرف كم تحبها، ولن تفسد عزلتي. أنت تعرف أنني لا أحبها، لكنك لن تفسدها. وهكذا نكون مثل أوتار العود. بين الوتر والوتر ربما سنة ضوئية، لكن الأوتار جميعاً ترتعش في لون واحد.

حبيبي.

١٠ - منيب: من يومية ٢٥-٤-١٩٨٣:

إذا كان إبليس سيتجسد في رجل، فسوف يتجسد في يعمر محمد. ولكن لماذا تؤبلسه؟ ماذا فعل الرجل إلا أن دعاك إلى السهرة في بيته، فأطعمك وأسكرك، وأمتعك بصحبة صديقته وأختها؟

لا تتشرف عليه ولا على واحدة منهما. كنت تعرف أنهما عاهرتان، وأن الرفيق نقيب المعلمين محسن كان سيحضر، فيكون له واحدة وليعمر واحدة، ولك: مع السلامة. افرقْنا.

لكن الرفيق طار مع من طار من الرفاق إلى حماة ليهيئوا للاحتفال بالنصر على الإخوان المسلمين. افرح بالاثنتين يا يعمر. لكن يعمر ليس أنانياً، لذلك دعا صديقه الأعذر. تفضل يا أستاذ منيب. من أقنعك بأن تكون هفاف أول امرأة في حياتك؟

لقد فعلتها إذاً.

هل ستصارح هفاف؟ وماذا لو رفضتْ أن تتزوج من رجل غير أعذر؟ هل تقبل أنت أن تتزوجها إذا لم تكن عذراء؟

١١ - منيب: من يومية رأس السنة:

لماذا لا يمكن أن يكون يعمر على حق؟ قد تكون أصابتني بالخصاء حتى معها. لا. لم أعد رجلاً منذ اختفت. أين أنت يا

هفاف؟ داخل سوريا مازلت أم نفذت وعيدك؟ ماذا سأفعل في سوريا بطولها وعرضها، إذا لم تكوني فيها؟ حتى في منامي ما عدت أرى امرأة. هل تظنين أنني أرى امرأة في الشارع أو في الثانوية أو في السينما أو في التلفزيون؟ أنا أعمى كما وصفني يعمر. قلت له سبب عمائي. أنا بحاجة إلى أن أتحدث عنك مع آخر. أنا أعمى إلا عنك. هل أنا أبله كما وصفني يعمر أيضاً؟ ما دمت أحبك فلأكن أبلهَ أو أعمى أو مخصياً. لا.. إلا هذه. ماذا ستفعلين بي إذاً؟

الآن تسوّل لي نفسي الأمّارة بالسوء أن أكرر ما ارتكبته، ولكن ليس مع عاهرة. كيلا تجديني مخصياً يجب أن أكرر خيانتي لك. لا، لن أخونك. أنت وحدك من نساء الكون من تعنيني. سأخون نفسي لو خنتك. فعلتها مرة ولن أكررها. ليتني أجرؤ على الاعتراف بين يديك وطلب الغفران. لو فعلت هل ستغفرين؟

لماذا أنغص هذه الليلة بهذا الكلام؟ كم سنة طوينا حتى الآن، ولم نحتفل معاً برأس السنة مرة واحدة؟

أنا الآن أناوش الأربعين. نسيت؟ ليكن أني أناوش الخمسين، وقد مضى على آخر لقاء لي بك عشرون سنة، ما همّ؟ ليس المهم ما مضى حتى لو كان أربعين سنة. المهم هو مازال

أمامي من العمر لأنتظرك فيه، وألقاك.

قبل أن تختفي كانت ذاكرتي مثل الذهب والآن لا أذكر ما قرأت أمس. وأمس أو من كم أمس قرأت لشاعر إنجليزي أنه في مثل هذا اليوم – رأس السنة – من العام الماضي كان في الرابعة والخمسين، وفي مثل هذا اليوم من العام القادم – رأس السنة – سيكون في الثانية والستين. أرأيت ما أروع وما أدق هذا الحساب؟ اللعين كأنه يحسب عمري في غيابك.

١٢ - هفاف: من رسالة من الشارقة بلا تاريخ ولم ترسل:

لا تزعل مني يا منيب. لم أترك يميناً إلا أقسمته على ألا أدير وجهي إلى سوريا ومن فيها مدى الحياة. ستقول: وأنا أيضاً يا هفاف؟ آه يا منيب.

الجرح الذي أصابني في بيت خالي لا شفاء له، لذلك كان حلفاني. ستقول: الزمن دواء لكل علّة. ستقول: النسيان نعمة، وكله صحيح، ولكن ليس الزمن وحده ما خفف عني، أما النسيان!!

كيف يمكن أن أنسى كل تلك البنادق؟ أو خالي؟ أو ذلك الصف من الرجال الذين درزهم الرصاص درزاً؟

ما ساعدني على أن أعود إلى الحياة ولو نسبياً هو مقامي

الجديد. نعم يا منيب، أنا كنت مثل الميتة، لكن الله أنعم علي وهداني بالمجيء إلى هذه البلاد. أشهد أني دخلتها ولا أعرف فيها أحداً. خلال عشرة أيام كنت قد تعاقدت مع وزارة التربية واستأجرت بيتاً من غرفتين وصالة يطل على البحيرة. لم أقل لك: أنا في الشارقة. مدينة أكبر من الرقة قليلاً، هادئة مثلها، بسيطة، لكن شتان بين هذا العمران وذاك العمران. من شهر إلى شهر- أعرف أنني قطعت السنة- صرت قادرة على أن أضحك. صرت قادرة على أن أفتح عيني وأرى هذه البلاد. رأيت دبي، رأيت أبو ظبي، خورفكان سأراها في العطلة القادمة.

أتعرف ماذا ينقصني في هذه البلاد؟ أنا طماعة كما لا تعرفني. ينقصني أنت، ينقصني الفرات، تنقصني الرقة، ولماذا لا أقول ما بدأ يحرقني في أعماقي؟ تنقصني حلب، تنقصني أمي وأبي وفواز وموسى. تنقصني روضة. ولكن لا تظن رغم كل ذلك أنني سأعود.

التقيت بسوريين وسوريات حالهم أسوأ من حالي، هذا من حلب وهذه من حماة. خصوصاً من حماة، هذا بلا أب وهذه بلا زوج وهذا بلا أخ وهذه بلا ابن.. صبايا وعجائز وشباب وهذا يكفر بسوريا وهذا طائفي حتى النخاع وهذا يحمد الله على كل أمر عسير. هذه تترحم على من ماتوا وهذه تترك الحساب ليوم الحساب وهذا يرجو الله أن يحمي سوريا وهذا يلعن أجداد

من كانوا السبب في كل ما جرى. ستسألني: ألم يصادفك أحد موّاله مع السلطة؟ طبعاً صادفت، ولكن همي في هؤلاء الذين يهون جرحي أمام جراحهم.

يا ويلي إذا لم تصلك هذه الرسالة. ستضطرني إلى أن أكلف روضة بأن تنكش سوريا شبراً شبراً حتى تعثر عليك.

حبيبي.

١٣ - منيب: من يومية بوعريريج ٢٥-١١:

ليس اختفاؤها غير التباس، سوء تفاهم، خطأ في التوقيت، أو سوء تقدير.

إن لم يكن كذلك فهل هو الموت؟ ولماذا تفكر فوراً بالموت؟ هل هو إذاً بتر ما بينك وبينها؟ وما هو الموت إن لم يكن هذا البتر؟

أنت أيضاً قد اختفيت. ماذا تسمي جريك خلف الإعارة إلى الجزائر؟ الأستاذ منيب معار من وزارة التربية السورية إلى وزارة التربية الجزائرية كي يدرّس في ثانوية بنات بوعريريج كما درّس في ثانوية خديجة، في جنة خديجة، في قلعة النساء، في حبس البنات: لا تنسَ، فكل ذلك كان للتو، كان بالأمس، كان منذ خمس عشرة سنة مثلاً، ولك أن تزيد أو

تنقص، فما عاد للزمن حساب بعدما اختفت هفاف.

بوعريريج إذاً.

بوعريريج اختارتك لتمسح منك الرقة. أنت اخترتها لتمسح منك هفاف. إلى المباراة إذاً. إلى المباراة من قبل أن تقلع الطائرة من دمشق، ومن قبل أن يصفر القطار منادياً: يللّه على بوعريريج.

هنا نهر سوف أسميه الفرات. وهذه هي عشبة العصما تتسلق الضفة، وهفاف تأكل ورقها وأغصانها وتهز رأسها وتضحك وتقول لك: مالحة، وأنت تهز رأسك وتضحك وتقول لها: مبروك عليك الإمساك. لا، لا تصدق أم فرحان ولا أبو لقمان: من منهما علمك سر العصما؟ لازلّ هنا ولا عاقول ولا شوفان. لا حويجة عتيق في سويداء النهر ولا حويجة رطلة، انس. لا حويجة هلالة بحبل سرتها إلى الضفة ولا حويجة النميصة ولا حويجة خس عجيل، انسَ. لا حويجة هلالة ولا حويجة الخاتونية ولا حويجة كحيط ولا.. انس. أنت لم تسكن يوماً في بيت أم فرحان. لم تعرف حارة العجيلي ولا حارة البكري ولا حارة البدو ولا حارة شل ولا المساكن الشعبية ولا... ما من محطة للقطار ولا سور ولا قصر للبنات ولا ضريح لِويس القرني ولا ضريح لعمار بن ياسر ولا لوابصة

ولا للنخعي ولا... ما من أوتيل للعم أرتين ولا هيام ولا مقصف ولا دكتور مطر ولا جابر الخليل ولا أمية ولا سعاد ولا زكية ولا هيفاء ولا سينما ولا عمارة المهاوش ولا سد للفرات ولا... ما من مكتبة للخابور ولا شارع للمنصور ولا شارع لـ ٢٣ شباط ولا موتوسيكلات ولا تريزينات ولا بيكآبات ولا حجيات ولا عشيرة تطلبك ولا عشيرة تقيم الأفراح سبعة أيام بلياليها ابتهاجاً بظهورك.

بممحاة ليس كمثلها ممحاة امح من دماغك ومن فؤادك. انس. مادام ليس في دنياك هفاف، انس. وإياك أن تسأل في دنيا من هي.

انس أن أوتيل نابليون قد جمعكما ليلة أو ثلاثاً في بيروت. صدر رخيم صدر هفاف؟ والنهد أكرة؟ النهدان أكرتان؟ انسَ. صوت مثل وميض؟ انس. لون خدين يرجف خائفاً من ظل؟ انس، وتعال إلى برج بوعريريج. تذوق النبيذ. خذ هذه السيجارة. حتى لسانك دعه يخاتل الفرنسية. وبدلاً من يعمر محمد في دمشق، هاهم حولك: حمدي ولخضر وأمين، وها هنّ.. لماذا لا تجرؤ على أن تسمي واحدة منهن؟ لا اسم لطالبة ولا اسم لزميلة، لماذا؟ ألأن كل الأسماء لهفاف؟ لكن هذه التي صرت تحلم بها بين ليلة وليلة ليست هفاف. هذه نصيرة. وجه

مثل السوسنة، مقلة مثل زهرة برية ضيعت اسمها أيضاً. يدان تعريشان على عنقك، وهذا سريرها. انثر عليه الصندل، وشدّها من غدائرها. مزّقْ غلالاتها غلالة غلالة وكن رجلاً. ولكن هذه ليست هفاف. ومادامت ليست هفاف فلا يمكنني أن أكون رجلاً. قد أكون ذكراً. سأكون ذكراً. لكن أن أكون رجلاً، يعني أن تعود هفاف من النسيان.

١٤ - منيب: من يومية بوعريريج، بلا تاريخ:

تتحسر نصيرة على أشجار التوت التي كانت تملأ بوعريريج: ساحات البيوت، البساتين، ضفاف الوديان كلها: واد الزعامشة، واد صليب، واد بومرقد.

من ارتكب مجزرة التوت إذاً؟ سألتُ نصيرة.

البيوت الجديدة والشوارع والساحات والجنون. البلدية جنت. الناس كلهم جنّوا: أجابتني، وتحسرت على ذكريات صباها تحت أشجار التوت العملاقة.

جذع التوتة الفتية مثل خصر نصيرة، وللغصن مثل طراوة ذراع نصيرة، وحبة التوت مثل شفة نصيرة، وأنا أتمرغ على مرج من التوت الشامي أمام غرفة يعمر في حيّ الطبالة، شهد التوتة الأسود يقطر لعاباً لنصيرة، وأنا أتوه بين بوعريريج

والشام، وأزداد تيهاً كلما صادفت مرجاً من التوت الأبيض، كأن حببَه نمش على عنق نصيرة.

عندما بدأ موسم التوت يودعني، صرت أحصي ما نجا من المجزرة أينما صادفت توتة هرمة، أو جذع توتة قد دفع بغصن في غفلة من جزار. ولولا أن صار المطر يحبسني بعد الثانوية في البيت، لما توقفت عن الإحصاء، بحثاً عن عزاء لنصيرة التي بدأ المطر يحبسها عني أيضاً.

هذا ليس بمطر يا نصيرة. هذا غضب من الله. حاشا لله يا منيب. قلت على الأقل هو غضب السماء. قالت: هذا رضا الله ورضا السماء. لكنه يصب صبّاً، كأنه يدلق البراميل والصهاريج، بل يفلت السدود. قلت: غرقت بوعريريج يا نصيرة. قالت: ماذا رأيت حتى الآن يا منيب؟

رأيت ما لم تريه وربما لن تريه يا نصيرة. رأيت الفرات يفيض في أول سهرة لي في المقصف. أين؟ في مدينتي. أين؟ في الرقة. الفرات نهر وليس وادي الزعامشة. الفرات نهر وليس وادي صليب ولا وادي بو مرقد، لكنهم حبسوه بالسد. قبل أن آتي إلى هنا كان قد ملأ البحيرة، وما عاد يخشاه على طول مجراه حتى الأطفال.

انتظر إذاً يا منيب. مازلنا في الخريف. ما تراه فيضان الخريف في بوعريريج. ماذا ستقول في فيضان الشتاء؟

لو أن الفرات يخترق الرقة كما يخترق وادي الزعامشة هذه المدينة. لو أن للرقة مثل جبل معاضيد ومثل غابة بو مرقد ومثل.. مثل ماذا يا أستاذ؟

ليس للرقة مثيل. ليس للفرات مثيل. وليس لهفاف مثيل.

١٥ - منيب: من يومية في بوعريريج، بلا تاريخ:

لن أجرؤ على أن أخاطبها، حتى عندما أكتب ما لن تقرأه، حتى عندما أكتب لنفسي.

نصيرة لا تقف بيني وبين هفاف. لولا أني أرى هفاف في نصيرة ما كنت لأنظر إليها مجرد نظرة.

ما هو ندّ الخال إن لم يكن هذا الذي يتوسط ذقن نصيرة؟

ليس لهفاف خال ولا ندّ الخال.

ما هو الحقف الذي فوقه خيزرانة إذا لم يكن قوام نصيرة؟

ما هو الكحل إذا لم يكن رموش نصيرة؟

لا حوّة إلا في شفتي نصيرة، أي في شفتي هفاف.

لا بنفسج يفوح من صدغ إلا صدغ نصيرة، أي من صدغي هفاف.

ليس من رواق لشفتين إلا شفتي نصيرة، أي شفتي هفاف.

ليس من ردفٍ رداحٍ ولا من قوام ليّن إلا ردف نصيرة وقوامها، أي ردف هفاف وقوامها.

وما من نمش تحت الإبطين إلا إبطي نصيرة، أي إبطي هفاف.

ما من زغب لنهدين إلا نهدي نصيرة، أي نهدي هفاف.

ما من أقحوان لكتفين إلا كتفي نصيرة، أي كتفي هفاف.

كذاب.

أنت تكذب يا منيب.

دعك من هفاف الآن. دعك من نصيرة ومن هفاف. دعك من بوعريريج وتعال إلى شلالات الرابطة. امض مع لخضر وأمين وحمدي ولعريبي، وتطهّر هاهنا في بركة الشلالات، بل في صميم الشلالات.

تطهّر في هذا الدغل، في هذا الهدير، في هذا الصوت المنسوج من طيور ومن شلالات.

تطهّر بهذه الميازيب التي تفجر الصخور كما فجّرك غياب هفاف أو غيابك أو ضياعها أو ضياعك.

كنت رقاوياً والآن أنت بريجياً مثل أي من هؤلاء البرايجة الذين يشتبك فيهم ثلج كانون وجليد شباط ورعود آذار والعربي والأمازيغي والتركي وأين هي الرقة إذاً؟

أين هي هفاف؟

١٦ - هفاف: من يومية في الشارقة بلا تاريخ:

الندم أصعب من الشوق والشوق أصعب من الندم والشوق والندم أهون من الأرق، والأرق أصعب من الكوابيس وحبة الليكزوتان أهون من كل شي.

لا نوم يا مسكينة. لا نوم يا منيب. اشتقت حتى للعجاج، هل تصدق؟ تحدثني جارتي عن الخماسين هنا وعن الغبار الذي ينفذ من العظام: أين هو؟ حتى لو جاء، فلن يكون مثل عجاج الرقة.

اشتقت لأن تدمع عيوني وينقطع نفسي ويضيق صدري. اشتقت إلى أن ألعق غبرة العجاج عن كتبي ومخدتي ومنديل أمي يا أمي. آه يا أمي. آه يا أبي. وأنت يا موسى يا ملعون. لماذا تنتظرون أن أتصل بكم ولا يكلف أحد منكم خاطره ويتصل بي؟ هل الاتصالات الدولية صعبة عندكم إلى هذا الحد؟ الحمد لله أني استطعت أن أتواصل مع فواز. سألبي دعوتك يا أخي هذا الصيف. سأطير إلى كريت وسأحمل بنتك وأطير بها إلى أم فواز.

هنا كل شيء يا منيب مرتب زيادة عن اللزوم. كل شيء نظيف وآخر حلاوة وآخر شياكة. حتى الوحيد الذي لم ييأس من مغازلتي ليس فيه طعجة. مثل الطقم المكوي، مثله مثل

المكيف لسائر الفصول. لا تغر يا منيب. طبعاً يغازلونني. وأنا أغازلهم؟ عيب عليك أن تسأل. لاتقلْ إنك راهب في غيابي. صدقتك.

اتركني منك ومنهم. الآن لا يهمني إلا أن أرى الفرات. الفرات مريض كما يقول لي أحياناً في منامي. مرض بالسد، نحل، ضعف، ومرات يقول لي: رجعت إلى شبابي. السد رجعني فتياً مثل موسى. كل يوم أرى الفرات في منامي يا منيب: في منام نهر من نعاس وفي منام نهر من قلق، وماذا أقول لك يا حبيبي أيضاً؟ نهر من أقمار ونهر من قُبل ونهر من جلال ونهر من رخاء وأنا يا حبيبي يلتّني الشوق لتّاً فلو عدت إلى سوريا هل ألقاك؟ إذا نقضت حلفاني ورجعت أين ألقاك؟

تعلمت قيادة السيارة واشتريت سيارة شيفروليه ليس في الرقة مثلها. سأسافر بها إلى الرقة. كيف؟ مثل كل المدرسين والموظفين و... سأكون المرأة الأولى التي تسافر بسيارتها من الشارقة إلى الرقة. تعلّم قيادة السيارة إلى أن نلتقي. في الرقة ستجلس إلى جانبي وأنا أقود السيارة. سأكون أول امرأة تجترح هذه المعجزة، ولكن هل ستكون فخوراً بي أم ستدير وجهك كلما صادفك واحد من أصدقائك؟ سيعيّرونك: يا حيف على هالزلمة اللي قاعد جنب مرته وهي تسوق فيه. لكني لست

امرأتك. من هي إذاً؟ الطامّة صارت طامّتين. صاحبته تسوق فيه وهو مثل...

حبيبي منيب: يلعن أبو السيارات. أنا أرفع رأسي بك اعتزازاً، وأنت؟

١٧ - منيب: من يومية في بوعريريج، بلا تاريخ:

كم صيف حتى الآن تركتك فيه نصيرة لرياح الشهيلي، وأسرعت إلى الشمس كي تدلك بها ثدييها وفخذيها، وبخاصة سرتها!

لن تستطيع أن تنادي بجّاية ولا أن تنادي المسيلة وأنت تنشبح من الشمال إلى الجنوب ومن الجنوب إلى الشمال.

لكأنكَ في الجهات الأربع لبوعريريج كما في فصولها الأربعة، تبحث عن نسب جديد، لا بتراً لنسبك القديم، ولا عوضاً، بل كي توصله، حتى إذا خرجت هفاف من الجبّ وجدتك ناطراً، وعندئذ هل تتوحد نصيرة وهفاف؟ أم أن نصيرة لم تكن يوماً نصيرة؟ فهفاف هي هي، وهفاف هي هنّ، وإن تكن الطريق إليها حتى عبر العاصمة قد صارت صراطاً ملغمّاً بالموت.

الموت.

الموت وحده بات الهواء والنوم والشراب والصلاة والدروس والسفر والحب والجنس وثانوية أو حي الشهيد بلعربي البعبوش وحيّ أو ثانوية السعيد زروقي وحيّ وثانوية الإخوة لوراك ومليون شهيد جاؤوا بالاستقلال وعشرة آلاف فوق خمسين ألفاً فوق مئة ألف شهيد حتى الآن سيجيئون بالخراب. وما كان في حماة إذاً ليس إلا مزحة. ما كان يا هفاف في حلب ليس إلا مزحة، ما كان في حي المشارقة ليس إلا مزحة، وخالك والمسلحان الفتيان والمسلح الأكبر والضابط والعساكر كلهم كانوا يمزحون، فالجد الجد هنا، ليس في بوعريريج الأكثر هدوءاً من الرقة حين قررتِ أن تنسي سوريا. وإذا كنت لا تصدقينني اسألي نسائم الفرات، أو تعالي إلى هنا واسألي نسائم الشيح والديس والحلفاء في المعاضيد. لكن الرقة الهادئة زمن حماة لم تصبح بين ليلة وضحاها عاصمة الإلكترونيك كما أصبحت بوعريريج.

هفاف: أنا قادم على هذا الصراط الملغّم من هنا إلى مطار الجزائر. وإذا لم تصل يا لهبل؟ سألتني نصيرة وهي تودعني. لو تعلمين بم أجبت!

١٨ - هفاف: من يومية في الشارقة بلا تاريخ:

لأول مرة أرى منيب في منامي في بهو ثانوية خديجة

فأدير ظهري له. أراه يمسكني بذراعي بقسوة فأنزع ذراعي منه وأصرخ به: ابعد عني. صرخت به: خاين. صرخت به: تركتني وحدي في الغربة بين الموت والحياة وهلّق شرّفت؟ خير؟ ماذا تريد مني؟ ابعد.

أعوذ بالله من شر غاسق إذا وقب. ما هذا المنام؟

١٩ - منيب، من يومية في بوعريريج قبيل مغادرته لها:

لعريبي يهتف: الله ينصر الجيش على القوم الكافرين.

حمدي حمل السلاح مع من حملوه والجيش يدربهم للدفاع عن المدينة التي لا تزال هادئة.

أمين اختفى، وسأكذب عيني لو رأيته أرخى لحيته وحمل السلاح. أمين لم يخف ميله إلى ألفيس يوماً، وقبل اختفائه بشهور ما عاد على لسانه إلا شعار جبهة الإنقاذ: الإسلام هو الحل. لكنه لايمكن أن يقتل ذبابة.

كم سألت نفسي عن الفرق بين الطليعة المقاتلة للإخوان المسلمين في حماة وبين من يقاتلون في هذه الجبال كما قاتل آباؤهم فرنسا في الجبال نفسها؟

عندما كتبت إلى يعمر هذا السؤال أجابني: الإخوان المسلمون هم الإخوان المسلمون، في سوريا في الجزائر في

جزر الـواق واق، لا فـرق، ولا فرق بين المسلح منهم وغير المسلح. غير المسلح اليوم هـو المسلح غداً، وقد يكون المسلح اليوم هـو غير المسلح بعد غد إذا ظل حياً وانهزم وشاخ، فمتى تجتمع هذه الشروط الثلاثة؟ وأين؟

يعمر صـار يميل إلى المبـالغـات منذ صعد بسرعة صـاروخية فـور تخرجه أخـيـراً في الجـامعة، وقبل أن ينـهي الخدمة الإلزامية. مـاذا تتوقـع من الحـاكم بـأمره في شركة المغازل والمنـاسج: هكذا يسمـي نفسـه، ولست من سمّـاه. وعلى كل حـال، سواء كـان يبالـغ فيمـا كتبـه عن الطليعة المقـاتلـة وعن الإخوان المسلمين، أم لا، فـأنـا ضد قيام الأحـزاب أو الـجمعيات على أسـاس دينـي، وبـالتـالي على أسـاس طـائفي أو مذهـبي. مـاذا سيكون حـال سوريـا لو قـام فيـهـا حزب الإخوان المسيحيين وحـزب الإخـوان الدروز وحـزب الإخـوان العلويين وهـلم جرّا؟

من دون أن يكتب لي يعمر مستنكراً أن ينقلب الشيوعي إلى إخوان مسلمين، كنت أكبر منـه استنكـاراً لـهذه المـوضـة التـي راجت بعد انتصـار ثورة الـخميني في إيران وبعد سقوط الاتحـاد السوفيـاتـي. الشـاطر الآن صـار يهتف بسقوط الأيديولوجيـات كـأن الثورة الإيرانـيـة ليست أيديولوجية، أو كـأن مـا يـجري فـي أفغـانستـان لا علاقـة لـه بـالأيديولوجيـة.

يجب أن أعود إلى سوريـا. إذا كـانت بـوعريريج اليوم هـادئـة

فمن يعلم متى يصل قطع الرؤوس إليها؟

نصيرة الآن تتنعم بثلج باريس وأنا أشقى بعدها بثلج بوعريريج. يوم ودعتني بكت كثيراً وضحكت كثيراً. كرعت النبيذ كرعاً ورقصت حتى عرقت كأن الزمهرير شومينيه. تعرت وفتحت الباب وتعاركنا حتى أغلقته ورأيت كيف تكون ضراوة النهدين وكيف تكون ضراوة الساقين. قالت كأنها تعتذر عن سفرها: أنا مرعوبة من أن يسبوني إلى الجبال وأصير جارية أمير الجماعة وعاهرة شيخها. رفضت نصيرة أن تتحجب وأن تتنقب كما فعلت طالبات كثيرات وزميلات لي أيضاً. بالكاد صرت ترى سافرة في الشارع. مع السلامة يا نصيرة. سأعود إلى سوريا وسيضيع واحدنا الآخر، فلا رسالة ولا هاتف ولا إيميل، كحالي مع هفاف.

هفاف التي لم أعد أجرؤ على أن أذكر اسمها في الأيام الأخيرة قبل سفر نصيرة. والآن؟

٢٠ - هفاف: من يوميات في الشارقة بلا تاريخ:

إذا ما جمعنا الفرات، وسوف يجمعنا، فسنسبح معاً. سنتدثر بالليل في وضح النهار ونسبح. وفي وضح الليل سأدثرك بي وستدثرني بك، لنسبح. أنا الآن أسبح في خورفكان. أنا لا أسبح. أنا مسحورة.

أنا مريضة... لم تهد الدورة حيلي من يوم بلغت كما تهدني من أول الصيف.

راح وجع الدورة مع الصيف وبدأ الصداع مع افتتاح المدارس. صباحاً يكون خفيفاً. قبل أن تنتهي الدروس يكاد رأسي أن ينفجر.

الدكتورة إيلين لا تشبه إلا المحقق الذي يتحدث عنه الكتّاب في الروايات البوليسية:

ضغطك مضطرب؟

لا أعرف.

لا تفارقي جهاز الضغط. سأعلمك كيف تستخدمينه، وراقبي ضغطك.

ضغطك منتظم يا سلام. إلى طبيب العيون الآن، فعنده الخبر اليقين.

بصرك حديد يا سلام. إلى طبيب الأسنان.

أسناني سليمة مئة بالمئة يا دكتورة. إذاً إلى طبيبة أمراض نسائية: الدورة.

الدورة انتظمت يا دكتورة. إذاً: المناخ. من سوريا إلى هنا تبدل المناخ عليك.

ولكن أنا هنا من سنوات يا دكتورة.

لم يبقِ إلا انشغال البال. هذه المرة أنا شخّصت سبب

صداعي: أنـتَ، ووصفت الـدواء: راحـة البـال. ولكن في أية صيدلية أجدهـا؟

في الرقة فقط يـا منيب.

صحبة ربيع سمانة تخففُ عني كثيراً، لمـاذا لا أعترف؟ بدأت أتعود عليه. بدأت أبـادره فـأتصل بـه وأدعوه إلى مشوار في دبي: ساعة في مول، ساعتـان في مطعم. يدعوني ربيع إلى غداء يوم الجمعة في الفجيرة، أو إلى عشاء في المطاعم التي يعشقهـا في دبـي: مرة التركي ومرة الإيراني ومرة اليابـاني وكلهـا شرقية. أنـا دعوتـه إلى المطعم اليونـاني. أريد أن أعرف مـاذا يـأكل أخي فواز في جزيرة كريت.

لن أحدث منيب عن ربيع. ولكن لمـاذا؟ من جهتي: لا غرام ولا هيـام بيني وبين ربيع. إذا كـان هو يلمح بكل أدب فهذا شأنـه. كرمى لي صـار متخصصاً في الغنـاء العراقي والأردنـي. لمـاذا؟ لأنـه الأقرب إلى لهجتك الرقـاوية يا هفـاف.

وكرمـى لـي صـار متخصصاً فـي الأفـلام السينمائية المـأخوذة عن روايـات. أحيـانـاً أقول لنفسي: نسيت الغزل يـا هفـاف بعد فراق منيب. خصوصـاً بعد اختفـائـه.

روضة يـا روضة...

حـاولي من جديد أن تقعي على أثر لمنيب. أنـا لا أعرف أحداً من أصدقـائه ولا من أقربـائه، ولكن لو كنت في سوريـا لمـا

تركت فيها باباً إلا خبطت عليه: منيب عندكم يا ناس؟

حتى في هذه التي يسمونها أحلام اليقظة، ما عدت أرى نفسي مع منيب إلا في شجار. لست أنا من اختفت. هو من اختفى. الله والنبي معك يا حبيبي.

اختفِ كما يحلو لك، ولكن عندما تظهر لن ترى هفاف التي كنت تعرفها. لماذا تظن أنك الرجل الوحيد في العالم؟ لماذا تظن أن هفاف لا ترى في الدنيا رجلاً سواك؟ غداً سأعرفك على ربيع سمانة، ليس لأني عشقته، بل لأني ما عدت أطيق صبراً عليك. أحياناً صرت أكره نفسي، وإذا كنا سنبقى هكذا كل واحد في صحراء فلن أنساك فقط، بل سأكرهك. سأكره ربيع سمانة. سأكره كل رجل في العالم.

ربيع أكبر جرأة منكَ، ولكن أنا الباردة. لا تفرح. لست باردة بسبب فراقك. لن أظل باردة. صرت أقشعر إذا ما مسحت أصابع ربيع على ساعدي. في المرة الأولى لم أحس به، ولا في المرة الثانية. لم أنتبه. عندما نمّل جلدي احترت ماذا أفعل. أريد أن أسحب ساعدي ولكني لم أستطع. حرن ساعدي، لا يريد أن ينسحب. أنا من طلب المرة الثالثة أو الرابعة، «ليشْ لأ»؟ أنا عطشانة. أحسست بريقي قد جف، بلعومي نشف. ربيع يبل الريق. أصابعه تغلغلت في ذراعي. نظراته أرجفت ساقيّ. أنا أريدك يا ربيع. أشتهيك يا ربيع. لم أعرف هذا الإحساس مع

منيب، لماذا؟ ترى لأن ربيع محرم علي ومنيب هو حلالي؟ انتظر يا ربيع. سأتحرر من منيب. سأكتب إلى روضة عن كل هذا الشواش الذي صرت فيه.

٢١ - من يومية منيب في بوعريريج فجر مغادرته لها:

إذا كان أمين على رأس من هاجموا الحاجز الذي كان حمدي من عناصره، وفي الهجوم قُتِل حمدي، فماذا يبقيني في بوعريريج؟

كان حمدي يحرس المدينة، وأمين لا يقتله بالرصاص، أو لا يكتفي بالرصاص لقتله، بل يقطع رأسه، أو يأمر يقطع رأسه. من يعرف ما الذي جرى؟ لا حقيقة في هذه البلاد إلا القتل، فما الذي يبقيني فيها يوماً آخر؟

انج سعد فقد هلك سعيد، و«الهريبة تلتين المرجلة» كما كان أبوك يردد مبرراً هربه من القنيطرة قبل أن يصل إليها الإسرائيليون.

انج برأسك يا منيب، فها هو لعريبي على فراش الموت منذ ستة وعشرين يوماً، بعد ما ثقب الرصاص بطنه حتى جعله كالغربال. أي جنون قذفك يا لعريبي إلى شلالات الرابطة في هذه الأيام؟ هل غرّك الهدوء في بوعريريج؟ ومن تبقى لك يا منيب في هذه البلاد؟ حتى نصيرة صمتت أو اختفت مثل

هفاف. أمين في الجبال. حمدي ينتظر رأسه على الحاجز. الموت يرتق للعريبي بطنه. ما بقي غير لخضر الذي يبدو أكبر نحولاً وشحوباً منك كما تبدو أكبر منه تيهاً. وداعاً يالخضرْ. وداعاً يا بوعريريج. وداعاً يا الجزائر.

٢٢ - من يومية هفاف في دبي بلا تاريخ:

كم أنا سعيدة بعملي الجديد وبمسكني الجديد في دبي.

كم أنا سعيدة بالمسافة التي وفرتها لي دبي، بعيداً عن ربيع وقريباً منه. حزّورة؟

كم أنا سعيدة بالكمبيوتر!

كم أنا سعيدة بالإنترنت!

فواز في بحر كريت وأنا هنا صرنا كأننا في بيت واحد، أو على الأقل في بلد واحد. صرنا كأننا في بيتنا في عمارة مهاوش، أو على الأقل كأننا في الرقة.

ومنيب؟

يجب أن يعثر أحدنا على الآخر بفضل الكمبيوتر والإنترنت. عليه هو أن يسعى. وإذا لم يفعل؟

٢٣ - من يوميات منيب في دمشق بلا تاريخ:

من الذي تبدل على الآخر: أنتَ أم دمشق؟

لن تنسى قهقهة هيام عندما رأتك في كافتيريا أوتيل الشام. صحيح أنها عانقتك، بل عصرتك عناقاً، ولكنها أشبعتك هزءاً: أين ذهبت بشعرك؟ ألا زلت سريعاً وهشاً كما كنت في الرقة؟ حتى خدك صار حفرة يامسكين!

أنت لم تر هيام الآن أو هيام الدمشقية. أنت رأيت هيام الرقة. ولم تر يعمر الآن، بل يعمر بانياس ويعمر عشرين سنة مضت، وليس يعمر الذي تضاعف وزنه واستبدل السيجارة بالسيجار، كما استبدل المدير العام بمعاون الوزير وقريباً إن شاء الله: وزير. والرفيق محسن يا يعمر؟

الرفيق محسن مثلك صديقي منيب، دقّة قديمة. رحْ ابحث عنه في قريته تجده يلعب المنقلة مع المرحوم والده.

يعمر ابن الكومبيوتر والإنترنت وجمعية المعلوماتية والعولمة والحداثة وجيل الشباب القادم الذي لن يرث الماضي ولا الحاضر، بل سيرث المستقبل.

كأن دمشق بدأت تعتم في النهار. أنا وحيد في هذه المدينة. الوزارة قذفتني إلى مديرية التربية في ريف دمشق، والمديرية قذفتني إلى ثانوية جوبر. بعد عشرين سنة من التدريس ليس لك مكان في ثانويات المدينة. كأنك في يومك الأول في الوظيفة: إلى السبخة، والرفيق محسن لن ينفعك هذه المرة. كأن نهار دمشق صار مثل ليلها. أنت وحيد في الثانوية، وحيد

في الشقة، وحيد في مسرح القباني وفي سينما الكندي وفي الصالحية وفي مكتبة الأسد، وحيد في مقهى الهافانا وفي كنيس جوبر وفي بساتينها وفي بيت شقيقك العقيد الطيار حسيب الذي هجر بانياس، كما هجرتها، لكنه انتسب إلى دمشق كما انتسبت إلى الرقة، الرقة.. جرحك الفاغر.

لا أثر للرقة في دمشق.

لا أثر للرقة في سوريا.

لا أثر لهفاف.

وأنت أيضاً بلا أثر.

في مركز تصحيح البكالوريا في ثانوية جودت الهاشمي فاجأتني أمية بسفورها. ولو لم تبادر هي وتسلّم وتذكرني بأمية المحجبة، ما كنت عرفتها. وددت أن أقول لها: هكذا أنت أحلى، لكنني خفت من غضبها، ورجح لديّ أنها كانت بالحجاب أحلى. على الأقل كانت أصغر بربع قرن.

هل تزوجتْ؟ أيضاً لم أجرؤ على السؤال. وبحثت عن علامة فلم أجد، لا في أصابع اليمين ولا في أصابع اليسار، لذلك رحت أبحث عن علائم العنوسة في وجهها أو ظاهر كفها، حتى في صوتها وأسنانها، ولم أجد علامة.

سألتها عن حجر البهت فضحكت وقالت إنها مشغولة هذه

الأيام بحجر العقاب.

وما هو حجر العقاب يا أمية؟

هو الألماس.

نورّيني يا أمية.

هل تعرف فرخ العقاب؟

ولا أعرف العقاب.

ضحكتْ وانشرحتُ لضحكتها، ولما بدأت تحكي وددت لو أنني ألبد في حضن الحكاية، أقصد في حضنها، وهي تضع على وكر العقاب لوح الزجاج ليرى فرخه دون أن يصل إليه، فيذهب العقاب إلى حيث الألماس ويجيء بحباته وحبيباته، ويضعها على اللوح. وكلما صارت ملء ملعقة الدواء، ترفع لوح الزجاج يا أستاذ منيب وتأخذ ما عليه، وهكذا حتى يصير معك ما يكفي لعقد، أم تريد أكثر؟

نظرت إلى عنقها فوجدته عارياً، فتمتمت بأغنية نجاة الصغيرة: املالي القناني محبة، فعقدت حاجبيها وكشرت للحظة كانت كافية لألعن لساني الطويل. لكنها ابتسمت وحنّ صوتها: سقى الله أيام الرقة. فعدت إلى عراء عنقها، ووددت لو أن الحكاية تعطيني عقداً من الألماس لأطوق به هذا العنق الناعم الطويل الأبيض. وكانت أصابع أمية تتلمسه، وحيرتني

نظراتها بين الرضى والغضب، ولما طال ذلك خفت فسألتها عمن ترى من زميلات ثانوية خديجة، فقالت: حياة دائماً، وسعاد أحياناً، حياة معنا هنا، وسعاد تحصل كل سنة على إعفاء من التصحيح.

في استراحة الغداء جاءت أمية وحياة، واقترحتُ أن نتناول الغداء معاً، فقادتنا أمية إلى مطعم زنوبيا القريب في بناية المهندسين.

حجاب حياة تضاعف حتى كاد أن يكون نقاباً. وأنا أجزم أنها هي أيضاً لم تتزوج. وهيفاء كانت على حق إذاً عندما وصفت مدرسات ثانوية خديجة بالعوانس.

سألت حياة ممازحاً ما أخبار ملكة الحيّات؟ فأسرعت أمية تحكي حكاية حياة: ذو القرنين ووادي الألماس والحيّات فيه تميت من ينظر إليها، لذلك أمر ذو القرنين بمرآة هائلة، وخلفها استتر جنوده، فلما رأت الحيّات نفسها في المرآة ماتت، وتقدم الجنود إلى الألماس، وضحكتُ كما ضحكت أمية، لكن حياة لا تضحك.

بسملت حياة وبسملت أمية قبل أن تبدأا الطعام. ولأنني لم أبسمل لامتني حياة.

وعندما انتهيت من الطعام، ولم أحمد الله حذرتني من

غضب الله، فالله إذا غضب نادى: يا مالك: سعر سعر، فيغضب مالك، ويبعث سحابة سوداء تُظِلُّ أهل النار كلهم. هم يرجون أن يمطرهم الله الماء البارد ويستغيثون: واعطشاه، واطول هوناه، فيمطرهم سبحانه وتعالى بحجارة وكلاليب وخطاطيف وغِسْلين وديدان، حتى إذا تعرت العظام من اللحوم تضاعف غضب الله ونادى: يا مالك، اسجرها عليهم كالحطب في النار و..

قاطعتها مستجيراً: يكفي يا حياة، التوبة يا حياة، وضحكت أمية. وقالت: حياة من أبرز الداعيات. وسألت: ما الداعية؟ فعبست حياة وقالت: من يحاول أو تحاول هداية الضالّين.

أحمد الله على أن ذلك الغداء جاء قبل انتهاء التصحيح بيومين، تحاشيت خلالهما أن أرى حياة، ويبدو أنها هي قد تحاشتني أيضاً، كما ألمحت أمية.

أمية دافئة وحنونة. ولكي لا نترك لقاءنا للمصادفات أعطتني رقم هاتفها. متى سيكون لي رقم هاتف؟

النهار طويل والليل أطول. عدت إلى عادة المشي الصباحي في جوبر، تحت ظلال أشجار الجوز العملاقة. في الذهاب وفي الإياب أعبر بالكنيس.

أحياناً أعبر بالثانوية. أحياناً أقرأ. أحياناً أفكر بالذهاب

إلى الرقة وليكن ما يكون.

عندما هاتفت أمية أول مرة غردت مثل يمامة. بعد انتهاء المكالمة صحوت على أنها دعتني إلى رحلة إلى دير مار موسى، وإلى أني وافقت، وسيكون عليّ إذاً أن أوافيها إلى ساحة العباسيين يوم الخميس في الثامنة صباحاً.

لا تتأخر– أمرت اليمامة – واحسبْ حسابك أنك ستنام في الدير، والطقس بارد هناك في عز الصيف.

أنا الخاضع لمشيئتك، لن أسأل عن سر اختيارك للرحلة وللدير حتى تنطلق الرحلة في الباص الصغير الفاخر، ويحترّ جنبي الملاصق لجنبك.

إنه الأب باولو دالوليو إذاً. قلت: ها هي دروبنا تتقاطع يا صديقي من جديد، فتزينت بالابتسامة العريضة وبالمباهاة دهشةُ أمية من أنني وباولو صديقان. وتصغي لنا مثل طفل يصغي إلى حكاية.

هو: رسموني راهباً، طردوني لأنني عاشق الإسلام، ثم أعادوني، وحصلت على الدكتوراه.

أنت: وما الذي جاء بالدكتور باولو دالوليو إلى هذا القفر؟

هو لأمية: أمية ستجيب بدلاً مني، كي أتفرغ لغيرك.

ولما بدأت أمية تحكي وددت لو أني ألبد في حضن

الحكاية، أقصد في حضنها وهي تعد خطوات باولو في هذا الوعر إلى أن يكتشف هذا الدير السرياني الكاثوليكي المجهول المختبئ هنا منذ قرون.

فتن الدير باولو كما فتن ابن ملك الحبشة الذي ساح كما ساح السلطان إبراهيم ويعيد باولو الحكاية كلما التقته أمية التي حملتها إليه رحلة مثل هذه الرحلة قبل سنوات.

بعد قليل يبدأ باولو وأمية يتناوبان الحكاية فيما تبقى من النهار البارد وفي الليل الصقيعي: كيف تقضي الشتاء هنا يا باولو؟ النبك قريبة، وأنا في قلب القلمون، والمدفأة الحديدية أفضل من أفضل «شومينيه». أقسمت في سري: إذا قدر الله لي أن أعود إلى الرقة فسأحضر لك فروة ستدفئك أكثر من المدفأة القلمونية. وحكت أمية أن كثيرين وكثيرات تطوعوا لمساعدة باولو في ترميم الدير، وحكت أنه أسس جماعة الخليل التي تصلي بالعربية، وسترى وتسمع في المساء. وفي المساء أطلق الجرس أنغامه وسط الكتل الصخرية العارية الهائلة، وخلف أقواس النوافذ المتطاولة، وقضبانها وزجاجها، وأقبل باولو يرفل بمهرجان أرديته.

اخلع حذاءك يا منيب. هل تريد أن تصلي كمسلم؟ صلّ إذاً هنا داخل الكنيسة. هذه هي القبلة. باولو ترك هذا

الجدار عارياً ليكون لك، ولغيرك الجدران الثلاثة التي تتبختر بلوحاتها وسجادها.

قلت: اخلعي حذاءك يا أمية. واغرقي في صمتك كأنك واحدة من هؤلاء الراهبات اللواتي يصلين بلا نأمة. قالت: هكذا أفعل كلما زرت الدير.

لماذا فصل النوم بيننا يا أمية؟ ستقول: لماذا لا يفصل؟ سأبدل في السؤال: لماذا فصل الدير بيننا؟ ستقول: بل على العكس، هو ما جمع بيننا.

قبل أن يودعني باولو قال: أنت لست متعباً. أنت منهك. كثيرون وكثيرات يأتون إلى هنا أكبر إنهاكاً منك، ويقضون أياماً كأنهم في نقاهة. نقاهة روحية أقصد. تعال في أي وقت.

ذهب باولو وتركني لهذا الليل يفتح أشداقه على الجرف الأكبر بين جروف هذا الجبل. سنهوي في هذه الهاوية التي بلا قرار أنا وأنت يا باولو، وأنت يا أمية، وهذا الدير، وهذه المغائر، وهذا القلب الذي سينفطر لو ظل يخفق وحيداً هكذا.

هذا الليل الذي يجعلني مبتدأه وأنا أنشد أن أكون منتهاه، فيجعلني منتهاه وأنا أنشد أن أكون مبتدأه، فيصير الفجر أوله والغروب آخره. هذا الليل الذي يهتف بي: هفاف، ويطويني بين أضلاعه، فأُسْلِم روحي إلى الموت، وأترك جسدي يطير، يطير، يطير إلى أن يبلغ الفرات. يا فرات، يا فرات: أين هفاف؟

٢٤ - من يومية منيب في الرقة، بلا تاريخ:

أنا في أوتيل الرشيد نفسه، لكن أرتين لم يعد أرتين، كما أن الرقة كلها لم تعد الرقة. ما عدت قادراً على المشي فيها، وما عدت قادراً على السماع. زحام وصخب وهذه ليست جنة خديجة ولا قلعة النساء ولا حبس النساء.

هذا ليس بيت أم فرحان، وهذا ليس فرحان الذي لم يقل لي تفضل بعد ما رجوته أن أرى غرفتي، وبعدما قال: أم فرحان ماتت وأبو فرحان مات كأنه يتحدث عن غريبين!

حول سور ثانوية الرشيد طفتُ وعيناي معلقتان على ذؤابات أشجار الكينا التي أربت على الطابق الثاني. سأطوف سبعاً حول كل ركن من ذلك الماضي السحيق الذي يهوي قلبي في قيعانه. سأظل أطوف طوال الليل، إذ لن أجرؤ على الظهور في النهار. لكن مكتبة الخابور قطعت عليّ طوافي. وقال أبو يوسف: صاحبك الدكتور مطر اهترأت عظامه في السجن. قلت: سمعت، قال: وصاحبك جابر الخليل، هل رأيته؟ قلت: خذني إليه.

وقادني أبو يوسف إلى بيت جابر الخليل، فانقدت فقط لأسأله عما جعله يطلب هفاف للزواج. لكنني خرست لأن جابر الخليل لم يعد هو جابر الخليل. خطوط جبهته قد تضاعفت وتعمقت، وعندما استنكرتها أمرتني أن أنظر إلى جبهتي في

المرآة. أجفان جابر تهدلت، وعندما استنكرتها توعدتني: عما قليل سترى أجفانك. صوت جابر وحده لم يتبدل إلا عندما ترحّم على أبيه وقال: وحده ظل يتابع قضيتك مع غرمائك وغرماء والدك. وقد كلفني قبل وفاته بسنة أو أكثر بأن أنقل إليك أن بوسعك أن تعود إلى الرقة، وعفا الله عما مضى، لكنني لم أعرف إليك سبيلاً. أين كنت في كل هذه السنين؟

انتفضت وضحكت وبكيت وصحت وخرست وفرحت وخفت وناديت خلف الحسن وحسين الخلف: أبي يا أبي، سأصحح اسمك واسمي وسأنقل رفاتك إلى هنا. وستذهب يا أبي أنت وأبو جابر إلى عمارة المهاوش، الطابق الثالث، بيت أبو فواز العايد، لتطلبوا يد هفاف لابننا الأستاذ منيب، ولكن أين هي هفاف؟

أسالَ السؤال لعابي عسلاً، ورحت أتقافز مع كلمات جابر وأبو يوسف: صار للمحافظة قصر ما كان لهارون الرشيد ولا لهشام بن عبد الملك أن يحلما به.

سأراه غداً.

شيدت إيران لعمار بن ياسر مقاماً ما كان لصحابي أن يحلم به.

سأراه غداً.

صاحبك عبد العفيف غنام يقبض بيد على سد الفرات وبيد على حوض الفرات.

سأراه غداً.

ألم تتزوج؟ سألني جابر فقلت له في سري: أنتظر هفاف. حذرني من الرهبنة وسألني: هل ستعود إلى الرقة؟ قلت في سري: الجواب عند هفاف. قال أبو يوسف: الرقة لم تعد تُطاق، المدينة كبرت.

وقال جابر: الأغراب بلعوها. حتى الفرات ما عاد هو الفرات.

ظننت أن أخي حسيب هو الذي رأيته ينوح الخميس الماضي: دمشق كبرت والأغراب بلعوها، حتى بردى ما عاد بردى. ذكّرت حسيب أنه ليس دمشقياً، والآن بماذا سأذكّر جابر الذي يدعوني إلى أن أصلي صلاة الجمعة غداً معه ومع أبو يوسف في الجامع العتيق؟

لم أجبه فسألني ساخراً: مازلت لا تصلّي؟ فسألت نفسي عما تبدل في جابر، وبعدما عدت إلى الأوتيل تحركت شكوكي في أن تكون صِلاته بالإخوان المسلمين قد تجددت. لكنني خجلت من شكوكي، على الأقل لما لمست خلال ما مضى على عودتي من الجزائر من هشاشة أو موت أو تفسخ الحياة

السياسية هنا إلا أن يكون أحدٌ أخذ ينشط في السر، فهل يفعلها جابر؟

أدرت ظهري للسؤال ورحت أرسم ما سأفعله غداً الجمعة، قبل الصلاة، بل بعد الصلاة، فقد يكون أبو فواز يصلي الجمعة، فيدعوني إليها لو بكرت. ولكن ما لي وله؟ أنا ذاهب فقط لأعرف أين هي هفاف، لذلك سأقصد بيت روضة أولاً، ثم، لكل حادث حديث.

فصول من: ربيع أبيض.. ربيع أسود

١. الأصابع
٢. ليلة رأس السنة
٣. نصال
٤. مثل النحلة
٥. ديسك
٦. الدُّوَار يهزج: هدهدْ همومك عندي
٧. نفسك دنيّة وزادْ طبعي أكشرْ
٨. الشيخ جابر الخليل
٩. هفاف الصباح
١٠. يُروى أن..
١١. يمامة اسمها أمية
١٢. مثل القمر
١٣. قاشوش الفرات
١٤. باولو
١٥. ليل هفاف
١٦. أسرة
١٧. أين هو عبد العفيف غنام؟
١٨. قارو
١٩. يجر خطاه

الأصابع

لم تشتبك أصابعهما منذ تلك العشية التي تلونت بأضواء دوّار النعيم، مثلما تلونت النافورة، حتى هذا المساء.

كانت هفاف قد اقترحت – بالأحرى أمرت – أن يحتفلا بعيد الحب في الشوارع، على الرغم من البرد الذي تضاعف منذ بداية الأسبوع، وسرعان ما راح يؤبّر خدي هفاف ويلوّن شعرها العاري برذاذ الثلج، بينما يحمي منيب رأسه بالقبعة الصوفية التي حملتها له من الشارقة منذ أكثر من عشر سنوات.

تراءى لمنيب أن أصابع هفاف قد ازدادت نحولاً خلال هذه الشهور الطويلة التي فرقت بين أصابعهما. ولما تمسحت أصابعه بأصابعها تراءى له أنها جميعاً كانت في صميم الشتاء، في عيد الحب، أكبر منها دفئاً الآن في تشرين الأول.

ولأن ذلك أثقل عليه الصمتَ الذي لم يخرشه أحدهما بكلمة منذ اجتازا باب الحديقة، قال:

– بكّر علينا الشتاء.

فقالت وهي تلاعب أصابعه:

– العجائز وحدها تقول ذلك. لم ينتصف الخريف بعد.

وسرقت أصابعها، وانحرفت لتقابل البجعتين القادمتين، وتخاطبهما بما لم يسمعه، إذ كان قد التصق بالسياج ليفسح للصبيين اللذين يتسابقان. ولما عادت هفاف إليه سألت:

– هل كنت تحلم أن ترى في الرقة حديقة حيوانات؟

ولم تنتظر جوابه، إذ قبضت على ذراعه ودفعته أمامها نحو الغزالة مترنمة: يا ريم وادي ثقيف.

في سرّه تابع الأغنية. وحين اقتربت الغزالة من السياج توقف ليرى ما بينها وبين هفاف من شبه. ثم توقف ليقسم في سره أن هفاف أجمل، وتعمّد أن يتبعها بصمت، متأخراً خطوة، ليتأمل قوامها وهي تنتقل من النعامة إلى الثعلب فالقرد فالذئب فالتمساح: طفلة، أقسم بالله أنك طفلة، وهذه المرة جهر بالقسم فجازته بضحكة وبعودة أصابعها إلى أصابعه.

لكنّ الأصابع افترقت من جديد إلى أقل من شهرين، حين أضرم معمر بوعزيزي النار في الفضاء العربي، وليس في جسده أو في تونس وحسب. وفي غمرة ذلك أسرع منيب وهفاف إلى افتتاح مهرجان عبد السلام العجيلي السادس للرواية العربية. وظلت أصابعهما تشتبك خلال سهرات أيام المهرجان الثلاثة، وكلما سنحت غفلة من الجميع أثناء

جلسات المهرجان النهارية.

في افتتاح المهرجان أحس منيب بالغربة، فلجأت أصابعه إلى أصابع هفاف. ومن جلسة إلى جلسة، ومن سهرة إلى سهرة، تبددت غربة منيب، ولم يُخفِ على هفاف ندمه على انصرافه منذ خرج من السجن، ليس عن مهرجان العجيلي فقط، ولا عن عروض فرقة الفنون الشعبية التي افتتحت المهرجان، بل عن المحاضرات والندوات والمعارض التشكيلية، مكتفياً بنتفٍ من أخبارها التلفزيونية.

كانت هفاف في الاستراحات تتنقل من مجموعة إلى أخرى في البهو الفسيح، تنثر التحيات وتتلقاها، وتهمس أحياناً لمنيب بأسماء من (وِلْد الرقة)، وكانت سعادته تكبر حين يصادف من عرفه صغيراً، أو عرفها صغيرة.

وفي الجلسة الختامية جلست هفاف في الصف الأول بين الضيوف من الكتّاب والنقاد، وتركت منيب لدهشته المبللة بالامتعاض، في الصف الثاني، حيث كانا يجلسان متجاورين، وحين بدأت المناقشات سبقت يدها الجميع إلى طلب الكلام. وكما فاجأت الجميع، فاجأت نفسها وهي تحكم بأن هذه الدورة من المهرجان، بالكاد لامست موضوعها: المحظورات في الرواية العربية، إذ ظلت المحاضرات والتعقيبات كالرواية

العربية، مؤدبة جداً، يندر أن تخترق الثالوث المحرم: الدين والجنس والسياسة، وإن يكن نصيب المحرمين الأخيرين قد بدأ يكبر ويتغوغأ. وشرحت عندما قاطعها صوت من الخلف مستنكراً: يتغوغأ؟ من الغوغاء يا أستاذ، ثم ختمت مترحمة على من قال: أدبنا كله مؤدب جداً. وعلى وقع التصفيق جلست.

تعرقت جبهة منيب، وتعرقت كفّاه وهما تتبادلان الدعك. وأطرق حيران بين الاعتزاز بهفاف والخجل من أن يبدو صغيراً أو نكرةً، في عيون الآخرين، وبخاصة أمام من له بهم أو بهن صلة -إياس غانم، معزز عبد الواحد، روضة، أبو يوسف.. - ومن تعرف عليهم أو عليهن من الضيوف. وفي السهرة الختامية لم تجرؤ أصابعه على أن تتسلل تحت الطاولة لتعانق أصابع هفاف، فأفرد ذراعه بعد حين على مسند كرسيها، لعل الأصابع تجرؤ على أن تداعب كتفها أو تلامس شعرها. لكن أصابعه ظلت خائفة أو حردة، وربما تخاتل الغيرة حتى تعالى الصخب والغناء الجماعي الرقاوي الذي جعل كثيرين وكثيرات يتدافعون فيما تبقى من صالة الأوتيل، وإذا بهفاف تدعو - بالأحرى تأمر - منيب: يلله ع الدبكة يلّله. عندئذٍ تعانقت أصابعهما، ولم تكد تفترق حتى صحا منيب مما لعله حلم: هو وهفاف يتقلبان بشراسة في

طول السرير وعرضه كما لم يفعلا منذ جمعهما السرير نفسه أول مرة، بعيد خروج منيب من السجن، سوى أن منيب يسقط هذه المرة وحده من عليائه في قاع صفصف، مخلفاً هفاف لحريقها في صفصف، ليست قاعاً، ولا هي بعلياء.

ليلة رأس السنة

أمامها كأس من النبيذ، وعلى يمينها التلفزيون الذي يتهيأ لاستقبال السنة الجديدة. قلبها يوقّع خفقه كما يشاء صوت فيرون، وعيناها للمدى الذي يرقّش الثلج عتمته عبر باب زجاجي فسيح، يفتح على شرفة فسيحة، تفتح على النهر.

من باب ضيق كان يفتح على شرفة أصغر في بيت أصغر في عمارة المهاوش، كانت تناديه بغمزة أو زفرة أو همسة، فيغافل الليل والناس، ويحبو كطفل إلى مقابل العمارة، ثم ينهض كشاب ليس له مثيل، يغني ويرقص ويغنج وأحياناً يتعرى، أحياناً يتباذأ، أما الآن.

لا تزعلْ.

الآن ما عاد الفرات طفلاً ولا شاباً. الآن أنت عجوز سقيم، لذلك ما أحببت البحيرة التي لجمتك، ويرى فيها منيب عوضاً عنك.

لا عوض عنك.

سأمضي بعد البحيرة صُعُداً ذات يوم، لعلي أجدك مختبئاً هناك. سأمضي سباحة، كما لم ترني، حتى ألقاك، قبل الحدود، بعد الحدود، ليس مهماً. المهم أن ألقاك كي أعود بك،

نودع هذه السنة ونلاقي هذه السنة، ولن يكون منيب ثالثنا.

طبعاً سيغار منك، ولكن انس واسمعني، أرجوك، أنا بحاجة إلى من أحكي له الليلة، وليس لي سواك. موسى عانقني منذ الثامنة: كل سنة وأنت أحلى، عيّدني وباي باي. مع من سيستقبل السنة الجديدة موسى الملعون؟ أمي في خدر أمام الشاشة العملاقة: يوم مثل باقي الأيام: تقول، على أيامنا ما كان كل هذا الجنون: تقول، وأبي تعشّى ونام، وأنا بحاجة إلى من أحكي له الليلة، وليس لي سواك.

أين منيب إذاً؟

نمّال هو؟ ما هذا الذي اعتراني عندما سألني: أين نسهر ليلة رأس السنة؟

رجفان هو؟ ما هذا الذي اعتراني عندما أجاب: نسهر عندي في البيت؟ إحساس عارم بالغربة اجتاحني، لا أذكر أني عرفته إلا عندما سمعت صوت منيب لأول مرة بعدما افترقنا دهراً.

كان الوقت مثله الآن، وكنت في مثل وحدتي الآن. كنت قد يئست منه حتى ما عاد يظهر لي في منام. ولولا أن قال: أنا منيب، من أين كان لي أن أعرف هذا الذي يسلّم بصوت غريب: مشروخ، حذر، لهفان؟

أنت منيب، وأنا هفاف: صديقان، ولكن: قديمان. عاشقان،

ولكن قديمان. غريبان، متحدان، منفصلان، نسيانٌ، وبردٌ ليس مثل برد المكيف في دبي ولا مثل برد الثلج الآن.

ما همني أن العشيرة عفت عنه، ولا أنه بات قادراً على أن يجاهر بانتسابه إلى الرقة، ولا أن يحدد: بانتسابي إلى هفاف العايد؟ ما همني أنه ضاع منذ ضيعني فصرتُ طريدَكِ يا هفاف، كأنْ لا يكفيني أن أكون طريد العشيرة. ثم صار طريد قطاعي الرؤوس والذباحين، فلفظته بوعريريج إلى الرقة، وها أنا بانتظارك أطوف كل صباح حول ثانوية خديجة، وكل مساء حول عمارة المهاوش، وصباح مساء أنتظرك أمام النهر. لا تتأخري.

ما همني هو أنني افتقدت كل ما كان يمور في كياني نحوه منذ رأيته أول مرة يملأ باب القاعة: صباح الخير يا بنات، صوته يا ربي، يا ربي أنفاسه تحرق أنفاسي، وهو هناك، بعيد بعيد، خلف المكتب، وأنا هنا بعيدة بعيدة في الزاوية، أكاد أقفز من النافذة، وهذا الذي ظل يجتاحني أياماً كلما رأيته: غبطة هي أم خوف؟

نفض النهر ما كان قد توشى به من الثلج، وبصوت الحكيم همس لهفاف: لا غبطة ولا خوف، بل هما معاً. وإذْ بدا له أن هفاف لم تدرك مرماه، أضاف: هذا هو الحب.

أرعش البرد هفاف، فغبّتْ ما كان قد تبقى من النبيذ في الكأس، وتناولت من على السرير الشال الصوفي الأبيض المزخرف بسواد ناصع، ولفّته على كتفيها كما يفعل منيب كلما رآه مرخياً على كتفٍ لها وساعد. وعادت إلى النهر الذي لبد في حضن الثلج، ونظر إليها تائقاً مثل طفل ينشد حكاية.

نمّالٌ ورجفان معاً كان ما اعتراني هذه المرة، عندما التقينا لأول مرة بعد فراق دهر. إحساس عارم بالغربة اجتاحني، فاستعنت عليه بصخب المطار، وخرست كما كنت أخرس كلما هاتفني إلى دبي. خفت من أن أكون قد أخطأت بعودتي. وظللت خائفة طوال الصيف من أن أبقى في الرقة أو أعود إلى دبي.

من دمشق إلى حلب إلى الرقة إلى أبي وأمي إلى موسى إلى روضة إلى الفرات.. ما الذي لم يتغير؟ وأنت تغيرت يا هفاف: أخيراً حكم منيب، بعدما كان قد صدعني بالحكم نفسه كل من التقيته.

وأنت تغيرت يا منيب، لذلك سأبقى في الرقة.

أرأيت؟ هذا هو الحب: قال النهر بصوت شاب يعابث فتاة.

ربما، لكن الحب تغير.

ما الذي لا يتغير؟

من الذي لا يتغير؟

هذا الذي عاد مدرساً في ثانوية الرشيد، أم هذه التي صارت مدرّسة في ثانوية خديجة؟ هذا الذي تراجع شعره وأخذ يبيضّ أم هذه التي قد تخلف موعدها مع منيب، لكنها لا تخلف موعد شعرها مع الحناء، كيلا تفلت منها شعرة بيضاء واحدة.

أنت لم تتغيري فقط. أنت ما عدت هفاف.

لم أكن بحاجة إلى من يقول لي ذلك. أنا صرت أخاطب المرآة كلما التقينا. أحياناً أكون حانقة على الناس جميعاً، وأولهم منيب. بل أولهم أنا. أحياناً أمتلئ باليأس، بالنقمة، أهرب إلى العزلة، أهرب منها، أتخشب عندما يلامسني منيب، أرجوه أن يحتمل ما يبدر مني، أتمنى أن يدير ظهره فيرتاح مني ويريحني. أحياناً أمقت منه هذا الصبر عليّ، هذا الضعف أمامي، هذا التعلق بي، كأنه قد تحنّط في الماضي.

ليس هذا من أحببت، ولستَ أنتَ من سأتزوج: قلت له ببرود قتلني قبل أن يقتله، عندما فاتحني بالزواج لأول مرة. لأول مرة يا منيب بعد عشرين سنة؟ بعد أربع وعشرين سنة؟ ما دمت تحتفل كل سنة بعيد ميلادي، فأنت تعرف كم صار عمري. ما عدت أصلح زوجة. ما عدت أصلح أماً. أحياناً يخاتلني الندم على أني لم أتزوج من صديقك جابر الخليل أو من صديقك مطر الزغّال. والآن ها هو الدكتور نوري الحاج صبحي يحوم حول عمارة المهاوش، يحوم حول ثانوية خديجة. وفي المركز

الثقافي إذا ما صادف أن التقينا في محاضرة أو في معرض، يحوم حولي، وأخيراً، كرمى لك قبلت أن أكون طبيب الصحة المدرسية: يقول، ويقول: أنا طبيب عيون، وعيادتي ما شاء الله، ذهب، مالي وللصحة المدرسية، لولا أنك قد تقصدينها في السنة مرة؟

كلام يرخي الركب: قال النهر ممعناً في معابثته.

وأنا تراخيت، وفكرت بالزواج من نوري. ومنيب؟ منيب قد يصلح عاشقاً، لكنه لا يصلح زوجاً. منيب لا يخفي غيرته من نوري، وأنت تشفقين عليه بقدر ما تستمرئين غيرته حتى يملّ نوري، ويدعوك ومنيب إلى عرسه.

طار نوري من يدك، وأنت تكبرين يا بنتي الله يرضى عليك: صوت أمي هذا باكياً، أم صوت أبي وهو يترنح كِبراً، أم هو صوت موسى ضاحكاً ومناكداً ومحذراً: إياك أن تتزوجي إلا من منيب؟

لكن منيب الذي كان يسرع إلى كهولته، يستعيد شبابه بعدما مات حافظ الأسد، ويهفو إلى ربيع دمشق. وأنا لم أكن أقل منه أملاً، لكني لن أسافر كل أسبوع إلى دمشق لأشارك في مسائية من مسائيات منتدى جمال الأتاسي، ولا في صباح من صباحات مقهى الهافانا. تكفيني مسائية في الرقة مرة في الشهر. لماذا لا تتزوج يا منيب؟

أصاب ربيع دمشق أذني منيب بالصمم: قال النهر، وقد عاد إليه صوت الحكيم، فجددت هفاف كأس النبيذ، وحثّت عيناها المدفأة على أن تضاعف دفئها، وتمسحت أصابعها بالشال، وهفت إلى هذا الذي أصابته منتديات دمشق وحلب بالعدوى، فدعا إلى لقاء في منزله: منتدى هفاف العايد سأسميه، قال حالماً. وسرعان ما تبدد حلمه كما تبدد ربيع دمشق، وأخذوا منيب يا موسى: صحت. أخذوا منيب يا روضة، أخذوا منيب يا أمي، ومن خلف هذا الزجاج صحت بل: أخذوا منيب يا الفرات، وما من مجيب.

قال النهر بصوت الحكيم والشاب والطفل: أنا معتقل كما ترين منذ كنتِ طالبة في ثانوية خديجة، في جامعة حلب، ما من فرق مهم، فلا تعوّلي عليّ.

وأنا اعتُقلت. عندما اعتقلوا منيب اعتقلوني، وإن كانوا لم يأخذوني إلى سجونهم. اعتقلوا لساني، خرست. اعتقلوا شجاعتي، خفت. اعتقلوا ضحكتي ونومي وطعامي، وعندما ألفت اعتقالي كانوا قد أفرجوا عن منيب بعد ست سنوات، وبلا محاكمة.

هل نتزوج يا هفاف؟ سألني وهو يعانقني أمام أبي وأمي وموسى. فرحت وبكيت وخجلت وتلعثمت، بل وأغمي عليّ أياماً. وعندما بدأت أصحو كانت خطوبتنا قد أُعلنت. وعندما

اكتمل صحوي أطاشتني أفكاري وهواجسي: لماذا أكتم عن منيب حتى اليوم حكايتي مع ربيع سمانة؟ ألأنــي مازلت أُضمر ميلاً لربيع؟ أم لأني لن أجروً على أن أعترف بأن ربيع ضمني وقبلني؟ لماذا لا أعترف بأنني أنا أيضاً ضممته وقبلته؟ هل يعقل أن منيب كان راهباً في كل هذه السنين التي فرقتنا؟ أنا لا أصدق، ولكني لم أشغل نفسي يوماً بذلك، ألأني متسامحة أم بسبب حكايتي مع ربيع؟ ألأني لا أغار أم بسبب حكايتي مع نوري الحاج صبحي؟

أطبق النبيذ أجفان هفاف، وأخذ يزين لها شجرة ميلاد صغيرة في صدر الغرفة، قبالة السرير العريض، وجاء النبيذ بمنيب، وأمر الفرات بأن يهزج، وأمر الثلج بأن يرقص، وأعلن هفاف ومنيب عروسين، ما دمتما خطيبين وستبقيان خطيبين، وقرأ الفاتحة، وأعتم الغرفة إلا من أشعة شجرة الميلاد، وعرّى هفاف، وعرّى منيب، وزغرد مباركاً للعروسين، بينما كانت هفاف تتوجّع وتتلذذ. ولما أفاقت من خدر النبيذ فكرت بأنها ومنيب عقيمان، فلا هي ستكون أماً، ولا هو سيكون أباً. وتساءلت عما إذا كان عقمهما فقط لأنهما انتظرا حتى بلغا من العمر عتيّاً، قبل أن يفض أحدهما بكارة الآخر.

لا: هجم صوت من الشرفة، ربما كان للنهر، وربما كان

لروضة، الوحيدة التي باحت لها هفاف بالسر. وعندما تابع الصوت: أنت كنت عذراء، ولكن هل يعقل أن منيب كان أعذر أيضاً، شكّت هفاف في أنه صوت روضة، الذي ما فتئ يزين أن يظل الخطيبان خطيبين، ما دمت تصرّين على ألا تتزوجا، وما دام يحبك وأنت تحبينه، وما دمتما في الرقة ولستما في باريس.

لماذا أنا هنا إذاً وهو هناك؟ تساءلت هفاف، وكان هاتفها النقال يغالب صمته بالوميض، والتلفزيون يعلن نهاية سنة وبداية سنة.

نصال

خرجت هفاف من إهابها لتكون واحدة من هذه الكتل الصخرية الكبيرة والصغيرة التائهة في حضن الجبل. وفي التكوين الجديد تلونت بهذه الألوان التائهة بين بياض الحليب وخضرة الرخام المشرّبة بخصل من سواد الليل.

كانت سيّارة منيب قد خَبَتْ بهما من الرقة إلى دمشق طوال نهار الخميس، ثم خبَت بهما هذا الضحى من دمشق إلى النبك، ومن النبك إلى دير مار موسى الحبشي.

في الساحة استقبلتهما الغيوم الرهوانة التي وشّتها السماء بزرقتها، كما وشت هي السماء ببياضها، فسار منيب وهفاف بين ثلة من الشباب والصبايا، وتحت ظل رهيف لا يكاد يستقر على لون.

إلى صالة الاستقبال كان قد سبق آخرون جلّهم من العجائز، وتُرجّح شقرة أغلبهم أنهم ليسوا سوريين.

كأس شاي وكأس ماء، ومن يخدم من، وهمسٌ يزيد الصمت صمتاً. سماء الصالة الفسيحة ترخي ظلاً رهيفاً أيضاً، وقلقَ الألوان أيضاً، لكن بعد قليل من الجلوس، تلفّع الظل بالرهبة والقداسة، فتساءلت هفاف: أنا مسلمة، وهذا دير مسيحي، فلماذا هذا الشعور؟

في رحلة الصعود من صالة الاستقبال إلى الدير يصير ذلك الشعور غبطةً تشبك أصابع هفاف بأصابع منيب، فيتبدد الجفاء الذي تطاول وتضاعف بعد رأس السنة. وتتضاعف الغبطة من درجة إلى درجة في الطريق الطويل المؤطر بحجارة تتموج بين ألوان الكتل الصخرية وألوان السماء والغيوم. لكن الرهبة والقداسة تندغمان بالغبطة عندما تنحني هفاف لتعبر باب الدير أمام منيب، وقد ملأه عناق الأصابع بالأمان الذي يصير بهجة عارمة عندما يفتح الأب باولو دالوليو ذراعيه مردداً: منيب، صديقي، أهلاً أهلاً.

قدم منيب هفاف لباولو بلا أي لقب، فصافحها بحرارة مخاطباً منيب:

– أخيراً تزوجت؟

– تقريباً.

قال منيب، فكرجت ضحكة باولو، ثم خاطب هفاف:

– خطوبة مفتوحة مثلاً؟ زواج مع وقف التنفيذ؟ ما هذا؟ اختراع جديد.

وأشار إلى الأريكة المجاورة هامساً:

– ستكون لنا خلوتنا وحدنا بعد أن ينام الجميع.

وقبل أن يثني خطوته التفت إلى منيب سائلاً:

– ما أخبار الأستاذة أمية؟

– علمي علمك.

قال منيب مصطنعاً الحياد، وابتعد باولو بينما سألت هفاف وهي تسترخي على الأريكة:

– من هي أمية؟

– أستاذتك في ثانوية خديجة. هي من جاءت بي إلى هنا أول مرة.

قال، وأحس بالأصابع ترتعش، فخاف من أن يكون قد أثار غيرة هفاف التي راحت تتأمل الغرفة المنحوتة من الحجر. وفجأة نهضت، فنهض وهو يُحكم عناق الأصابع، كأنه يخشى أن تعود إلى الجفاء. وتهاديا إلى النافذة الصغيرة التي تفتح على الوادي السحيق، وكتمت هفاف شهقتها. لكن دهشتها، كدهشة منيب، تتواصل وهي تقود خطواتهما ونظراتهما: المقاعد الخشبية الطولانية حول الطاولات الخشبية الطولانية، الطعام الجماعي والمطبخ ومن يخدم من، وكل شيء جديد كأني لم أر الدير من قبل: قال منيب وهما يتأملان لوحة الدينونة ملء الجدار الغربي للكنيسة. وقالت هفاف وهي تومئ إلى النافذة التي تنصّف اللوحة: أنتَ مع الصالحين وأنا مع الخطاة. لكن منيب رفض أن يفارق هفاف، وقرر أن يلغي النافذة ليوحد نصفي اللوحة، وناشد ملاك الشفاعة أن

يُثقل في ميزانه حسنات هفاف، ثم ناشد العذراء، وإبراهيم، وإسحاق، ويعقوب، والأنبياء أجمعين، من منهم في اللوحة ومن ليس فيها، أن يشفعوا لهفاف أولاً، فجازته بتمرغ أصابعها بين أصابعه، وأقبلت على ما تبقى من النهار ترفل في حلم: طبق للشموع، المكتبة، الإنترنت، ومصادفات الأب باولو، النسائم التي أخذ يتضاعف هبوبها وبردها في الخارج، مساكب الورود والشيح الأبيض وشجيرات اللوز وهذا التلفريك وهذا الخزان لمياه المطر وهذا المغر الذي يتشهى منيب أن يبيتا فيه الليلة. لكن الخلوة مع الأب باولو تنتظر في الحادية عشرة.

في ركن خفيض منحوت من الحجر، جلسوا، كلٌّ على حشية مربعة تكاد تبرق بلون الحجر، وفي الوسط انتصبت زجاجة النبيذ.

قال باولو متباهياً وهو يملأ الكؤوس:

– هذا نبيذ الدير، لن تذوقا مثله في باريس.

ولما أُشرعت الكؤوس قال:

– قبل أن أشرب بصحتكما، نشرب معاً بصحة الشباب السوري الثائر.

وبعد الرشفة تابع بحبور:

– ما دمتما قد شربتما هذا النخب، فأنتما إذاً كما توقعت، لستما من أنصار النظام.

تبادل منيب وهفاف نظرة ضاحكة، بينما رفع باولو كأسه قائلاً:

– والآن نشرب بصحة الزوجين تقريباً.

وتعالى ضحكهم حتى قطعه باولو قائلاً:

– في الشهر الماضي، شهر رمضان، دعوت زوار الدير، المسيحي منهم والمسلم، إلى الصيام من أجل السلام في سوريا. كنت آمل أن يكون شهر الخير والشفاعة، وأن يستجيب الله لدعائنا بالخروج من الأزمة ونجاح الإصلاح والمصالحة.

قالت هفاف:

– إذاً أنت لست راهباً فقط.

قال باولو:

– أنا سوري، سوري من أصل إيطالي، بالتحديد. وكل ما أرجوه للمجروحين في الروح وفي الجسد هو نعمة التضامن لندفع هذه المأساة.

قال منيب:

– نحن في ثورة أم في مأساة؟ ما عدت أعرف ماذا أقول.

قالت هفاف:

– قل ما تشاء، المهم أنه الربيع الذي طال انتظاره.

قال منيب بأسى وهو يحدق في هفاف:

– لأن حضور باولو يشجعني، سأكون صريحاً معك لأول مرة: هو ربيع، لكني أخشى أن يكون أقصر من ربيع دمشق. أخشى أنه انتهى، أو على وشك أن ينتهي.

تساءلت هفاف ساخرة:

– أين كنت تخبئ عني كل هذا التشاؤم؟

قال باولو ملتفاً على ما بدا له من التوتر بين هفاف ومنيب:

– في بداية السنة زارني هنا السفير الفرنسي. كانت الثورة التونسية قد انتصرت، والمظاهرات في مصر قد بدأت. سألني: هل يمكن أن يصل هذا الربيع إلى سوريا؟ قلت له: إذا وصل فلن يكون قصيراً ولا سهلاً. أخاف أن يسقط آلاف الضحايا، بل أخاف أن تتهدد وحدة بلادنا نفسها. للأسف، ها هي الدماء تسيل. كيف تجري الأمور عندكم في الرقة؟ لماذا لا تزال الرقة نائمة؟

همّ منيب بالكلام، لكن باولو أردف غامزاً:

– نائمة تقريباً.

قال منيب:

- دمشق نفسها أليست نائمة؟ ولا تزعل: تقريباً؟ حلب، طرطوس، واللاذقية نفسها، ما كادت تستيقظ حتى نامت.

قال باولو وهو يملأ الكؤوس:

- هذا لا يلغي سؤالي.

قالت هفاف:

- منذ الأيام الأولى للثورة تحركت الرقة. من جامع الفردوس خرجت مظاهرة صغيرة في أول جمعة، لكن المظاهرة كبرت في الشارع، وأنا ممن انضموا إليها، مزقنا صور الرئيس وهتفنا لدرعا، بعدها بأيام كانت أول مسائية وأكلنا خيزرانات ولبطات وشتائم حتى انفزرنا وتفرقنا.

قال منيب وهو يقرب كأسه من كأس هفاف مراضياً:

- لكنك كنت ساحرة بشعرك المنكوش وكنزتك المفلوقة وخدك الأحمر مثل الدم. بصحتك.

- وصديقك منيب كان يتفرج علينا.

قالت هفاف مخاطبة باولو الذي رفع كأسه مشرقاً وقائلاً:

- منيب ختيار، لا تزعل ولا تزعلي. البركة فيكِ. مرة ثانية بصحة الشباب.

قالت هفاف بحماسة:

- في الرقة شباب تعتز بهم. أخي موسى يلاعب المخابرات

مثل توم وجيري، خصوصاً في الليل. في الجامعة شباب وصبايا يرفعون الرأس. أنا أتكلم عمن أعرف، ولا أعرف إلا القليل. شباب التنسيقيات صناديق مقفلة بأسرارها. لو رأيت البالون الذي رفع علم الثورة في كبد السماء.

والتفتت إلى منيب متابعة:

– خضر ابن جارك قارو مثلاً، شاب لا يهاب الموت.

قال منيب:

– صحيح، ولكن هذا كله ليس أكثر من شرارات تتقد وتنطفئ بلا أثر يذكر. في دمشق مثلها، في حلب، ولكن هذا كله، بل ما هو أكبر منه في حمص أو حماة، ما عاد أكثر من صوت يكاد يطغى عليه صوت الرصاص. أين هو صوت السلْمية؟

قالت هفاف:

– اسأل من رد على السلْمية بالرصاص.

قال منيب:

– هذا لا يعني أن تحل العسكرة محل السلْمية. أنت تعرفين رأيي.

قال باولو وقد ساءه أن عاد التوتر بين هفاف ومنيب:

– أنا أختلف مع منيب، فهذا الربيع لا يزال في أوله وإن

كان في خطر. أما أنت يا هفاف، فالمهم ألا يكون اختلافنا مدمراً. المهم أن يكون اختلافنا مخصباً. أنت لست شابة في العمر، لا تزعلي. لكنك شابة في الروح، مثلك مثل الشباب السوري الذي فاجأني بنضجه الإنساني، وبنضجه السياسي. من هؤلاء الشباب تعلمت عن كرامة الإنسان ما لم أتعلمه في حياتي. وأنا لم يفاجئني كل هذا العنف. كنت متوقعاً له ولما هو أكبر منه. ولكن جذوره في الديكتاتورية. ومن فجّره هو الديكتاتورية.

قال منيب:

– هذا وحده لا يفسر ما يجري، لا يكفي أن نقول: الديكتاتورية، ولا تعطيلها للحياة السياسية، لا يكفي أن نتذرع بافتقاد الثوار للخبرة، وماذا أيضاً؟ لا يكفي أن نتعلل بالعفوية وافتقاد القيادات، وماذا أيضاً؟ لا تنسوا جذور العنف في هذا الذي اسمه الإسلام السياسي، السني منه مثل الشيعي. أنا كنت في الجزائر ورأيت وسمعت وقرأت وعايشت. جذور العنف في تاريخنا كله يا باولو. ولا تنس أيضاً من ينفخون في النار من حولنا.

قالت هفاف:

– حتى لو كان هذا الكلام صحيحاً فالوقت ليس وقته.

قال باولو وهو يملأ الكؤوس:

– كأنكما لا تتناقشان في مثل هذه الأمور عندما تنفردان. الآن فهمت ما معنى أنكما زوجان تقريباً. أنا أفهم قلق منيب، وأفهم حماستك يا هفاف. نحن بحاجة إلى هذا القلق وإلى هذه الحماسة. والآن اشربا قبل أن أفرق بينكما. تعرفين أين ستنامين؟ سأرافقك.

أعادت هفاف كأسها إلى جانب زجاجة النبيذ على التربيزة الخفيضة، ونهضت قائلة:

– أرجوك، أنا مرهقة.

وخُيّل لمنيب أن صوتها يناكده. ولما صار وحيداً، خيّل إليه أنها تمد لسانها له من خلف ظهر باولو، شامتة، فاضطجع وراح يستعيد صوت باولو: بنينا الدير المجاور لمبيت النساء. ولما تلاشى الصوت أغمض عينيه ليرى عيني هفاف تتقدان، فيتلون هذا الظلام بلون عينيها: سوداوان، لا، شهلاوان، لا، خضراوان، لا، عسليتان، لا، زرقاوان، لا، وما دمتَ قد عجزت، وغفوت، فإليك هذه الرموش لتدثرك. لكن هذه ليست رموش، هذه نصال: صاحت غفوته به، لعله يفرّ قبل أن تدركه النصال.

مثل النحلة

في مظاهرة مقبرة حطين كان منيب على موعد مع أوجاع ظهره. كان قد شارك في التشييع، لكنه لم يستطيع أن يهتف مع من هتفوا: ارفعْ رأسك يا بو الشهيد، ولم يستطع أن يتضرع مع من تضرعوا: مجاريحْ عجّلْ نصرك يا الله.

كان خائفاً من أن يُوقع الرصاص شهيداً جديداً قبل أن ينتهوا من دفن هذا الشهيد. ولماذا لا تكون أنت شهيد رصاصة طائشة، أو جريحها على الأقل؟ لماذا لا يكون موسى العايد أو رياض هباش كما كان خضر قارو؟ وهل يحمي هفاف من الرصاص أن النساء محشورات في الخلف؟ ما أدراك أن الرصاصة ستكون طائشة؟ ما من رصاصة طائشة يا أستاذ، لكنهم هذه المرة سيرأفون بكم جميعاً. هذه المرة سيكتفون بهؤلاء الشباب وهذه العصي والجنازير والخيزرانات والأذرع والأقدام التي ستلبطك واحدة منها على ظهرك، وستنتظرك حتى تهنأ في وقعتك على القبر المرخّم الصغير، لترميك بلبطة ثانية. وبنعمة اللبطتين ستعرج من المقبرة إلى الساحة التي تنتظرك فيها السيارة، وستنتظر ثمة حتى تظهر هفاف، ثم تحاول أن تقود السيارة، لكن أوجاع ظهرك ستجعلك تترك

مقعدك لهفاف، وستقود هفاف السيارة إذاً إلى المستشفى: هل قادت امرأة السيارة من قبل في الرقة؟

ما من كسر في الظهر: احمد الله مثل هفاف ومثلهم جميعاً. لكن عليك أن تستلقي على ظهرك خمسة عشر يوماً. وستتمنّى أن لا يبرأ ظهرك، لكي تظل هفاف بجانبك، لا تكاد دروسها تغيّبها عنك حتى تعود إليك، لكأنها الممرضة التي ترعى مريضها، بل لكأنها الزوجة التي ترعى زوجها: الحبوب المسكّنة، والتلفزيون إلى غرفة النوم، والنهوض إلى التواليت بحسبان، وهذه الأفلام كلها أوسكار، «ليش الديفي دي عطلان؟ وشو رحْ ناكل اليوم؟»

في غيابها نهاراً كانت تعهد بك إلى أم باسيل. وفي المساء تعهد بك إلى موسى. وهفاف إذاً ليست الزوجة التي تقضي ليلها ساهرة إلى جانب زوجها العليل. ولموسى ما يشغله في الليل أكثر من النهار، ولا يحتاج منيب إلى ذكاء حاد كي لا يخطئ في تقديره أن موسى ينشط في تنسيقية ما، وربما يقود تنسيقية كما ترجّح هفاف فخورة: وأنتِ؟

لن يجرؤ منيب على السؤال، وهو يرى هفاف، بعدما عاد إلى دروسه في ثانوية الرشيد، مثل النحلة: هاتفها النقال لا يفسح لحديث يطول بينكما، زياراتها تقصر، غيابها يطول،

رهق في المساء بخاصة يعكر صوتها ويتوّه نظراتها، وأنت تفر من قلقك عليها حتى يقبض عليك، فتستنجد بأصابعها راجياً: احذري يا هفاف، عيونهم مفتحة وهم لا يرحمون.

لتكافئك تعد أصابعك واحدة واحدة، وتطويها واحدة واحدة، مثل أم تلاعب طفلها المدلل، وتبتسم هامسة:

– اطمئن. أنا أعمل مع النازحين فقط. أنا أعمل في وضح النهار، ومثلي كثيرات.

ثم أبعدت يد منيب، وتابعت:

– لكن النازحين صاروا آلافاً مؤلفة، من حلب، من دير الزور، من حماة... وما زالوا يتدفقون. لو ظل الناس يهربون من بيوتهم هكذا، فهل يبقى سوري في بيته؟

كانت عيناه تتنسمان شفتيها. وبينما أطاشهما اليباس، سألتْ بمرارة:

– هل يبقى لسوريّ ملجأ في سوريا؟ بل حتى خارج سوريا، هل يبقى لواحدنا ملجأ؟

قال منيب:

– ولكن ها هي الرقة مثل اللاذقية أو طرطوس، ديار آمنة، دمشق آمنة والسويداء آمنة. فقالت هفاف بأسى:

– أظن أن الدولة ومن يحاربها، من الجيش الحر إلى جبهة

النصرة إلى أحرار الشام وغيرهم، متفقون على أن تبقى بعض المدن محايدة، ليلجأ إليها من يهرب من الحرب. ومع ذلك كم شهيد سقط في الرقة؟ الله يرحمك يا خضر قارو.

قال منيب وهو يلجم أنامله التي تتشهى أن تمسح على الشفتين اليابستين:

– نحن في حرب حقاً.

وقاطعه موبايل هفاف، فالتفت عنها محاولاً إخفاء ضيقه. وبينما أخذت أصابعها تمسح على شعره، أخذ صوتها يزداد عكراً وهو ينثر في مخيم النازحين في الملعب أسلاك الكهرباء واللمبات المحروقة وبطانيات وفُرُش. وأخذ سمع منيب يلهث خلف صوت هفاف الذي كان يلهث خلف سائق سيارة الإسعاف وأم نجم التي تكاد تلد على الرصيف بجانب السيارة. ولما أغلقت هفاف الموبايل أطلقت زفرة حرّى، ونهضت قائلة:

– أم باسيل في الملعب تستغيث. لم يبق من المتطوعات غيرها. يجب أن ألحق بها. يجب أن أشتري سيارة. في الملعب أربعمئة خيمة، وليس له سيارة.

– سيارتي وصاحبها بأمرك وأمر النازحين.

قال منيب وهو ينتزع ابتسامة ويتبع هفاف نحو الباب.

ديسك

١

من الشرفة رأى منيب بيري وزوجها ولات يجريان مذعورين حتى غيبّهما باب العمارة، فأسرع إلى بيت قارو الذي كان يعنّف ولات، بينما كانت أم خضر تعنّف بيري. وقبل أن يجلس منيب اندفع ولات شاكياً له:

– أنا وبيري يا أستاذ جئنا من تل أبيض لنشارك في مظاهرة اليوم عند مدرسة عبد الرحمن الغافقي. تجمعنا يا أستاذ أمام المدرسة فخرج الطلاب إلينا وصرنا كتلة، الله أكبر، ولكن ما كدنا نصل إلى أول الشارع، يعني ما مشينا مئتين أو ثلاثمائة متر حتى طلعوا بوجهنا، الله أكبر. أكثر من خمسين رجلاً كانوا، بأيديهم ما يخطر على بالك وما لا يخطر، ونحن ليس بأيدينا إلا كم علم وكم كرتونة. في البداية واجهناهم ولكن القوة قاهرة يا أستاذ. بدأنا نهرب، هم يركضون ونحن نركض حتى انقطعت أنفاسنا. وكل هذا ما كفانا حتى ينزل بنا بهدلة صاحبك وحماتي المصون.

صاح قارو:

- قلت لك أنا خائف على بيري، لا عليك. البنت التي تقع بين أيديهم يهتكون عرضها.

ترحمت أم خضر على خضر بصوت راجف وهي تلملم غطاء رأسها الأبيض، وجلس ولات قبالة منيب، وجلست بيري بجانب أبيها، وأخذت تتمسح به مثل قطة، بينما سأل منيب:

- كانت هفاف معكم؟

- لم نرها.

أجاب ولات وبيري معاً، فدعا منيب في سره ألا تكون قد خرجت في مظاهرة اليوم. ولكي يخفي قلقه طالب بفنجان قهوة. وسأل ولات:

- لماذا لا تتظاهرون في تل أبيض بدلاً من أن تأتوا لتتظاهروا في الرقة؟

قالت بيري:

- تل أبيض صغيرة يا أستاذ، والمظاهرة فيها مزحة بالنسبة للرقة.

وقال ولات:

- لولا الضرورة لما كنا سنعود حتى نشارك غداً في مسائية الجامع المنصوري.

قالت بيري:

– أنا باقية:

قال قارو:

– لكنك لن تشاركي في المسائية.

قال ولات ضاحكاً:

– بيري متخصصة بالمظاهرات النهارية في تل أبيض وفي الرقة.

وبينما نهره قارو، كان منيب يتمنى أن يشغل هفاف عملُها مع النازحين عن المظاهرات النهارية والمسائية. وفجأة سُمِعَ زعيق فرامل سيارة فأسرعت بيري إلى النافذة، وقبل أن تبلغها صاحت:

– كأنها سيارة للأمن في رأس الشارع.

فنهضوا جميعاً، وعادت بيري إليهم، تتساءل بهلع:

– هل يقصدوننا؟

فاندفع منيب إلى الباب وهو يدفع ولات أمامه آمراً:

– طيارة على بيتي. يلله يا بيري، طيارة.

وفي مستهل الدرج لحقهم صوت قارو مخاطباً منيب:

– أنت أيضاً بيتك غير آمن.

قال منيب:

– إلى بيت أم باسيل أو إلى السطح.

وحاول أن يقلد ولات وبيري فيقفز درجتين أو ثلاثاً معاً، لكنه تعثر قبل أن يبلغ الطابق الأول، وأحسّ بوخزة حادة في صميم ظهره. ثم تعثر في الدرجة الأخيرة قبل باب بيته، وأحسن بوخزة تومض من أسفل ظهره إلى قدمه، وسمع في الأعلى صوت أم باسيل وصوت بيري، لكن الوجع أبهم عليه ما كانتا تقولان.

٢

من قارو جاء الهاتف الأول قبل المغيب:

- ظلت السيارة مرابطة في منتصف الشارع حتى الساعة الرابعة، ولم ينزل منها أحد. ولات وبيري عادا إلى تل أبيض. ألا يمكن ألا تكون السيارة للأمن؟ حتى لو كانت للأمن، ألا يمكن أن لا يكون ولات هو المقصود، ولا بيري؟ صوتك يقول إنك مريض. هل تشكو من شيء؟

ومن هفاف جاء الهاتف الثاني، وقد استسلم منيب للعتمة التي لا يخدشها إلا ضوء شحيح ينسرب من الشرفة: لن نلتقي اليوم. أنا الآن في معسكر الطلائع، قل في يوم الحشر.

النازحون هنا ضعف من عندنا في الملعب. سأعود إلى الملعب ولو لساعة، ومن الملعب إلى السرير.

– والعشاء؟

– أنا جائعة ولكن النوم أهم. ما بك؟ كأنك مريض؟

– وقعت على الدرج ورجع ظهري كما في يوم المقبرة. كأن اللبطتين تركتا فيه أثراً لا يمحى.

أوصت هفاف بالاستلقاء وبما تبقى من حبوب الترامادول، في صيدلية الحمام، بجانب معجون الحلاقة. وكافأ منيب نفسه بابتسامة رغم الوجع، لأنه نفذ الوصية قبل أن تأمر بها هفاف. وعندما استعاد الوصية، ثنّى الابتسامة وزادها عرضاً، لأن هفاف لم تنس ما تبقى من الحبوب المسكّنة، ولا أين هي.

وهذا البيت إذاً – تؤكد هذه التفاصيل – هو بيت هفاف أيضاً، بل بيت هفاف أولاً. وقرر ألا يتعشى، ما دامت هفاف لن تتعشى. وحدق في العتمة طويلاً، لأن هفاف أرسلت طيفاً ظل يضيئها حتى جاء الهاتف الثالث، وقالت هفاف:

– نمت؟ بعد الملعب سأراك دقيقتين، لأطمئن عليك. ما رأيك بسندويشة فلافل ساخنة مع الفليفلة التي تكوي كما تحبها؟

أغمض منيب عينيه، ومرة بعد مرة استعاد صوت هفاف: صوت أمّ منيب هو، صوت المرأة التي لم تعرفها يوماً لكنك ظللت عاشقاً لها حتى ظهرت هفاف، صوت يغمغم، صوت

يهدهد، حتى إذا أغفى منيب أقبلت هفاف في طيلسان من الأرجوان، ولما حاذت السرير اصطفق الطيلسان فصار عباءة سوداء، ولكن كأنها عباءة من شقوق قد أسرعت إليها هبة من نسيم الليل، وظلت الهبة تهفهف حتى دثرت منيب بالعباءة إلا عينيه اللتين انفتحتا لتريا خمار هفاف. وأعشت عينيه حواف الخمار المنسوجة من ذهب أسود يتقد كأنه ذهب الليل.

عندما انطفأ ذهب الخمار برئت العينان من العشى، وتحدرتا بلهفة إلى صدر هفاف. لكن تجاعيد دقيقة لا تكاد تُرى أعشت العينين من جديد، ففرتا إلى ضفة النهر، وإذا بالفرات يخاصر هفاف برغواته، فسقطت العينان على قدميها، وأبرأ الخفّان المعصفران عيني منيب من العشى، فعادتا هانئتين إلى النوم، حتى وشوش منيب مفتاحٌ يفتح، وباب ينفتح وينغلق، وخطوات تقترب، ورائحة تشع من إبطين ليست إلا رائحة شهد العسل البري.

وهفاف قد حضرت إذاً، وعليك أن تسرد بالتفصيل قصتك المرضية، وأن تتعهد بالنهوض غداً معافى مثل الحصان. والآن خذ سندويشة الفلافل، وانظر إلى هفاف تأكل، واصغ إليها وهي تحكي جذلى ما قرأت من بختها العرافةُ الحموية أم شعبان: ستلدين توأمين، ولكن من رجلين.

من رجلين؟

تمتمت شفتاه، ونشب السؤال شوكةً في حلقه، فانتظر حتى انصرفت هفاف، ثم قرر أن يُسلم الروح مثل أي كائن – وليس مثل أي إنسان فقط – تنشب شوكة في حلقه، ولا تفتأ تكبر وتستّل الأنفاس نَفَساً نَفَساً، والنبضات نبضةً نبضة.

٣

قرر التصوير الطبقي المحوري أن منيب يكنز فتقاً في النواة اللبية، وأن عليه أن يكون حذراً في حركاته وسكناته: قرفصْ بدلاً من أن تنحني، لا تحمل أكثر من خمسة كيلو، واللبط؟

سأل منيب قبل أن يكمل الدكتور سوار الشايطة أوامره، وحكى للدكتور حكاية اللبطتين. لكن هفاف جزمت أن اللبطتين ليستا ما اخترع الفتق، وإنما اخترعته ستون سنة لم تكن تأبه خلالها بجسمك. وهزّ الدكتور رأسه مؤيداً، وأشهر ورقة مزدوجة تبرق بالرسوم، وخاطب هفاف:

– عليه أن يقوم بهذه التمارين يومياً مدى الحياة. وخلال أسبوعين أفضّل ان لا يطيل الجلوس، وأن لا يقود السيارة.

أصرّت هفاف على أن تقود السيارة من المستشفى إلى البيت. وتركت منيب يعد الساعات بين السرير والمطبخ

واللابتوب والموبايل. وفي المساء تضاعف عليه ثقل الوقت، وظل يتضاعف حتى سمع رنين جرس الباب أخيراً، في تمام العاشرة، وهذا هو موسى يتفجر عافية وعنفواناً، مثل هذين الشابين اللذين يدفعهما، مقدماً الأطول:

– صديقي فصيح العلي، بلطجي بدرجة جيدة جداً من بلطجية الثورة.

ثم قدم الأقصر والأنحف:

– وهذا ابن عمك شعيب الخلف. في كل مظاهرة يبطح عشرة من الذين يهاجموننا، شبيحة، أمن، لا يهم. اضرب.

– ماذا قلت؟ ابن عمي؟

سأل منيب مقاطعاً وهو يمسك بساعدي شعيب ويحدق فيه. وبينما كانت عيناه تتقريان وجه شعيب قال موسى:

– قلت: ابن عمك، والوحيد في عائلتكم وعشيرتكم مع الثورة. البقية مع النظام أوعلى الحياد، والأصح أنهم مشغولون بالتهريب.

تعانق منيب وشعيب بحرارة، وجلسا متجاورين، بينما تدفق موسى:

– هفاف مرهقة، ولا تصدق أنها ستصل إلى البيت لتنام. كلنا مرهقون وأنت غاطس في سريرك. ليتك كنت معنا. مسائية ليست كالمسائيات، صلّينا العشاء في جامع المنصوري، وبين

المصلّي والمصلّي كان واحد من المخابرات. أمام الجامع كانوا بالعشرات، لكنهم لم يتعرضوا لنا. لو تعرف من كان إمامنا؟ صديقك الشيخ جابر الخليل. ما عاد أحد يخاطبه: أستاذ جابر. هل ستظل أسبوعين هكذا؟ لا تصدق الطبيب ولا تصدق هفاف. تعشيت؟ بماذا يمكن أن أخدمك؟ إياك أن تغيب عن مظاهرة ثانوية الرشيد. ثانويتك، وشعيب وريثك فيها لكنه يدرّس الفلسفة، ومن يدري، قد تحمل اسمك في يوم من الأيام.

ونهض، فنهضوا وشعيب يتساءل:

- كيف لم نلتقِ يابن عمي قبل اليوم؟

وغمغم منيب وهما يتعانقان بينما قال فصيح ملاعباً يديه بحركة مبهمة:

- سلامتك يا أستاذ.

ومثل شعيب انقاد لدفعة موسى. وحين أكدت خبطة الباب انصرافهم، أطبقت الوحشة على منيب، فناشد هفاف أن ترأف به ولا تتركه وحيداً.

٤

منذ ثمان وأربعين ساعة لم يغادر السرير إلا دقائق إلى الحمام أو إلى المطبخ. ومنذ ثمان وأربعين ساعة لم يرَ هفاف

- أي لم تعد إليه بعدما أعادته من المستشفى- ولم يسمع صوتها إلا مرتين، فهل يكون ذلك ما جعله يعزم على مخالفة أوامر الدكتور سوار، ويقرر المشاركة في مظاهرة ثانوية الرشيد؟

من موسى علم أن التجمع أمام الثانوية سيبدأ في العاشرة صباحاً. لكن صبر منيب على هفاف نفد، فغادر البيت قبل التاسعة، ونزل الدرج مبالغاً في الحذر، وبحذر أكبر مشى إلى السيارة، ومع كل خطوة بلا ألم كان ضيقه يتراجع. ولما قاد السيارة بلا ألم أيضاً، ابتهج. وانطلقت عيناه تطوفان على الوجوه والمحلات والسيارات والأشجار، كأنهما عائدتان من غياب طويل، أو كأنهما تلقيان التحية بحبور. ولأن الوقت لا يزال مبكراً، أخذت السيارة تتنزه حتى فاجأت منيب في وسط حي البياطرة، حيث قطع الطريق عدد من الشباب قريباً من بيت الدكتور مطر الزغّال:

- خير يا شباب؟

سأل أقربهم إليه، فأشار الشاب بالرجوع قائلاً:

- مظاهرة.

قال منيب:

- المظاهرة هنا أم عند ثانوية الرشيد؟

قال الشاب مكرراً الإشارة بالرجوع:

- مظاهرة هنا ومظاهرة هناك.

قطعت السيارة نزهتها وأسرعت إلى الشارع الذي يفصل ثانوية الرشيد عن المجمّع الحكومي القديم، حيث اختبأتْ، بينما عاد الحذر إلى خطوات منيب حتى لوّح له شعيب من بين المتجمهرين القليلين قبالة باب الثانوية المغلق. عندئذٍ تخلى عن حذره، وأسرع إلى شعيب، وطال عناقهما حتى فرقهما معزز عبد الواحد، وقبل أن يصافحه منيب كان صوتٌ قد خاطبه:

- أنت هنا؟ تعال تعال.

فاستدار ليصافح بحرارة... من؟

كانت لقاءات منيب وجابر الخليل قد صارت رهن المصادفات المتباعدة منذ فضّل جابر التقاعد المبكر على التدريس، ليصير خطيب الجمعة المتنقل من جامع إلى جامع، قبل أن يصير أيضاً الإمام المتنقل، بخاصة بين جامع النور والجامع المنصوري، بحسب الشواغر، وبدون العمامة المخادعة والمعطف المخادع، كما كان يصف لباس الشيخ يوسف القرضاوي بعدما صار نجماً لقناة الجزيرة.

ردّ جابر تحية منيب بحرارة على غير عادته منذ سأله

منيب في مكتبة الخابور، ممازحاً: مع أي فرع من فروع الأمن يتعامل خطيبنا المصقع؟ فرد جابر بجفاء: مثلك من يتعامل مع فروع الأمن وليس جابر الخليل. فتابع منيب المزاح مسترضياً: إذاً ليست فروع الأمن هي التي تزودكم بخطبة الجمعة، ولعن الشائعات التي لا ترحم، ودنا من أذن جابر هامساً: هل صحيح أن المخابرات فتحت فرعاً في وزارة الأوقاف اختصاصه خطب وخطباء الجمعة فقط؟

عندئذ خرج جابر من المكتبة غاضباً. أما الآن فها هو يبادر منيب بالمزاح:

– أعرف أن طريقك إلى بيوت الله مقطوعة. ولكن أغلب المظاهرات تخرج من هذه البيوت، وأنت كما سمعت تشارك أحياناً في المظاهرات، ولكن بعدما تبتعد عن الجوامع.

قال معزز عبد الواحد مصطنعاً الجدّ والغضب:

– عِلْمانيْ يا مولانا، لا يريدها دولة إسلامية، بل دولة علمانية وديمقراطية والعياذ بالله.

وأفلتت منه الضحكة، بينما كتم منيب ضحكته، وحاصت نظرات جابر، وإذا بصخب يهجم من الخلف. ولما التفتوا كان باب الثانوية المغلق قد انفلق لتندفق منه أفواج الطلاب، ولتبدأ أعداد منها تفرّ من أعداد، وأعداد تشتبك أيديها بأعداد،

وأصوات تهتف بحياة الرئيس، وأصوات تهتف بموته.

مع اقتراب الشجار من حيث يقف منيب وجابر، اختفى الآخرون من حولهما، وأخذت صور تعلو وصور تسقط، لافتة تضرب بعصاها رؤوساً ولافتة تتمزق، ولما رأى منيب على خطوات منه جبهة طالب قد شجّت وتبقعت جبهته بالدم، أسرع مبتعداً، وإذا بجابر يجري أمامه ويستحثه، فجرى، لكن وخزة في صميم ظهره أوقفته، فتباطأ حتى عاد إليه جابر، وجرّه من ساعده وهو يكزّ على أسنانه، ويزداد عجزاً عن مجاراة جابر الذي التفت إلى الخلف مرتين قبل أن يقول:

– أظن أن الطلاب الموالين تغلبوا على الطلاب المعارضين. اللهم انصرنا على القوم الظالمين.

وكانت سيارة منيب قد ظهرت، ولأن منيب سمع نداءها يستحثه، حرّر ساعده من قبضة جابر، وجرى مشيراً إلى السيارة، فصاح جابر مودعاً، وحين وصل منيب إلى السيارة تهاوى.

الدُّوَار يهزج: هدهدْ همومك عندي

أمر الدكتور سوار الشايطة بملازمة منيب للفراش حتى الشفاء الذي قد يتأخر، لأن مشاركتك في المظاهرة كانت نكسة لظهرك، حكمت هفاف غاضبة مرات قبل أن تضيف: يا أخي من عتب عليك حتى تخرج في المظاهرة؟ ماذا سيقدم حضورك وماذا سيؤخر غيابك؟

بين رعايتها ساعة كل مساء، ومثلها أحياناً في النهار، ورعاية أم باسيل أو قارو ساعة في النهار، ومثلها أحياناً في المساء، كان منيب يعد الأيام. وبعد أيام صار يعد الساعات، بينما أخذ الدُّوَار يداهمه كلما لاقى الليل وحيداً. ومن ليل إلى ليل أخذ الدوار يشتد ولا يفارقه في نوم أو سهد: أصوات ليس بينها صوت هفاف، وأخيلة ليس بينها خيال هفاف.

ليل مثل محبرة تندلق على السرير والغرفة، وتنداح من البيت إلى الدرج، عالياً ونازلاً، إلى باب العمارة.

ليل ثان مثل محبرة تواصل الاندلاق على الشوارع والساحات والأشجار إلى أن تبلغ النهر.

ليل آخر مثل محبرة تندلق على النهر والسماء، عالياً ونازلاً، فلا ينجو إلا رأس منيب: أين أنت يا هفاف؟

قبل أن ينقضي الشهر كان ليل مثل العماء قد أخذ الدوارُ يرمي به منيب. وهذا ليل مثل بحر لم يره منيب من قبل، لا في بانياس ولا في الجزائر ولا في بيروت. بل هو ليل مثل نهر لم يره منيب أيضاً من قبل، لا في الرقة ولا في دمشق ولا في بوعريريج. ليل طويل كأنه تاريخ غير مقروء، ومنيب مشبوح – ليس في آناء الليل فقط، بل في أطراف النهار أحياناً – بين التفاصيل: لن يبرأ ظهرك إلا بعملية جراحية، إياك والجراحة، هفاف تتبختر بالسيارة وتنساك، أفلام الأبيض والأسود ليست إلا حنينك إلى شبابك: فيلم عصر الحب وفيلم فتوات بولاق، أفلام شهد الملائكة والحرافيش ونور العيون، وأصدقاء الشيطان وسمارة الأمير، وكله من قصص نجيب محفوظ، لماذا يا هفاف؟ والقنوات المعارضة؟ والقنوات الموالية؟ والموبايل ينعم بالصحف عليك، المحجوبة منها والمتاحة، والعجاج نعمة أكبر، والليل إذ يغشى: يقرأ منيب القرآن في ليل رمضان، فلا يهدأ الدُّوار. وبالمسلسلات الرمضانية يستعين على ظهره مداوراً الدوار، فلا يهدأ، بل تضاعفه الفضائيات التي أخذ يستكشفها واحدة واحدة: هذي (فضائية الوصال) وهذه (فضائية صفا)، وهذا هو نجم القناتين الشيخ عدنان بن محمد العرعور الداعية الذي في مثل سنك، ممثل يقصر

عنه فضيلة الشيخ متولي شعراوي، ولا يجديك أن تنكر أن له معجبين ومعجبات، ليس في مسقط رأسه، في حماة، فقط، بل هنا في الرقة أيضاً. ولكن لماذا يدغدغ المشاعر الطائفية والمذهبية؟ تسأل هفاف حين تضبط شاشتك على قناة صفا، فتتمتم موجوعاً: ليته كان وحده. وعندما تتركك للدوار، تفكر في هذه التي اجتاحت لبنان والعراق، وها هي تجتاح سوريا: حمّى العشائرية والقبلية والمذهبية والجهوية والطائفية، وبلغة هفاف المتعالية التي تذكرك بحاملة الماجستير في علم الاجتماع: حمّى الهويات ما تحت الوطنية.

واليوم: هذه (قناة الناس)، وهذا برنامج (تجمّع السلام السوري)، بإشراف فضيلة الشيخ النجم نفسه. وهذه المرة تضبط أم باسيل شاشتك فتسألك محتدة: لماذا هذا السباب؟ لماذا هذا التحريض؟ هل هذا من الدين؟ فتتمتم موجوعاً: هذا ليس من أي دين. وعندما تتركك أم باسيل للدوار، تفكر في الضخ الأيديولوجي، وفي الخطب والأناشيد الجهادية، وفي هذا الدرك الذي بلغناه بفضل الاستبداد والديكتاتورية، وبفضل الفساد وأدعياء الدين، ولا تنس فضل الفضائيات، ولا تنس بخاصة فضل القادة والشيوخ والنجوم الذين يتربعون على رؤوس هذه الأهرامات.

خوفاً من أن يُضبط من جديد متفرجاً على مثل تلك الفضائيات، ورضوخاً لأمر الدوار الذي لا يرحم، صار منيب ينتظر إلى أن يقترب نصف الليل، لتبدأ أصابعه بملاعبة الريمونت كونترول، وهذه فضائية (السوري الحر) تحث جبهة النصرة في بلاد شام شريف على أن تكثف الضربات على المدن التي يسكنها كل رافضي نجس. وهذه فضائية (البرهان) تحرم الاحتفال بعيد رأس السنة الميلادية مجلجلة: فلنا أعيادنا ولهم أعيادهم. وهذه فضائية (الإنسان قرآن وسنّة) تعلن بمناسبة احتفالات النصارى بالكريسماس وبرأس السنة: بدأت في إندونيسيا حملات التوعية بعدم المشاركة في تلك الاحتفالات، وبعدم استعمال ما يتعلق بها، كشجرة رأس السنة.

كرمى لأم باسيل أسرع الريمونت كونترول إلى قناة (نور سات الشباب)، وسكرت أذنا منيب بالألحان الشجية لجوقة كنيسة القديس يوسف للكلدان. ثم أسرع الريموت كونترول إلى قناة الملكوت، وتمايل رأس منيب مع صوت هذه التي لابد أنها أم باسيل قبل عشرين أو ثلاثين سنة: «يا عظيم في مجدك يا مسيح الكون والسما يشهدلك عظيم وما فيش زيك وكل الشفاه بتهتف لك تعلن سلطان حقك» ولكن الدوار كاد

أن يرميه بالطائفية، فأسرع الريمونت كونترول إلى (قناة كربلاء)، وما كاد منيب أن يملأ عينيه من المشاهد العاشورية حتى حلت محلها (قناة الكوفي للميديا الحسينية) من دون أن يأتي الريمونت كونترول بحركة. ومن جديد، ما كاد منيب أن يملأ عينيه من هذه القناة حتى حلت محلها (قناة الثقلين). ثم أخذت القنوات العراقية تتناسل وتفيض عن الشاشة، متعنونةً بالانتصار عام ٢٠٠٣، وبالغزو عام ٢٠٠٣، وبالهزيمة عام ٢٠٠٣، وهكذا حتى فجّر الدُّوَار رأس منيب، فهدأت الشاشة قليلاً، لتظهر (قناة المنار) و(قناة العالم) وهما تعصفان بصورة الخميني فصورة الخامنئي، فازورّ منيب عن الشاشة، وطالب الدوار بالمزيد، لكن الدوار رأف به، وأمر الشاشة بالاعتدال، فظهرت (قناة آزال) اليمنية وهي تصدح بعناق المآذن والنواقيس في عدن، وبالتعايش بين الكيانات كافة، ثم أخذت تصدح بخطاب الوسطية حتى حلت محلها (قناة الرحمة) المصرية، فتابعت الخطاب نفسه في برنامج (شكراً اسمعني). وهش منيب لهاتين القناتين، فجادت الشاشة بـ(قناة الزيتونة)، ثم جاءت بـ (قناة الإرث النبوي) فاستوقفها الدُّوَار رأفة بمنيب، إذ كانت تصدح ببرنامج (الجلسات الإنشادية)، وما إن انتهى البرنامج حتى ملأت الشاشة القناة

الصوفية التركية وهي تمور بفرقة موسيقية غنائية دينية تلو فرقة، وكانت الساعة قد تجاوزت الثالثة بعد منتصف الليل، فناشد منيب الدوار الرحمة، فشعت الشاشة بهذين السطرين: من يقول لك: اعتقدْ ما أعتقد وإلا لعنك الله، لا يلبث أن يقول لك اعتقدْ ما أعتقده وإلا قتلتك. وفي أسفل الشاشة قرأ منيب اسم فولتير، ثم اختفى السطران والاسم، لتشع الشاشة بسطر جديد: ويل لأمة كثرت طوائفها، وقلّ فيها الدين. وفي أسفل الشاشة قرأ منيب اسم جبران خليل جبران، وبينما اختفى السطر والاسم، أخذ الدوار يهزج لمنيب: هدهدْ همومك عندي.

نفسك دنيّة وزادْ طبعي أكشرْ

على الرغم من كثرة من زاروا منيب خلال الشهرين الماضيين، بعدما فشا خبر مرضه، ظل هناك من يزوره لأول مرة.

كان قد صار يغادر السرير ليجالس ضيوفه في الصالون لدقائق، إلا إذا صادف أنه كان وحيداً، مثله عندما حضر رياض هباش وإياس غانم، ولم يكونوا قد التقوا منذ سنتين، حين جمعهم افتتاح حديقة جسر الرشيد.

آنئذٍ، كان منيب يتوسط هفاف وإياس غانم، وانضمت إليهم في نهاية موقف السيارات الدكتورة ميسلون عبد السلام. ومنذ بداية الحديقة لم تصدق عيونهم هذا الذي آل إليه كتف النهر: مصاطب وكورنيش ومظلة دائرية ولوحة سيراميك قال المحافظ في ختام كلمته إنها اللوحة الأكبر في سوريا، وكانت ذراعه تشير بمهابة إلى صورة الرئيس وسط اللوحة.

كان المحتفلون يطلون من علٍ على النهر الوديع، كما وصفته هفاف، عندما لاقاهم رياض هباش بحرارة، وبعدما أفاض- شأنه كل ما التقى بمنيب، ومشيراً إليه- بفضل أستاذه عليه عندما كان مديراً لثانوية الرشيد، وكان هو طالباً

مطلوباً للأمن السياسي، أخذ يتحدث حالماً وإشاراته تطوف على كتف النهر: كافتيرات، مولات، مسطحات خضراء، نخيل سامق، أكشاك، بل وفنادق أيضاً، لِمَ لا يا أستاذ؟

أصرّ منيب على أن يعدّ لضيفيه القهوة. وكان قد صار يفعل ذلك أحياناً لنفسه أو لضيف، ربما ليتأكد من أن الديسك يتراجع. وعندما عاد بالقهوة هجم على إياس غانم بالسؤال:

– ما أخبار المحميات سيدي مدير المحميات؟

وكأنما كان إياس ينتظر السؤال، إذ اندفع:

– هذه السنة استقبلتها بتوزيع مليون ونصف مليون غرسة. كم؟

كرر منيب الرقم ضاحكاً، وتابع إياس باندفاع أكبر:

– أستاذ: من محمية رجم الشيخ إلى محمية حايل الرمان، ومن محمية البوعاصي إلى محمية طوال العبا، ما تركنا محمية في الجهات الأربع إلا وغمرناها بالأغراس، ٦٠٠,٠٠٠ غرسة من الروثا، ٣٠٠,٠٠٠ غرسة من الرغل الأمريكي والسوري. ربع مليون غرسة من الغضا.

عندئذٍ قاطعه منيب مترنماً:

يا أُهيل الحي من وادي الغضا

وبقلبي مسكن أنتم به

ضاق عن وجدي بكم رحب الفضا

لا أبالي شرقه من غربه

وترحم على الرحابنة، ودعا بطول العمر لفيروز، وبالتوفيق لإياس غانم. وقبل أن تتلاشى ضحكته، بادره إياس بالسؤال:

- هل تنفذ أمريكا تهديدها وتضربنا يا أستاذ؟

- علمها عند ذوي العلم.

قال منيب ضاحكاً وسأل رياض:

- ما رأيك؟

لكن إياس سبق إلى الجواب:

- مهما يكن واحدنا ضد النظام فلا بد أن يقف ضد الضربة.

قال رياض:

- ويفلت إذاً من العقاب من ضرب الغوطة بالسلاح الكيماوي.

قال منيب:

- كالمستجير من الرمضاء بالنار: هذا حال من يهللون للتهديد الأمريكي.

فسأل رياض:

- والعمل يا أستاذ؟

قال منيب:

- العمل هو هذا الذي يُطبخ أمامك، وعلى عجل، حتى أزكمت رائحته أنوفنا. عن أي عمل تسأل يا رياض، مادام المطلوب هو السلاح الكيماوي؟ هات الكيماوي وابق حيث أنت. ثم لا تنسَ أيضاً أن بيننا من يبرئون النظام من هذه الجريمة.

قال إياس بحماسة:

- وأنا منهم.

قال رياض غامزاً:

- لا نتوقع من مدير المحميات أقل من ذلك.

قال إياس بامتعاض:

- لا ترم بلاءك على المحميات وعلى مديرها، أظنك سمعت بالاختراع الثوري العجيب: اتهام النظام بالكيماوي اتهام سياسي. يا أخي على الأقل انتظروا نتائج التحقيق.

قال رياض كمن يستجير وهو يحدق في منيب:

- والثورة يا ناس؟

قال إياس:

- صارت حرباً. اصح يا رياض. هذا إذا كانت في الأساس ثورة.

وخرجا متنافرين، ومنيب يزجر ضحكة مريرة داهمته وهو

يقف خلف الباب حيران، وأسيان. ومشى بطيئاً نحو الشرفة، ومن خلل الأضواء الشحيحة وظلال العمارة رأى هفاف قادمة، فأسرع إلى الباب، وفتحه، ولطا خلف العمود الذي لاتفارقه المظلة والمعطف صيفاً، كما في الشتاء. ولما دخلت هفاف باغتها، وأجفلت، وتعانقا، وانهصرت شفاههما للمرة الأولى ربما منذ شهور.

كانت هفاف قد تركت مخيم النازحين منذ المغيب في عهدة أم باسيل، وأسرعت إلى حديقة المرور، وإذا بالدكتورة ميسلون عبد السلام وسنية عبد الحميد وروضة قد سبقنها، لكنهن وقفن أمام محل الموبايلات صامتات مثل أخريات تناثرن حول الحديقة. وافتقدت هفاف حشد الشباب، حتى بعدما أخذوا يتكاثرون، وتهامست مع سنية بخوفها من أن تخفق مسائية اليوم. ولم تكن سنية أقل خوفاً حتى لوّح أخوها وهو يتبع موسى العايد. وحين لوّح موسى ابتهجت، ولم يطل الانتظار من بعد.

ليست الحديقة وحدها، بل سوارها أيضاً تفجر بالهتافات– أخذت هفاف تروي لمنيب وكأنها مازالت في المظاهرة – مسائية استثنائية، لماذا؟ لأننا كنا أكثر منكم. ومن نحن ومن أنتم؟ قل: أنتنّ. خذ، تفرّجْ.

تناول منها الموبايل، وعلى الكرسيين المتجاورين في المكتبة، جلسا، وأخذت الصور تتدفق، ولكن ليس من مسائية حديقة المرور وحدها، فهذه خيام النازحين في الملعب، وهذه أيضاً خيام النازحين، ولكن في معسكر الطلائع، وهذه الأستاذة هفاف العايد في ساحة الجامعة، وهذه الطالبة سنية عايش عبد الحميد تهتف والأستاذة تردد في مظاهرة كلية الهندسة المدنية في الربيع، أول الربيع: قالت هفاف، وخرجت بسرعة، تغمغم بلحن بدوي، ولما عادت حاملة الصينية التي ازدهت بكأسين وبعلبتي بيرة تركية، هبّ منيب ملاقياً، وتناول الصينية، وفتح العلبتين بينما راحت هفاف تتمايل مدندنةً:

أبو الخديد الوردتين اللالا
يا دهب مشغول ما بك لولا
كَلتلها اروح وياچ كَالت لالا
نفسكْ دنيّة وزادْ طبعي أكشرْ

وألصق منيب العلبة بشفتيها، فرشفت ما فاض عنهما وبلل عنقها، وتابعت بغنج:

أبو الـخديد الوردتين جـعودي

دحَـج- علـيّ شلونْ يذبلْ عودي

وان رحتْ لـَهْلي ما يـجيـني كَعودي

وان رحتْ يمّكم زادْ صوجـي يكبرْ

وكـان منيب قد بدأ يرقص ويداه تلوحـان بـعلبتـي البيرة.

الشيخ جابر الخليل

مساء السبت زار جابر الخليل منيب لأول مرة أيضاً. وحين دخل كانت الشاشة تترنح مع خبطات أقدام الراقصين والراقصات في فرقة الفنون الشعبية. وكان كفّا موسى يتراقصان على فخذيه، وقدماه تتراقصان على البلاط، وصوته يندغم في الغناء الجماعي الشجي.

سلّم جابر بجفاء، وأمر بجفاء أيضاً قبل أن يجلس، مشيراً إلى الشاشة:

– أغلقوا هذه المسخرة.

ثم خاطب موسى:

– من يسمعك البارحة تهتف في مسائية شارع المنصور، لا يصدق أنك من يتفرج على هكذا مسخرة.

قال موسى مبتسماً ومسترضياً:

– لبيك يا الله. لبيك يا الله.

فلاقاه جابر بربع ابتسامة قائلاً:

– أنا رأيتك في مظاهرات أخرى، وسمعتك تهتف، لكنك البارحة تفوقت. هل تعرف لماذا؟

تساءل موسى متظاهراً بالسذاجة:

- لماذا يا شيخي؟

قال جابر:

- لأنك كنت تهتف لله.

قال موسى:

- ولكني هتفت وهتف غيري أيضاً: الموت ولا المذلّة.

قال جابر:

- لا بأس. أعجبني أيضاً أنكم من ميزوا أنفسهم عن باقي الطلاب باللافتة التي كان إسلام ابن القاضي عايش عبد الحميد يحملها، قبل أن تتولى الهتاف.

التفت موسى إلى منيب قائلاً:

- لافتة اتحاد طلبة سوريا الأحرار في الرقة.

ثم عاد إلى جابر متابعاً:

- واللافتة التي كتبنا عليها: نحن قادمون يا دمشق فشرّعي أبوابك إلى فلسطين، لا تقل إنها لم تعجبك.

قال جابر وهو ينظر إلى منيب، كمن ملّ من الحديث:

- لا بأس، وأنت يا منيب، متى سيهديك الله وتقلع عن مسخرة الغناء والرقص؟

قال منيب مغالباً الضيق:

- لكنك كنت تطرب لهذا الغناء، وأنت أول من شجّع فرقة

الرقة للفنون الشعبية.

قال جابر:

– من جهالات الشباب.

قال موسى كأنه يحرض منيب:

– شيخي: أنت في زيارة مريض أم في موعظة؟

قال منيب:

– إذاً كانت جهالات الشباب، والآن؟

قال جابر وهو يجيل النظر في الصالون:

– الآن، على الأقل كبرت وشاب شعرك.

– وعلى الأكثر؟

– هذا الزمن غير ذاك الزمن.

قال جابر وقد تعلقت نظراته بالقرآن المعلق على الجدار، ثم أردف وهو يهز رأسه:

– لديك إذاً كتاب الله.

– ماذا تظن؟ في المكتبة نسخة ثانية.

– مازال فيك خير يرتجى. هذا الزمن غير زمان الشباب يا منيب. لا بد أنك تتابع كيف يعلو صوت الإسلام في هذه السنين.

– تابعت لفترة الفضائيات الدينية.

- وماذا وجدت؟

- وجدت أن أغلبها ليس له نصيب، لا من صوت الإسلام ولا من صوت الدين، خصوصاً القنوات الطائفية.

قال موسى:

- قل قنوات الفتنة.

قال جابر:

- بعضها يصح فيه بعض ما تقول، ولكن ليست هي وحدها صوت الإسلام في هذه الأيام.

سأل منيب:

- ماذا أيضاً؟

قال جابر:

- الفصائل المسلّحة التي ترفع راية الإسلام، هنا في سوريا أو في العراق، والحبل على الجرار.

قال موسى غاضباً:

- إذاً أنت ترى أن راية أبو بكر البغدادي في العراق هي راية الإسلام، وراية جبهة النصرة عندنا هي راية الإسلام.

قال جابر:

- في العراق الراية ليست راية أبو بكر البغدادي. الراية هي راية دولة العراق والشام الإسلامية.

قال منيب:

- باختصار أنت ترى أن هذه الرايات السود هي راية الإسلام.

قال جابر:

- ماذا ترى أنت؟ لا تقل لي إنك مازلت كما كنت في شبابك؟

- في شبابي كان لي صديق، في مثل سنّي يمكن أن تقول إنه من فضاء الإخوان المسلمين، إن لم يكن منهم، لكنه لم يكن يدعو إلى دولة دينية مثل دولة البغدادي، ولا إلى القتال مثل القاعدة وفرخها السوري جبهة النصرة. أنا يا شيخ جابر ضد هذه الرايات السود التي تريد أن تجعل الماضي يحكم الحاضر والمستقبل.

- لا تجعلني أندم على أنني زرتك في مرضك.

- وأنا أرجوك يا صديقي القديم، يا أستاذ جابر، أرجوك لا تجعلني أندم على أنني عرفتك يوماً. أرجوك، إكراماً لوالدك رحمه الله، صاحب الفضل عليّ إلى يوم الدين، فلولاه، من يدري، ربما ما عدت إلى الرقة حتى بالكفن.

- خلّك إذاً في ضلالك.

قال جابر وهو ينهض غاضباً وموميًا إلى الشاشة، وأسرع

في الخروج، ولما أطبق منيب الباب خلفه عاد إلى الشاشة، فإذا بها لا تزال تترنح على إيقاعات فرقة الفنون الشعبية،

وكفا موسى تتراقصان رويداً على فخذيه، فلكزه منيب قائلاً:

- إياك أن تكون عاشقاً يا موسى.

- ولماذا لا أكون؟

سأل موسى محتجاً فغمرت الفرحة صوت منيب:

- إذاً أنت عاشق.

تأوه موسى فتابع منيب:

- ومن هي سعيدة الحظ؟

- ستعرفون كلكم في الوقت المناسب.

قال موسى، وأخذت قدماه تتراقصان على البلاط، بينما أغمض منيب عينيه ليرى هفاف تملأ الشاشة جذلى وهي تدندن بما لم يسمعه من قبل.

هفاف الصباح

حصد معزز عبد الواحد هذه السنة جائزة ربيعة الرقي وجائزة ثابت بن قرة الحراني. وبعد فوزه بالأولى زار منيب الذي كان لا يزال شبه ملازم للسرير.

أعلن معزز النبأ العظيم، فقال منيب مناكداً:

– لولا أن الفساد نخر حتى في الجوائز الثقافية، ما كان لك أن تفوز بعدما قاربت الستين. وعلى كل حال أن تفوز متأخراً خير من أن لا تفوز أبداً.

– احذر يا منيب: سأقيم حفلاً استثنائياً بهذه المناسبة. ولن أدعوك إذا كنت ستنغص عليّ فرحتي.

قال معزز. وقبل أن ينصرف قرر أن يؤجل الحفل حتى يبرأ ظهر منيب، لكن معزز اختفى حتى فاز بالجائزة الثانية قبيل نهاية العام، وكان منيب قد غادر السرير.

في جريدة الفرات التي تصدر في دير الزور قرأ منيب النبأ العظيم، وفي مساء اليوم نفسه ظهر معزز مجلجلاً:

– الحفل صار حفلين، وحيث لا يخطر لك على بال. انتظرني في التاسعة مساء الخميس، واستعد: سهرة حتى الصباح، وليس حتى الفجر.

لكن منيب أصر على المناكدة:

- مرة جائزة في القصة، ومرة جائزة في الشعر، والجائزة القادمة في الرقص إن شاء الله. القاضي العقاري يصير كاتباً وشاعراً! سبحان الله! هذه النطوطة عيب، والعيب الأكبر أنك في الستين تنافس من هم في سن أحفادك.

فأقسم معزز:

- ورأسك أنت محروم من الحفل.

- ما دمت حلفت برأسي، فستكذب.

وأطلق قهقهة ظلت تدوّي حتى اصطدمت بقهقهة معزز. وفي التاسعة من مساء الخميس امتلأت سيارة منيب بموسى ورياض هباش والدكتور نوري حاج صبحي، ودبّت خلف سيارة معزز التي امتلأت بآخرين، وطال دبيب السيارتين بعد الجسر، وبمحاذاة النهر، حتى ظهر بناء خفيض ومشعشع، وانفجر الصياح: عند الحجيّات إذاً! وانصبت اللعنات على معزز.

كان منيب قد عرف من قبل من مرابع الحجيات اثنين، واحد بعدما عاد إلى الرقة، والآخر بعد خروجه من السجن. وعلى الرغم من ذلك أحسّ بالغربة طويلاً قبل أن يؤالفه كأس الويسكي الثالث مع المرْبَع الجديد: قاعة متطاولة تتوسطها

منصة صغيرة، وتحتشد بالطاولات، والدكتور نوري ينقّل حاجبيه هامساً: في الصدر طاولة الشيوخ، شيوخ من يا دكتور؟ يسأل موسى. شيوخ عشايركم: يرد النوري غامزاً ثم يتابع حاجباه: خلف الشيوخ طاولة مدير الصناعة، ومقابل الباب طاولة أكبر مهرب للدخان، أبو مصطفى، أنا طبيبه. وقال رياض هباش: هؤلاء زبائن الحجيّات، فما الذي بلانا بهم؟ لعنة الله عليك يا معزز. وقال إياس غانم: لكن الحق يقال: طاولة معزز مدججة بزجاجات الويسكي وهي الأكبر.

بعد منتصف الليل تخافتت الأضواء، وهذه شابة ربما لم تبلغ العشرين تلهبُ الأكف منذ أشرقت. وفيما عدا منيب بدا كل من حوله ومن حول الطاولات الأخرى، كأنه يعرف الشابة من قبل، وليس فقط قد رآها. ويبدو موسى على معرفة أوثق بالشابة التي تحل محل الثانية، مثلما يبدو آخرون، شابة بعد شابة، حتى تطل الحجيّة فجراً.

أغنية بعد أغنية، صدّق منيب همسات معزز، لتكون الحجيّة سيدة الشابات اللواتي سبقنها ويرقصن الآن بين يديها، ولتكون أيضاً سيدة الغناء العراقي والبدوي وسيدة الحجيات في ديار الرقة. ورقصة فأغنية فرقصة يتبدل وجه الحجيّة وقوامها وصوتها، لكن ثيابها لن تتبدل حتى يقف حسين

الخلف خلف منيب، فيقف منيب مشوقاً إلى أبيه، ويعانقه، بينما يبربر الأب بالنسيان، ثم يجلس على كرسي موسى الفارغة بجوار كرسي منيب- أين اختفى موسى؟- وتنتصب أمام الأب كأس العرق الصغيرة التي لم تغب عن عشائه يوماً، ويرفع الكأس محيياً الحجية وهاتفاً: جودي يا أنطوانيت جودي، فيسأل منيب: أنطوانيت من يا أبي؟ أنطوانيت إسكندر يا نسّاء يا.. قال الأب ضاحكاً، وكان لباس الحجية قد صار شبيهاً بالجلباب الذي ستفرضه الدولة الإسلامية على هفاف: سابغاً وأسود، كذلك غطاء الرأس، وكرمى لحسين الخلف جادت الحجية:

من عَرَقْ خده لشيلْ ظماي بالجودي

ضليت برجوْة ترِفْ لمّنْ دبلْ عودي

دنياك يا صاحبي حظواك وسعودي

كلهن ذلولهم مشتْ وآني حرجتْ بيًا

تفجرت الأكف بالتصفيق، وأطلت أنطوانيت إسكندر من شاشة التلفزيون العراقي بالأبيض والأسود، وما إن غنت:

خدري الشاي خدريها

داده لِمِن أخدره

حتى تفجرت الحناجر وضاع صوت الحجية وصوت

أنطوانيت إسكندر. وبالكاد تبين منيب صوت أبيه يترنّح مع أصوات القاعة والمنصة: اش مالك يا بعد الروح. ولما أوفت أنطوانيت إسكندر الأغنية، حلّت محلها نجاة سالم اليهودية، وأشارت الحجية فهدأ الصخب، وبأقرب إلى الهمسة الجريحة غنّت:

خدري الشاي خدريها
عيوني أنا الما خدرا

فلم تعد الأكف ولا الحناجر تطيق صبراً، وضاع صوت نجاة طويلاً حتى أشارت الحجية، فهدأ الصخب، وعادت أنطوانيت بسواد عصبتها وسواد ثوبها وسواد الشال الهفهاف الذي تلوح به أصابعها، وما إن غنّت:

للناصرية وللناصرية... بوجناغ
أروح وياك.. للناصرية

حتى هب الجميع واقفين، إلا حسين الخلف الذي انتظر حتى تبينت أذناه:

بجفوف إديه بثنين إديه
تعطش واشربك ماي بجفوف إديه

فجنْ جنونه كالآخرين. ولما أوفت أنطوانيت الأغنية، أشار، فحلت زهور حسين محلّها، وغنت: للناصرية، ثم أشار، فحلت

صديقة الملاية محل زهور حسين، وغنّت: للناصرية، وعبر ذلك كانت الأوراق ذات الألف ليرة وذات الخمسماية ليرة تتناثر على الحجية وعلى الشابات، من الرأس حتى القدمين، ملء المنصة وحولها. ولأن يد منيب وحدها لم تكن قد نثرت بعد أية ورقة، أشار أبوه، فرمت يد منيب بكل ما كان في جيبه، وكانت أشعة الشمس الأولى قد أخذت ترشق زجاج النافذتين المتقابلتين يمين ويسار المنصة. ومن الزجاج الملون الفسيح أخذت الأشعة تتسلل إلى وجه الحجيّة، ليبدو لمنيب، نظرة فنظرة، مثل وجه هفاف، بل هو وجه هفاف، وعما قليل لن تكون الحجيّة هي الحجيّة، بل ستكون هفاف، ولولا ذلك، هل كان منيب سيطير إلى المنصّة، ويعانق الحجية أو أنطوانيت إسكندر أو زهور حسين أو صديقة الملاّية أو..؟

يُروى أن...

- على عهدة الراوي أن موسى العايد روى فقال: كنت في طريقي إلى المقبرة من أجل ترخيم قبر المرحومة أمي بعدما انطوى اليوم الأربعون على وفاتها، وكان الوقت ظهراً، وإذا بسيارات تمرق كالسهم والشوارع شبه خالية. كنت قد استعرت سيارة منيب منذ الصباح، إذ مازلت بلا سيارة، وكنت قد قررت شراء سيارة الفورد موديل ٢٠٠٦ من مكتب (حويجة زهرة) بعد عودتي من المقبرة.

أصابتني العدوى، فَقِدْتُ السيارة بسرعة جنونية، ومن بعيد، من بعيد جداً، وأنا أتجه إلى دوّار الدلة، رأيت سواداً يتماوج فتباطأت. وأخذ السواد يتعين كلما اقتربت من الدوار في رايات سوداء، ثم في أجسام سوداء. ولا أدري لماذا انعطفت السيارة في شارع أبي العلاء المعري الفرعي، بينما كانت ترجّ الفضاء رجّاً أصوات التكبير والهتاف: قائدنا للأبد سيدنا محمد.

كان فصيح العلي قد أسرّ لي مساء الجمعة بما لم يعد سراً: غداً إن شاء الله سيدخل الثوار. وما من فرق كبير بين الثاني من آذار– السبت– ٢٠١٣، والرابع من آذار– الاثنين– ٢٠١٣،

ولا بد إذاً أن يكونوا هم من يملأون دوّار الدلّة ويكبرون.

مثل الأفعى راحت السيارة تتلوى حتى وصلت إلى البيت. نزلت من السيارة وأنا لا أعرف ماذا أفعل. وزادني تشوشاً أن صوت الرصاص بدأ يتموج: يعلو ويقترب ويخفت وينأى. قررت أن أصعد إلى بيت هفاف التي لاتزال في أسوأ حال منذ ماتت أمنا. أظن أنها ومنيب متخاصمان، ولا بد أن السكري الذي ابتليت به فجأة بعد وفاة أمنا، يزيدها سوءاً.

عندما فتحت هفاف الباب ارتجت العمارة، وعندما أغلقته ارتجّ ثانية، فوقفنا أبلهين حقاً، يحدق كل منا في الآخر. قلت: قصف مدفعي، فسألت: من يقصف من؟ وتوالت ارتجاجات العمارة، ثم تداخلت، فجلست على الكنبة الأقرب، وقلت: في دوار الدلّة مسلحون ورايات سوداء، ترى هل تقصفهم مدافع الفرقة ١٧؟

• وعلى عهدة الراوي أن فصيح العلي روى فقال:

الحمد لله ثم الحمد لله. المسلحون يملأون ساحة الساعة. وهؤلاء الذين يكبرون وينطون ويعانقون المسلحين هم من سجناء السجن المركزي الذي سقط أخيراً بعد ما طال حصاره. القصف على قصر المحافظ لن يُبقي منه حجراً على حجر. المعركة الحامية كما يقولون حول فرع الأمن السياسي أو

حول فرع الأمن العسكري. وقد تكون حول الفرعين، أما باقي الفروع الأمنية ومراكز الشرطة فسبحان الله، قرص ملح وذاب. لماذا كنا نخافهم إذاً؟

الحمد لله ثم الحمد لله. قل جاء نصر الله والفتح.

• وفي عهدة الراوي أيضاً أن رياض هباش روى فقال: في الخامس عشر من آذار، كان أمر الرقة قد أبرم. وروى أنه هو من دفع بابنه وابن أخته إلى أن يحشدا من أقرانهما حشداً ويهتفا: جبهة النصرة لا تمثلني، ويذكّرا جبهة النصرة وغرباء الشام وأحرار الشام والجيش الحر وكل هؤلاء الذين يتسابقون إلى الرقة، بتحريمهم دخول المدينة حتى عشية الرابع من آذار، حرصاً على النازحين. ولكن ها هم النازحون بدأوا يفرون بعد أيام فقط من هذا الذي يخاف رياض من ألا يكون تحريراً للرقة، فما هو إذاً؟

• وبعد أسابيع روى إياس غانم نقلاً عن ابنته حلا وزوجها وسيم أبو عطوف أنه عندما استولى الجيش الحر على جزء كبير من الطبقة لازمنا البيت مثل كثيرين. وعندما بدأ من هربوا يعودون إلى منازلهم خرجنا، ورأينا، الشهادة لله، الشوارع نظيفة وهادئة وخضرة الربيع تبرق. ولكن الهمسات راحت تكبر، وركبنا الخوف من أن ينفذ من

يهددون تهديدهم، فيقطعون مياه الفرات عن حلب، والكهرباء عن الساحل، وسمعنا أن الجيش الحر لديه أسرى من جيشنا الذي لا يزال يضع يده على المطار. ليت حارتنا كانت تحت سيطرته. صحيح أن الجيش الحر ترك السد للموظفين والعمال يديرونه كالعادة، ولكن من هم هؤلاء الملتحون؟ وراية من هذه الراية السوداء؟ من منا لا يشهد أن لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله؟ ولكن ما علاقة الشهادة بهذه الراية، هل هذه هي الثورة التي كنتم توعدون؟

• وفي عهدة الراوي أن الرواة تكاثروا خلال أسابيع، واختلطت الروايات:

١) موسى العايد أرخى على شرفة بيته في الطابق الثالث علم الاستقلال، وفي روايةٍ: علم الثورة، فبلغ العلم شرفة الطابق الأول: من أين جاء موسى. بهذا العلم؟

٢) في دوّار سوق الخضرة في الطبقة قطعوا يد شاب لم يحلق ذقنه بعد، لأنه سرق... سرق ماذا؟

٣) ومن الطبقة أيضاً خذ هذا البيان الذي يعلن تشكيل حرائر سوريا من الطبيبات. لماذا لا تسعى الدكتورة ميسلون عبد السلام لتشكيل مماثل في الرقة، وبدلاً من ذلك تتهيأ لإغلاق العيادة والنزوح إلى الساحل؟

٤) وموسى العايد من جديد، وعلم الثورة من جديد ولكنه صغير هذه المرة، ويتقدم مظاهرة جامع الفواز. وهي في روايةٍ مظاهرة جمعة (لاجئون والشرف والكرامة عنواننا)، وكذلك كان في جمعة (حماية الأكثرية) التي أثارت لغطاً كبيراً في تنسيقية شباب الرقة. وفي روايةٍ أنها أثارت خلافاً حاداً في لجان التنسيق المحلية في الطبقة، و/أو في لجان التنسيق المحلية في الرقة، وكان موسى نفسه ممن حذروا من الانزلاق شبراً أو ذراعاً في الهاوية الطائفية.

٥) ومن اختلاط الروايات جراء ازدحام الرواة أيضاً أن طائراتنا، كما ينقل إياس غانم عن صهره وابنته، أو طائرات النظام كما يقول موسى العايد أو رياض هباش أو منيب وهفاف، قد قصفت في يوم حي البياطرة فمحت صيدلية الحي، وزلزلت فرع شرطة النجدة، وأطلقت عاصفة الغبار التي جللت الحي وجواره، كما قصفت منطقة الملاهي أو خلفها في يوم، ومحطة محروقات اتحاد الفلاحين في يوم، وقصر المحافظ مرة أخرى في يوم، ومحطة تحويل الكهرباء في يوم.

وفي يوم، يُروى أن طائرة الميغ سقطت بينما الأمطار الغزيرة تواصلت من قبل سقوطها عشية عيد الجلاء إلى ما بعد العيد.

٦) وكان فصيح العلي الذي أرخى ذقنه، لا يفتأ يردد طوال أيام المطر الربيعي: وأمطرنا عليهم مطراً فساء مطر المنذرين، صدق الله العظيم. وفي هذه الرواية أن فصيح انضّم إلى جبهة النصرة لقاء مرتب شهري يبدأ بخمسماية دولار، وأنه دعا موسى العايد إلى الجبهة، لكن موسى أبى واستكبر كما نقل فصيح لقائده في الجبهة محرضاً. وأقسم فصيح أن موسى العايد هو من كان يهتف في المظاهرة في دوّار الدالة: لا سنية ولا علوية، سوريا وحدة وطنية.

٧) ومن طرائف اختلاط الروايات أنه بعدما سقطت فروع الأمن جميعاً، وأخذ الكثيرون ممن اعتقلوا في تلك الفروع، ومن ذويهم وأصدقائهم يزورون السجون المفتوحة، مضى منيب إلى بيت هفاف بعد خصام طال، وندر أن قطعه اتصال هاتفي أو رسالة نصية أو إيميل أو رسالة واتساب. ودعا منيب هفاف إلى زيارة السجن الذي نزل فيه في فرع الأمن السياسي وفي فرع الأمن العسكري. وقد رافقته هفاف، لكنها ظلت صامتة، بالأحرى حردة أو مخاصمة، حتى وقف منيب أمام غرفة التحقيق أو التعذيب، ما عاد يذكر، في الفرع الأول، وعجز عن النطق، فتأبطت هفاف ذراعه بحنان، وأسندت رأسها على كتفه، فامتلأت عيناه بالدمع.

٨) وثمة روايــة تقول إنــه بعدما صار موسى هتّاف المظاهرات ضد النظام، اعتقله فرع أمن الدولة ظهيرة الاحتفال بالنصر في ذكرى حرب تشرين ١٩٧٣، وهو يوم عطلة. وبعد ثلاثة أيام من التحقيق، أي من التعذيب، نقل إلى الفرع النظير في دير الزور، وبعد ستة أيام من التحقيق – التعذيب نقل إلى السجن البولوني في حمص، حيث نُسي تسعة وعشرين يوماً، ثم نقل إلى سجن الشرطة العسكرية في القابون في دمشق، وبعد ثلاثة أيام من النسيان نقل إلى فرع فلسطين بجوار الجمارك في دمشق أيضاً، وبعد يوم من التحقيق، أي من التعذيب، سقط في النسيان أحد عشر يوماً، لينقل بعدها إلى السجن المركزي في الرقة. ومن السجن هاتف في يومه الثاني هفاف ومنيب، وبعد زيارتهما له بثلاثة أيام أطلق سراحه، فلم يبت في بيته غير ليلة، ثم اختفى. وبعد ثلاثة أسابيع عندما ظهر، روى لهفاف ولمنيب، أن ما كابده من تقاذف الفروع والسجون له كأنه طابة من «الشراطيط»، هو ما قذفه إلى تل أبيض، ليلتحق بأحرار الشام وقد امتلأ بالعزم على مقاومة النظام بالسلاح. لكن ما عاشه في معسكر أحرار الشام جعله يدير لهم ظهراً، فليس من أجل دولة إسلامية ولا من أجل هذه الراية عارضت النظام وجئت إليكم: قال موسى إنه

خاطب الأمير ذا اللهجة الحلبية، وقال: لم أكن أجهل من هم أحرار الشام، لكن ما كنت لأنضمّ إلا للفصيل المسلح الأقوى. وسرعان ما تبيّن لي أن هذا الفصيل في واد، وكل ما كنته وسأكونه في واد، وقد يكون ما رأيته فيه هو ما جعلني أقدر على أن أفكر بهدوء فيما هو السبيل الأفضل لمقاومة النظام، ليس كردة فعل أو كثأر وانتقام.

٩) لكن فصيح العلي يشكك في هذه الرواية، فيروي أنه كان أول من قصده موسى عقب خروجه من السجن، حتى قبل أن يرى أخته هفاف، وأن صديقه السابق كان موجوعاً وممروراً وناقماً ومستعداً للعمل مع الشيطان ضد النظام، فقلت له: ولماذا تعمل وأعمل مع الشيطان؟ لماذا لا نعمل مع جند الرحمن ضد الشيطان؟ فوافقني فوراً، وكنت أثناء اعتقاله قد فتلت خيوطاً مع أحرار الشام ومع جبهة النصرة. وقد فضّل موسى أن ننضم إلى أحرار الشام لأن جبهة النصرة تابعة للقاعدة، وتدعو إلى دولة إسلامية، وهو ينشد دولة مدنية وديمقراطية. وهكذا التحقنا بأحرار الشام، وكانت الدنيا لا تسعنا من الفرحة والثقة والاعتزاز ونحن في درس النظام المنضم نسير على إيقاع جديد، أين منه الإيقاع الذي سرنا عليه، أنا وموسى، أثناء أدائنا الخدمة الإلزامية: أمة /أح

اتنين/ عربية/ أح اتنين/ واحدة/ أح اتنين/ ذات/ أح تنين/ رسالة /أح اتنين/ خالدة/ أح اتنين. أما في معسكر أحرار الشام فصرنا نسير على إيقاع سؤال المدرب: من أنتم، ونحن نهدر: جند الله، ثم نردد خلفه:

في سبيل الله نمضي
نبتغي رفع اللواء
وليعدْ لله عزه
وليعدْ للشعب مجده
ولترقْ منا الدماء.

وفي الصباح وفي المساء، كنا نبدأ نهارنا ونختمه بالجري، ونحن نهدر بما عجزت وعجز موسى عن حفظه، لكنني أذكر منه:

يا صناديد الرجال
يا مغاوير النزال
يا رجالات الشريعة
سوف نبقى في الطليعة
قد سقينا من دمانا
كل صدعٍ من ربانا
نحن أحرار الشآم

ما اعترانا الانهزام

في سبيل الله ثرنا

لا نبالي بالملام.

والحق أن موسى بدأ يتبرم من الصلاة والأناشيد والنظام المنضم، ولم يكن يهمه إلا أن يتدرب على السلاح وأن ينتهي من التدريب بسرعة، ليمضي إلى القتال. ولم يخف ما به على قائدنا وشيخنا، وأوصيت موسى بالحذر، لكن الاعتقال كان قد ذهب بعقله، وصار سلوكه يثير الريبة في المعسكر، ووجّه له قائدنا النصح مراراً، وأظن أن موسى خضع للاستجواب، وفي ليلة ليلاء ترك بندقيته في فراشه واختفى. حتى عني أخفى نيته في الفرار، ولا أظن أن الإخوة سينسون فعلته.

ليس يخفى أنه في هذه الرواية ثغرة أو أكثر، كما في أغلب الروايات إن لم يكن فيها جميعاً. فعلى فصيح، مثلاً، أن يحدد الفصيل الذي كان في صفوفه عندما دخل الرقة، وعلى فصيح، مثلاً، أن يبيّن كيف خرج من أحرار الشام وانضم إلى جبهة النصرة؟ ومن أجل ماذا؟ هل هو الراتب الأكثر مثلاً؟

من الجلي أن عناية أكثر الرواة والروايات قد تركزت في الكبائر، فلم يبق إلا القليل للصغائر، أي لتفاصيل حياة الناس. ومن ذلك أن منيب صادف أمام ما كان مديرية الثقافة، ابن

عمه شعيب، في مساء ينذر بالثلج. ولولا أن شعيب هو من ناداه يابن العم لما عرفه، إذ بدا أنه ازداد قصراً في جلبابه الأفغاني، وازداد نحولاً في لحيته التي ربما لم يهذبها منذ أطلقها. وإذا كان منيب قد تردد في العناق، فشعيب قد صافحه بحرارة شجعت منيب على أن يسأل:

– ماذا فعلت بنفسك يا شعيب؟

تلفت شعيب محاذراً، وبصوت أقرب إلى الهمس قال:

– لو لم أفعل ما تراني فيه لكنت هاجرت، وأنا لا أريد أن أهاجر. حتى لو أردت، زوجتي لاتريد. هي مدرّسة وأنا مدرّس، نعيش على الراتب. ولكي لا نفقد عملنا أعلنّا التوبة كما طلبوا منا، لا تسألني عن ماذا تبت أنا ولا عن ماذا تابت زوجتي، ونحن يشهد الله عمرنا ما ارتكبنا ما يخالف الله. قبلوا التوبة وعدنا إلى العمل بعدما خضعنا للتأهيل الشرعي مثلنا مثل كل المعلمين والمهندسين والموظفين الذين يخضعون لدورات شرعية، ومن لا يقبل يابن العم يعتبر مرتداً، أنت تعرف عقوبة المرتد. احمد الله على أنك تقاعدت قبل مجيئهم.

سأل منيب وهو ينتزع ابتسامة:

– أنت مدرّس فلسفة، فأية فلسفة تدرّس اليوم؟

قال شعيب وهو يتلفت:

– كأنك لست في الرقة؟ أية فلسفة وأية كيمياء و... حرام يا أستاذ، ممنوع يابن عمي. بدلاً من المنطق والمعرفة و.. أنا أدرّس الفضائل، من فضائل الجهاد إلى فضائل النكاح، في القرآن الكريم والحديث الشريف وفيما أورثنا السلف الصالح.

قال منيب:

– كان الله في عونك.

قال شعيب:

– والله أتمنى لو أراك دائماً يابن عمي، لكنني لم أجرؤ على الاقتراب منك. هم يعرفون من تكون.

– وما أخبار الآخرين من أسرتنا؟

– إما مع داعش أو هاجروا. والسلام عليكم.

همس شعيب ومضى مسرعاً كأنه في فرار.

ومن التفاصيل والصغائر تلك هي الرواية التي تتحدث عن إغلاق الجامعة بعد تحرير الرقة من النظام – هكذا يقول كثيرون – أو سيطرة المسلحين عليها – هكذا يقول كثيرون – واللغط الذي تعالى سريعاً في المدينة حول التدخين والمشروبات المسكرة وسهرات المطاعم والغناء والرقص والدبكة واللحى والزكاة ورواتب الموظفين التي يتم تحويلها من العاصمة كأن شيئاً لم يكن. أما الأنشطة الثقافية من

محاضرات ومعارض تشكيلية أو مهرجانات فقد توقفت جميعاً، وبعد ما كانت مديرية الثقافة مثل خلية النحل، ما عاد يُسمع لها صوت، وطغى على المدينة الوجوم والترقب والحذر، وإن يكن صخب كثيرين، بل وابتهاجهم، قد ظل عالياً، كما فشت الفرجة على حفلات العقاب من جلدٍ أو إعدامٍ بالرصاص أو قطعٍ ليدٍ أو لرقبة.

يمامة اسمها أمية

لم ينظر في شاشة الموبايل، لكنه، حين غـردت مثل اليمامة، هتف: أمية، وعاد إلى الشاشة ليقرأ اسمها ورقمها، ولعن غباءه وهو يعود إلى صوتها الذي كان يسأل: أين أنتَ؟

أجاب فرحاً: في الرقة، وأنتِ؟ ولم يصدق إذْ غردت: في الرقة، بل حسبها قالت: في دير مار موسى، فأسرع بطيّ سنوات كثيرات ليلاقيها هناك، سواء كان الأب باولو في الدير أم لا. وتضاعفت فرحته، وظلت تتضاعف حتى ضاق بها قبل أن يوافي أمية، أمام الباب الحديدي الأسود لما كان ذات يوم ثانوية خديجة.

قبل خطوات منها ترامى ذراعاه ليحضناها، لكنها تراجعت خطوة ضاحكة وأشارت محذرة، فازدرد الذراعان الخيبة وهما ينطويان، وتركا كفيه يحضنان كفها، وما كانا سيفلتانه لولا أن اليمامة غردت مشيرة إلى امرأة بجوارها: ما بك؟ نسيتها؟

وليست أمية إذاً وحدها، فهذه سعاد التي افتقد فيها ما يذكره بها: وجه مجعّد، خدان مخسوفان، شيب منفلت في شعرها، والصوت نفسه قد كبر. لماذا ليست فتيةً مثل أمية؟

أخرس منيب السؤال، وهو يتلفت حوله، ثم ينظر في الساعة،

قبل أن يقرر ألا يضيّع الوقت، فيحمل الحقيبة الصغيرة، ويسبقهما إلى السيارة، ويشعر بالامتنان لسعاد لأنها أسرعت إلى المقعد الخلفي، وها هي أمية تشعّ إلى جواره، وتسأل وعيناها تتشربان ما تريان: إلى أين؟

هذا وقت الغداء: أجاب، وأجفل إذ فكّر في أن عليه أن يدعو هفاف أيضاً إلى الغداء، وفي أنه لو دعاها فلن يكون لعينيه أن تضحكا لأمية، ولا لأذنيه أن تطربا لتغريدة اليمامة التي سألته، وربما سألت نفسها: أين أنا؟

قالت سعاد:

– ليست هذه هي الرقة.

ولفح منيب ظلٌّ من الأسى، فانطوى حتى وقفت السيارة أمام العمارة، وأطلّ البيت عليه من علٍ، فأطلق ضحكة عالية قطعها سؤال أمية: خير؟

وبعد صمت حائر اندفع لسانه ويداه تشدان على مقود السيارة:

– بدلاً من أن تأخذنا السيارة إلى مطعم، جاءت بنا إلى البيت. هذا أفضل. سأطلب ما تشتهيان. أين نزلتما؟ ما الداعي لأوتيل؟ هذا أوتيل منيب حسين الخلف يرحب بكما. سأترك البيت لكما وأنام عند موسى.

موسى شقيق هفاف، وهفاف كانت طالبة عندما كنا كلنا ندرّس في ثانوية خديجة. سوف تفرح بلقائكما.

عندما صحا لسانه كانت أمية غارقة في الضحك، فدنا منها هامساً: أصابتني امرأة بالبهت، فقطعت ضحكتها، فهمس بأغنية نجاه الصغيرة: املالي القناني محبة، فالتفتت عنه، فلجأ إلى سعاد التي كانت منشغلة بكتمان ضحكتها، وحبس لسانه إلا قليلاً حتى جاءت هفاف، وكان قد أحضر طبقاً مدجباً من الكباب وصحوناً مدججة كما شاء المطعم.

بحضور هفاف صار منيب آذاناً عديدة، وأحياناً عيوناً عديدة: هفاف قد عادت طالبة في البكالوريا، أي في الثامنة عشرة، بل في السابعة عشرة، وهاتان المدرستان تكبرانها ربما بعشر سنوات، سعاد تستذكر رحلة الربيع مع الجيران، وتتشمم رائحة الحوذال، وأمية تسأل عما إذا كان قد بقي على حواف الفرات شيء من النعناع البري أو البكلة: كنت أجفف وردها الأصفر وأطحنه وأغليه، وأخلطه بالعسل، ثم بالهنا والشفا: قالت وهمست في أذن هفاف بما أضحكها، وضحكت سعاد، وقدّر منيب أن الهمسة تخص واحداً من أمراض النساء التي تعالجها الأعشاب، وانتشى بذكائه، لكنه لم يجروً على أن يجهر بما قدّر، فاكتفى بانفراج شفتيه، وكانت هفاف

تسأل بلا الحرج الذي يعتري منيب، حين أجابت أمية: لم أتزوج، فعقبت هفاف: صرنا اثنتين، وأنت يا أستاذة سعاد؟ أنا تزوجت وترملت الله يرحمه: أجابت سعاد ومنيب ينتظر أن تشير هفاف إليه وتقول – على الأقل – أنا ومنيب خطيبان.

من الغداء الذي امتد حتى العصر، إلى الظهيرة التالية التي غادرت فيها أمية وسعاد الرقة بلا غداء، ندم منيب على أنه دعا هفاف إلى لقاء ضيفتيه، وغالب ما ليس بالضيق فقط، بل لعله كان الغيرة، بينما كانت السيارة تطوف بالضيفتين في الرقة التي كانت وكانت، وفي الرقة الجديدة، كما تطوف الأقدام إلى أن تجفل في شارع الوادي: علم الثورة على عمود كهرباء وسط الشارع، ورايات سود كثيرة، وجمهرة من المسلحين تتحلق حولها جمهرة من المتفرجين، وأصوات تشتبك: لا علم إلا علم الثورة، أنزلوا هذه الرايات السوداء. لن ننزل راية، اسم الله يجب أن يبقى عالياً فأعلى.

وهذه هي إذاً الرقة التي جاءت أمية وسعاد من دمشق لتريا ما تسمعان، وما راءٍ كمن سمعا: قالت سعاد. وقالت هفاف:

– إذاً أنتما من الناشطات.

قالت أمية:

– نحن من المتفرجات.

وقالت سعاد:

- عندما كانت حماة مدينة محررة ذهبنا إليها.

- لتتفرجا؟

سألت هفاف دون أن تفلح بمواربة السخرية، فأجابت أمية دون أن تفلح بمواربة الانفعال:

- في حماة لم يكن للفرجة مكان. شاركنا مثل مئات الآلاف في المظاهرة.

قالت سعاد مقاطعة:

-كانت أشبه بالمهرجان، بالكرنفال، منها بالمظاهرة.

وتابعت أمية:

- أنا وسعاد في الشام، مثل كثيرين وكثيرات نتفرج. لا تستهينوا بالمتفرجين والمتفرجات.

قالت هفاف محتدة:

- لا مطرح للفرجة في سوريا اليوم.

قالت أمية باستعلاء:

- بلا الفرجة يا حبيبتي. نحن من هذا الذي تسمونه الكتلة الصامتة، هل يرضيك هذا؟ أم تنكرين وجود كتلة صامتة، بل كتلة محايدة؟

كان ذلك الحوار الساخن أثناء العشاء في مطعم النيجاتيف،

وقبل أن ينتهوا منه ألقت هفاف بمفاجأتها:

- سنحضر الحقيبة من بيت منيب، وتشرفان بيتي.

ثم التفتت إلى منيب مبتسمة:

- إذا أردت أن تبقى قريباً منا فلماذا لا تنام في بيت موسى؟

ولأنه لم يحر جواباً، التجأ إلى أمية، لكنها لم تلجئه، فعاد إلى هفاف ليلاقي بابتسامة باهتة ابتسامتها التي كانت لا تزال تنتظر.

مثل القمر

صباح آخر مجلّل بالغشاوة التي مازالت ترين على صوت هفاف، على نظراتها وتنهيداتها وحجابها ومصافحتها، ولم تصفُ لمنيب إذاً بعد، حتى إذا أعلن أمامها أنه سوف يعاقب نفسه، إن لم تعاقبه هي على ما بها من كدر، قالت ساخرة: سأصفو، وأخذت تعدد: أنا لا آكل الكدر ولا أشربه ولا أتنفسه، ليست ثيابي من كدر ولا كلماتي من كدر، لست أنت ولا أخي ولا صديقاتي ولا طلابي ولا طالباتي من كدر، ليس هؤلاء المسلحون من كدر ولا هذه الرايات ولا هذه الشعارات ولا هذا الدم، فلماذا لا أصفو؟

كانت قد بكرت في زيارة منيب لأول مرة منذ شهور. وكما جعلته الفرحة ينفلش عندما ملأت الباب، جعلته الخيبة ينفلش أيضاً وهي تخرج، ولم يجد ما يقوله وهو ينزل الدرج خلفها حتى حاذت باب بيت قارو، فاقترح عليها أن يعرجا قليلاً. بيري وولات هنا، صار لهما بنت مثل القمر.

بصمت استجابت، ولم تكد تنطق بعدما حملت القمر، بينما تابع ولات ما انقطع من حديثه، سوى أنه التفت عن قارو إلى منيب: من حلب يا أستاذ، من حماة، حتى من الرقة، لو قلت لك:

مئة ألف لاجئ، زد فوقهم خمسين ألفاً، زد مئة، ولو سألوك عن يوم الحشر: قل هو في تل أبيض.

ابتسم منيب بينما مال قارو إليه شاكياً:

– صار ولات يبالغ في كل شيء، لم تكن هذه عادته، اخصمْ من كلامه النصف.

قال ولات بحماسة:

– بالعكس، أنا لا أقول إلا نصف ما هو في الواقع. اسأل بيري.

والتفتوا جميعاً إلى بيري التي كانت تتهامس مع هفاف، وكانت هفاف تحتضن البنت التي مثل القمر كأنها ترضعها، وتابع ولات:

– تل أبيض صغيرة يا أستاذ، أنت تعرفها، المدارس امتلأت باللاجئين، حتى دوائر الدولة امتلأت بهم، أما الخيام، فلا تسأل. ماذا تظن أنهم يأكلون؟ المعكرونة والبرغل، والطبخ على ماذا؟ الطبخ على الحطب.

قال قارو:

– ادعوا الله أن يرأف بنا ولا يبلونا بمثل ما ابتلاهم به. أنا خائف. إذا كان لواء جبهة الأكراد حماكم في تل أبيض فمن يحمينا نحن هنا؟

فسأل منيب وعيناه معلقتان بحضن هفاف والقمر اللابد فيه:

– ما الذي يجري في تل أبيض حقاً؟

قال ولات:

– لواء جبهة الأكراد اعتقل أمير الدولة في تل أبيض، لأنهم صاروا يعتدون على أي كردي يصادفونه. فور الاعتقال نشروا القناصة على الأسطح واعتقلوا أكثر من ثلاثمئة كردي، وبدأت معركة لم تهدأ حتى أفرج اللواء عن أميرهم، فأفرجوا عن المعتقلين، وبدأ الناس يهربون. اللاجئون أنفسهم هرب منهم كثيرون. الكردي هرب إلى القرى الكردية والعربي إلى القرى العربية.

قال قارو:

– العرب وصلوا إلى الرقة، ولكن نحن إلى أين نذهب إذا ما هجّرونا؟

فسأل منيب وهو يشير إلى القمر في حضن هفاف:

– هي لاجئة إذاً؟

قالت بيري:

– أنا لا أستطيع أن أصدق هذا الذي يجري. قبل أيام كنّا يداً بيد، كرديات وعربيات وكلنا متطوعات.

فسألت هفاف:

- كنت في جمعية (أنا هي)؟

قالت بيري باعتزاز:

- أنا من المؤسسات وكنا جميعاً قلباً واحداً، ولا نهدأ. دورات محو الأمية، تجهيز الأعلام، لا تسألي عن السنارات وماكينات الخياطة والإكسسوارات، وكنا نبيع أشغالنا ونوزعها على المحتاجة من الجمعية ومن غيرها، يا حسرة.

قالت هفاف وهي تهدهد القمر في حضنها:

- لا تتحسري. هنا الكثير الذي يمكن أن تقومي به. سأعرفك على تجمع أحفاد الرشيد، شباب وصبايا في مثل عمرك، مثل الورد. آخر ما قاموا به بانوراما الحرب والدمار في حديقة الرشيد. في البداية كان اسمهم أبناء الرقة، ومنهم من كان يخطط لتجمّعهم من قبل التحرير. أنت وولات يمكن أن تعملا معهم، إذا عملتما، فليتكما تستطيعان أن تتبرعا لصندوقهم. من تبرعات الأعضاء فقط يغطون نفقات نشاطاتهم.

- أنت معهم؟

سألت بيري، فقالت هفاف مبتسمة، وهي تقرب القمر من شفتيها:

- قلت لك شباب وصبايا، وأنا كما ترين.

- أراك ست الصبايا.

قالت بيري، وكان قلب منيب يخفق: أنت أحلى الصبايا، ولما وقفت مودعة، وقف، وهتف لسانه بخفق قلبه، فبهتوا جميعاً ريثما جازته بابتسامة خجلى، ثم أفلتوا ضحكاتهم وهزجهم، وأولهم القمر الذي في حضنها.

قاشوش الفرات

لاقى موسى هذا الصباح بالضيق الذي لازمه منذ سرى نبأ اعتقال فراس الحاج صالح. لم يكن ما به خوفاً، بل ربما كان على العكس: هديراً في قمقم، والسؤال يكويه: واحد من أنبل الشباب، لماذا يعتقلونه؟

– يعتقلون فراس وأمثاله لكي يرعبوا الآخرين.

قال منيب عندما صفعه موسى بالسؤال. وقالت هفاف:

– لكي يفرغوا الرقة من شبابها، استعد، فربما يكون دورك قد اقترب.

واقترن حاجباها، وخفت صوتها كأنها عازمة على إفشاء سر:

– أخوه ياسين هنا في الرقة، لكنه متخفٍ.

قال منيب:

– ياسين كاتب معروف ومطلوب من الجميع. لو وقع في يد أي فصيل إسلامي فلن يرحموه. ولكن كيف عرفت أنه هنا؟

قالت متباهية:

– أسرار ليست إلا لأهلها.

فأدار موسى ظهره لها وخاطب منيب:

- إياك أن تعطي سرك لامرأة، بخاصة إذا كانت مثل أختي.

على غير عادته في مثل هذا الوقت من الصيف، كان الصباح رطيباً، وجاء الضحى أيضاً رطيباً، وموسى يمشي مسكوناً بوجوههم واحداً واحداً: من اعتقلوا ومن هاجروا، وبين شارع وشارع أو ساحة أو حديقة، كان وجه فراس يستبد به، حتى رآهم: أربعة فتيان، ولكلٍ: بنطلون الجينز، قميص أبيض، قميص أحمر، وقميصان برتقاليان، والجدار الذي يطلونه يتطاول في نهاية الشارع الذي يستقبل دار الولاية، أي دار الخلافة، أي قصر المحافظ.

كان الفتيان يطلون الجدار بالأبيض، وعلى يمينهم شابان قدمهما لموسى الفتى الأكبر: صحفيان. وما كاد الفتيان يبدأون بالرسم حتى وقفت على أمتار منهم ميتسوبيشي بيضاء، ومنها قفز ملثم يكاد لباسه المبرقع ينفجر به، وطلب من الصحافيين أن يعرفا بنفسيهما، وتجاهل موسى.

ربما قال الرجل إنه من شرطة الدولة الإسلامية، لكن موسى لم ينتبه، لأنه كان يتابع صمت الفتيان حتى غادرهم الرجل. وظلت قسمات وجوه الفتيان كظيمة، بينما أخذت أصابعهم ترشق الجدار بالأحمر الناري، شهباً وسهاماً وما يشبه عيوناً.. حتى عادت الميتسوبيشي، وعاد الملثم مع آخرين قفزا

تسبقهما بندقيتاهما وصياحهما: ممنوع الرسم هنا. توقف الفتيان، ولكن كاميرتا الصحفيين راحتا تتسابقان، فأشار ملثم، فتوقف التصوير، وقال ملثم:

– أعتذر، لكن الرسم حرام.

ومسّد ملثم على لحيته مبتسماً، وقال برقة:

– لا تخافوا، نحن لسنا إرهابيين.

جمع الفتيان أدواتهم، وانصرف الصحافيان، وانتظر موسى حتى غادرت الميتسوبيشي، فتابع سيره بضيق أكبر، بينما أخذ صوت قاشوش الرقة يدوّم في صدره:

الرقة حرّة حرة

وداعشْ يطلعْ برّا

وهيه ويلّله

وداعش يِطلعْ برّا

ولما هدأت خطاه، وتلامح له الفرات بعيداً، كأنه صار هو الأفق، داهمته لأول مرة الغيرة من قاشوش الرقة. وتمنى لو أنه يستطيع أن يدبر مثل الكلمات التي يدبرها القاشوش، لكان للرقة وحدها قاشوشان بدلاً من واحد. بينما ليس لحماة إلا قاشوش واحد، ولا لدرعا. وأخذت غيرته تتبدد وهو يستعيد من كل قاشوش هتفةً أو مقطعاً، وكان قد وصل إلى حيث تقف

سيارة منيب أمام العمارة، فأخذ يردد وهو ينهب الدرج:

أنا السوري

شارع تل أبيض يشهدْ

الرقة ما خذلت حدْ

ثرنا ومن الله المددْ

وحين فتح منيب الباب دخل موسى مردداً ببحة حزينة: باچوك يا وطن، فنادى منيب:

– تعالي يا هفاف، اسمعي قاشوش الفرات.

فابتسم موسى معجباً باللقب، ولما وجد هفاف وموسى رضيين لأول مرة منذ دهر، لهج بحمد الله، فالتفتت هفاف إلى منيب قائلة:

– بيت موسى هو البيت المناسب تماماً للسهرة.

ولم تفسح لتساؤل نظرات موسى، بل أردفت تخاطبه:

– الأب باولو دالوليو هنا ونحن نخطط للسهر معه، ولن يكون وحده بالتأكيد. أنت أيضاً يجب أن تدعو من يهمهم أن يلتقوا به من الشباب.

سأل موسى وقد بدا أنه يفكر في أمر ما:

– متى جاء؟

قال منيب:

– ليلة البارحة ومنذ ساعة كلّمني. هو الآن في مقر الولاية.

– يجب أن ننظم له لقاءً حاشداً. علينا أن نستفيد من زيارته. ولكن ما الذي جاء به في هذه الظروف التي لا تسرّ صديقاً؟

قال موسى وهو يندفع إلى الباب دون أن ينتظر جواباً، بينما أخذت هفاف تتمتم معجبة وهي ترمق منيب: قلت لي: قاشوش الفرات، والله لقب حلو، مبروك عليك يا موسى.

باولو

كما ضاقت الشرفة بمن احتشدوا حول باولو وهو يخطب فيمن احتشدوا ملء الساحة لاستقباله، ضاق الصالون في بيت موسى بمن دعاهم هو أو منيب أو هفاف أو باولو أيضاً.

كانت الساعة قد تجاوزت العاشرة عندما وصل باولو ومنيب، وفي المطبخ، واقفاً، تناول باولو لقيمات من الجبنة الرقاوية وخيارة رفض أن تُقطّع. ولما انتهى وعدته هفاف بالعشاء بعد السهرة، وهمست ضاحكة:

– أما إذا كنت ستشرب كأساً من غير الماء، فاستعد للجلد.

فردّ بهمسة مقنّعة بالجد، ومومئاً إلى منيب:

– مازلتِ وإياه في الزواج تقريباً؟

وأسرع إلى الصالون وضحكتها تلاحقه. وقبل أن يحضر آخر المدعوين خاطبهم وعيناه تطوفان على وجوههم:

– في الساحة تركتموني أحكي شروي غروي، والآن جاء دوركم. أنا بحاجة لأن أسمع منكم.

والتفت إلى منيب غامزاً:

– خصوصاً من الشباب الذين لا يزيد عمر واحدهم عن عمري عشر سنين فصاعداً.

تموجت ضحكات رقيقة بينما تعهد منيب بالصمت، وكانت نظرات هفاف تتشرب السماحة التي تضيء وجه باولو، وقالت ممازحة:

- إذاً ليس لمثلي دور في الكلام.

قال باولو:

-بل لك الدور الأول.

قالت هفاف:

- مثل الحلم مرت علينا الشهور الأربعة بعد رحيل النظام عنا. كانت الرقة كما سماها الشباب: عاصمة التحرير. واليوم في كلمتك قلت: الرقة هي المنطلق إلى تحرير العاصمة. أنا خائفة من أن يكون هذا الكلام لم يعد صحيحاً. أنا كامرأة خائفة، وكل من ليست منا نحن النساء مع هذا الربيع الأسود، خائفة، كل من ليست منا مع ربيع داعش وأخواتها، خائفة، وأظن أنه بين الشباب من هو خائف مثلنا.

قالت سنية عايش عبد الحميد وهي تضبط الحجاب على خديها:

- أنا مع أستاذتي هفاف. وخوفي يكبر كلما رأيت المعارضة كأنها غير مهتمة بالرقة. أحياناً يخطر لي أنها تركت الرقة أو ستتركها لهؤلاء الذين يريدون أن يعودوا بنا ألف سنة إلى الوراء بحجة الدين والإسلام.

قالت بيري:

- هؤلاء يجرون الواحدة منا من شعرها ولا يحسبون حساباً لا لأصل ولا لفصل. النظام نفسه كان يحسب ألف حساب لعشيرة الواحدة منا أو لعائلتها قبل أن يرسل إليها من يسألها عن الكحل في العين. أي فرع من فروع الأمن كان يتجرأ على اعتقال امرأة؟

قال رياض هباش ساخراً:

- إذا كان ليس لأحد كرامة عند هؤلاء، لا رجل ولا امرأة، فالنظام أيضاً ما عاد عنده كرامة، لا لامرأة أو لعشيرة أو لأي أحد أو لأي شيء.

قال إسلام:

- بقدر ما فرحنا عندما تحررت الرقة، بقدر ما ثارت شكوكنا عندما علمنا مثلاً أن من اقتحموا قصر المحافظ هم جبهة الوحدة والتحرير الإسلامية وجبهة مجلس الشورى. والآن هم وغيرهم سرقوا الثورة.

قالت سنية:

- لأنها ليس لها من يحميها، أو على الأقل من يحميها ضعيف.

قال موسى مخاطباً باولو:

- من يسمع كلامنا الآن يضربه اليأس. ومن يسمع كلامك

في الساحة تعود إليه الروح. لو جئتنا قبل شهرين أو ثلاثة لرأيت في عزّ الربيع الرقاوي كل خمسة أو ستة أو عشرة شباب يدبرون كم كلاشينكوف وكيس رصاص ويعلنونها كتيبة كيت وكيت، ويبدأون يسيدون ويميدون. منا من ردع منهم ولكنهم كانوا لا يحتملون، والآن صرت ترى بعضهم مع هذه الجبهة أو هذا الفصيل، ويلوح براية الإسلام. نحن بحاجة إلى هذا الذي عندك من التفاؤل.

قال باولو:

- المجموعات المتطرفة، دينياً أو كيفما كان تطرفها، هي سرطان، وعلينا أن نعالج هذا السرطان وإلا سوف يفتك بنا. أنا تجولت في مناطق كثيرة قبل أن يطردني النظام من سوريا. حتى عندما كنت في السليمانية في العراق، كنت أتابع كأنني مازلت أنتقل من مدينة إلى مدينة. وبعدما رجعت وجدت الكثير مما لا يبشر بالخير، ابتداءً من أول خطوة خطوتها بعدما قطعت الحدود التركية. للأسف، بيننا من يسرق، وليس كل من يسرق من عناصر النظام. بيننا من صار طائفياً وهو من كان أمس علمانياً أو قومياً. ولكن لن أسمح، لا لهذا كله ولا لما هو أكبر منه، أن يركعني ولا أن يربكني. أنا حضرت مؤتمر المعارضة في القاهرة، وفي لحظة غضب

انسحبت وصحت بهم: ولكْ شوهاد؟ كل واحد بده شقفة من سوريا؟ ولكْ هاي سوريا يا عالم. تألمت، بل بكيت. قلبي بكى وليس عيني، ولكن لم أضعف. عندما طردني النظام تألمت وبكى قلبي كما بكت عيني، ولكني لم أضعف. عندما قتل أول انفجار في الشام من قتل، أحسست أنه يقتلني أنا أولاً، ولكني رأيت أيضاً عند مقاتلين من إدلب إلى تل أبيض ما يرد الروح. لا تضحكوا عليّ إذا قلت لكم إنني ابتهجت عندما دخلت إلى مرحاض ووجدته غاية في النظافة، على العكس مما يحكى عن قذارة العسكر. قلت: هذه إشارة ولو بسيطة إلى تغيير مهما يكن بسيطاً. في القصير قالوا لي: وصيّنا يا أبونا، قلت: علينا أن نصون حرمة جسد الإنسان، كائناً من كان. عندما تشوه كرامة عدوك التي شوهها هو بنفسه، فأنت تشوه كرامتك، ونحن على كل حال مازلنا في أول الطريق. اسمعوا هذا الذي سمعته قبل أن يطردوني بأيام، من سيدات مخمليات: واحدة قالت: إي بلا مليون أو مليونين، سوريا فيها زيادة كثير، وواحدة قالت: خلونا نخفف شوي من هالزبالة، شو المشكلة؟ بماذا تختلف مثل هذه السيدة عن الذين تشكون من تسلّطهم ودمويّتهم من أيام النظام إلى هذه الأيام؟ اعذروني إذا كنت قد أطلت، ولكن وصيتي الأولى والأخيرة لكم هي: المصالحة

هي مستقبلنا، ولكن لا مصالحة بلا ديمقراطية. أرجوكم فكروا بها وصونوها.

والتفت إلى منيب ممثلاً:

– والآن اسمحوا لهذا الشاب أن يدلي بدلوه.

فقال منيب:

– لن أزيدكم غماً، لذلك أكرر السؤال الذي همسته لك عصراً وتجاهلته: ما الذي جاء بك إلى الرقة، هل ستصور للتلفزيون هنا وتجري مقابلات كما فعلت في ريف إدلب؟

قال باولو:

– لا. أنا هنا لمهمة أخرى، ادعوا لي بالتوفيق.

وكان موسى قد أخذ يدندن وهو يلتفت يميناً ويساراً محرضاً من حوله على الدندنة، ولما استجاب له بدأت أصابعه تنقر على الترابيزة أمامه، وصوته يعلو:

رقة رقة رقة

وبقلبي نار وحرقة

وأخذ الآخرون يرددون خلفه، وكان صوت باولو أعلى الأصوات.

ليل هفاف

اجتمعت على منيب الدهشةُ مما يرى، وسحرُ ما يرى، وإنكاره أيضاً: رأس هفاف يخفيه الحجاب الفيروزي.

لا بد أنها اختارت هذا اللون لأنه لونك المفضل، والخصام بينكما إذاً ليس مكيناً، وربما كان قد انتهى، لو أنك تنازلت عن كبريائك قليلاً، قليلاً جداً، وجئت إليها، بدلاً من أن تدع الخصام يتطاول، كما لم يكن منذ سكنتك زمن ثانوية خديجة، إلى هذا المساء.

حين نوت أصابعه أن تتلمس الحجاب، ارتعشت، ولم تجرؤ على أن تغادر جنبيه. وصوته أيضاً كاد أن يتخلى عنه، فاكتفى بهمسة لا تكاد تُسمع:

– بالحجاب أنت أحلى، وسافرة أنت أحلى، و... ماذا أقول؟

وانتظر صوته حتى جلسا متجاورين على الكنبة العريضة، فأشفق الصوت عليه وعلا قليلاً:

– بالحجاب يصير شعرك لي وحدي.

– حرام يا أستاذ.

قالت مبتسمةً، فلاقى ابتسامتها مُظهراً الحزم:

– حرام على غيري.

- نسيت أنك غريب؟
- أنا خطيبك.
- أنا حلال لزوجي يا خطيب.
- أنا زوجك يا هفاف.
- بأي شرع يا منيب؟
- بشرع الحب.
- وشرع الله؟
- استعدي إذاً بينما أعود بالقاضي وبشاهدين.

قال وهو ينهض، فأمسكت بيده آمرةً بالجلوس. وأخذ صوتها يتقافز ويتبدل كأنه يهرب بها من أمر. وبعد قليل سألته فجأة عما إذا كان يعرف من هو مصمم زيّ حجاب خير النساء؟ تساءل ببله: ومن هي هذه؟ فضربته على ظهر كفه عقاباً على جهله، وقالت: قرينة رئيس الجمهورية التركية، فأعلن جهله بمن يصمم لها الحجاب، فقالت: هو نفسه مصمم أزياء ناعومي كامبل ولورا بوش، لا تقل إنك لا تعرف من تكونان. ولم تأبه بإعلانه جهله ثانيةً، ولا بتساؤله: مالنا ولكل هذا؟ بل اندفعت تحدثه عن دمية باربي الإيرانية المحجبة، اسمها سارة يا جاهلين- لم تقل يا جاهل- ولا تختلف عن باربي الأمريكية إلا بأنها بلا صديق، ولا تنسَ فلّهَ

الخليجية يا أستاذ، باربي الخليجية يا أستاذ التي لا تخرج إلا برفقة أخويها بدر ونور، لا تقل إنك لا تعرف من تكون.

ظل منيب صامتاً، وتابعت هفاف مستعيذة من جهل الجاهلين، فسألت عن دمية رزان الأمريكية المحجبة في ولاية ميشيجان، والتي تباع في بريطانيا وأمريكا. عندئذٍ تجرأ منيب على أن يهمس مصطنعاً الورع: وقل ربي زدني علماً، فجازته هفاف بابتسامة، وجهدت في أن يكون صوتها مثل ملامحها ونظراتها، بالغ الجد: اقترحتُ على مجموعة كبيرة من النساء، منهن زوجة الدكتور نوري وزوجة الشيخ جابر الأولى، وروضة و... المهم هو الاقتراح: مشروع تجاري سيجعل من الواحدة منا مليونيرة في سنة إن شاء الله. مقهى مثل مقهى صبايا في القاهرة، خاص بالنساء، لا موسيقا ولا مشروبات روحية ولا سيجارة ولا أرجيلة، وفيه زاوية تبيع ملابس المحجبات، وزاوية لتصفيف الشعر وسائر ما يزيّن الزوجة لزوجها. ويمكن أن نطور المشروع فنستورد للمحجبة حجابها من أزياء إيف سان لوران، مادام قد فتح خط إنتاج للحجاب خاص بنا، في العالم الإسلامي، ما رأيك يا أستاذ؟

طالت حيرة منيب في الجواب، وطال انتظار هفاف له إلى أن قال:

– حدثتني أم باسيل أن مجموعة من النساء كنّ يحملن لافتة عليها: الحجاب عفة وطهارة، قد وقفن أمام الجامعة، ثم انتقلن إلى أمام مدرسة بلقيس، ثم إلى أمام مدرسة حميدة الطاهر، وهكذا..

فقاطعته هفاف ساخرة:

– لم تحدثك أم باسيل عن اللواتي كنّ في هذه المجموعة يحتمين من الشمس بالمظلة الأكثر بياضاً من الحجاب الأبيض؟

زمّ منيب شفتيه، ونأى صدره عن هفاف، كأنه صحا فجأة على أن كل ما يقولانه إنما هو التفاف على حديث آخر أو هرب منه: لماذا كان خصامنا؟

وإذْ أدركت هفاف ما به نأى صدرها، وأرسلت نظراتها بعيداً عبر باب الشرفة الزجاجي حتى بلغت النهر، فغطست فيه، ولم تخرج منه إلى أن استطاع منيب أخيراً أن يقول:

– كم خفت منك في هذه الفترة.

– بدلاً من أن تخاف عليّ.

– تعلمين أنني أثق دائماً بأنك أقوى من كل ما يواجهك.

– لكنك لم تقدّر ماذا كانت أمي بالنسبة لي، بخاصة بعد وفاة أبي، وبعدما هدها المرض. لم تقدر ماذا فعلت بي

وفاتها. وقبل أن أفقدها، وبعدما فقدتها، لم تقدّر ماذا فعلت بي هذه الانتكاسة التي تكبر كل يوم، كأن الرقة لم تتحرر يوماً من النظام. ستقول: أنا أيضاً فعلت بي هذه الانتكاسة ما فعلت. لكن الثمن الذي أدفعه أنا ومن هن مثلي من النساء لم ولن تدفعه أنت ومن هم مثلك من الرجال. الآن بهذه السرعة، صار الحديث عن الحجاب بائتاً. حديثهم الآن عن النقاب. ماذا يعني أن يفرض عليك من يفرض، وباسم الله، كيف تلبس وكيف تمشي، وكيف..؟

وغصّت، واختفى صوتها، وارتعشت أصابع منيب، وغافلته لتتسلل إلى أصابع هفاف التي ظلت ترسل نظراتها إلى النهر. وعندما هجعت أصابعها بين أصابعه، استعادت صوتها، فجاء تلفه بحّة:

– كرهت نفسي. كرهتك. كرهت كل رجل في الدنيا. كرهت كل ذكر في الكون. لماذا يفعلون بنا، نحن النساء خصوصاً، ما يفعلون؟ هل هذه هي الرقة أم تورا بورا؟ ليس السكري وحده ما كان يجب أن يصيبني. حتى نهاري انقلب ليلاً وليلي انقلب نهاراً. صرت أخطط ليل نهار لفراري من الرقة. كنت سأتركك وأترك موسى وقبر أبي وقبر أمي... كنت سأترك الفرات وما مضى من عمري وما تبقى لي.. كنت سأترك روحي وأهرب.

أيام بطولها لم يغمض لي فيها جفن. وعندما غلبني النوم أول مرة نهاراً بطوله، كان أول ما فكرت فيه عندما صحوت أنني سأموت إذا تركت الرقة، وأنا لا أريد أن أموت. يجب أن أعيش على الرغم من كل هؤلاء الذين يقهرونني اليوم، كما عشت قبلهم على الرغم من كل الذين ظلوا يقهرونني حتى البارحة. قررت أن أبقى هنا على صدورهم. وبدأت أستعين عليهم بالقراءة. من زمن الجامعة لم أقرأ كما قرأت، ولم أسمع موسيقا وأغاني كما سمعت. كم تمنيت لو أنني أعرف كيف أرسم أو كيف أكتب، لكنت رسمت وكتبت. لو لم تأت اليوم كنت سأتصل بك. ربما كنت سأذهب إليك، دون أن يعني ذلك أنني لن أعاقبك على صمتك، على جفائك، ماذا تسمي هذا الذي بدر منك؟

وأرخت رأسها على مسند الكنبة، وأغمضت عينيها، واسترخت كأنها تغزل غفوة، بينما أخذت عينا منيب ترمقانها في خشوع. وفي سره أنكر أن يكون قد بدر منه ما يؤذيها، لأنه لا يستطيع أن يحيا بدونها، وكل ما كان في دهر الخصام هو أنني كنت خائفاً، خفت من أن تصدق الشائعات فترمي الهليوكبتر على سطح بيت أم باسيل، أي على سطح بيتي وبيت قارو، برميلاً متفجراً واحداً فقط من البراميل التسعة

التي رمتها في شارع المجمّع الحكومي، فلم يسلم زجاج ولا سطح ولا باب ولا الإسفلت ولا بلاطة من بلاط الرصيف ولا المتسوّل القعيد، ولا البسكليت التي طار عنها راكبها ولم يحطّ لأنه تحول إلى نثار طيّره هواء الهليوكبتر.

ولأن أنفاس هفاف انتظمت ومنيب قد تيقّن من غفوتها، بات أقدر على أن يجهر بخوفه من الشائعات التي أسقطت البراميل المتفجرة على سد الفرات، بدلاً من الهليوكبتر، فانفجر السد كما في أفلام الرعب الهيتشكوكية، وشقّ الماء صدر السماء، وأطلق طوفان نوح البحيرة صعداً إلى منابع الفرات ونزولاً إلى خليج العرب، فلم يبق ولم يذر. والشائعات غالباً ما تتحول إلى حقائق في الفضائيات، لذلك طال خوف منيب وتفاقم وتلاطم حتى أشفق عليه جمع من الشباب، منهم ابن معزز عبد الواحد (علي) وابن ياسين الخليل (أُبيّ -وقد اختار له هذا الاسم عمّه الشيخ الأستاذ جابر الخليل)، وتوفيق ابن فرحان ابن أم فرحان جارة منيب في أول عهده بالرقة. ومن هذا الجمع الذي عرف باسم تجمع شباب الرقة الحر فريال بنت الدكتور نوري الحاج صبحي وخولة الزغال -عمها الدكتور مطر الزغال- ولم يكن في التجمّع من هو فوق العشرين إلا منيب الذي عاد إلى شبابه في بانياس وفي

سنواته الأولى في الرقة، وعمل مع من يصغرونه بأربعين سنة في رفع أكوام الزبالة من ساحة الساعة وميدان النعيم وميدان الدلّة، وفي رفع أنقاض الحواجز التي كان النظام قد قطّع بها أوصال المدينة، وفي تنظيف طابقين من المجمع الحكومي وتأهيل مدرسة درّة الفرات، وكل ذلك خلال فترة لم ينتبه أحد إلى طولها أو قصرها إلا عندما سطا لصوص على مقرّ التجمع: سرقوا المكيف والهاتف والتلفزيون والكومبيوتر وعشر مكانس جديدة وكومة كبيرة من علب السوائل المنظفة... وقد زاد ذلك في عزم الصبايا (السافرات) والشباب. لكن عزم منيب خار، فانزوى في بيته، كأنه يختبر صبره على خصام هفاف التي تناءت أجفانها بأناة، فبدت كأنها تستفيق من حلم ناعش.

أسرة

كانت الرقة قد صارت شبه مقسمة بين النصرة في شرقها، وأحرار الشام في غربها، وداعش في الوسط كما يرسمه شارع تل أبيض. وكانت الرقة قد أخذت تنفث حرها منذ بداية الصيف، حين تواترت الحرائق في أمداء القمح والشعير، بينما المكبرات تعلن: هذا عقاب الذين ينتمون إلى الجيش الحر أو يؤازرونه. وهفاف، كلما شق سمعها إعلان تقول: نكتة.

لم يكن تحديد صاحب المكبر دقيقاً دوماً: لداعش هو أم للنصرة أم لأكثر من فصيل؟ وفي الشتاء ضاعفت الرقة من نفث حرها، فتفاقمت مداهمات البيوت والمحلات التجارية والمدارس.. وتضاعفت الدوريات عدداً وشراسةً، وتكاثرت الاعتقالات، ولم يكن يسيراً دوماً، ولا دقيقاً، أن تُحدَّد الجهة صاحبة الأمر.

في غمرة ذلك، وسريعاً، ما عاد سراً أن الصراع يُستقطب بين داعش وما عداها من الفصائل. ومِن غير مَن يسجل على خصمه أو منافسه نقطة في الصراع، ومِن غير المستفيد من الصراع، ربما كان منيب وحده سعيداً، فبيت هفاف دوهم مرة، وموسى لم يعد ينام في بيته بعدما دوهم مرتين، فقرر

أن ينتقل إلى عقر الدار كما صار يسمي بيت منيب، منذ أن احتل المسلحون بيت أم باسيل، وعقر الدار – أي حضن داعش أو حضن الأمن أو أية جهة تطلبك– أوفر أماناً بحكمة موسى، وما بقي إلا أن تستجيب هفاف لنداء منيب وموسى: إلى عقر الدار.

لتكون غرفة النوم لهفاف وحدها، تقاسم موسى ومنيب الفراشين الصوفيين اللذين ينتظران من ينام في زاوية المكتب، منذ تأثّث البيت، بإشراف هفاف. وفي النهار كان موسى يتحاشى الظهور إلا نادراً، وينتظر عودة منيب وهفاف بضيق يبهظه أكثر فأكثر في غيابهما، وقد سمى هفاف قناة الجزيرة ومنيب قناة الحرة يوماً، وروسيا اليوم يوماً، والجديد يوماً. ومن يوم إلى يوم، كان داعش قد اختطف أمير النصرة في الرقة وهو عائد من حلب، وكان قد خطف قيادياً من أحرار الشام، وأسر منهم عدداً. وفي يوم من بعد يوم تواصلت المعارك بين داعش والآخرين جميعاً، حتى حوصر ما كان قصر المحافظ، أي أطبقت الكماشة على قيادة داعش، وحُرّر خمسون معتقلاً ليس بينهم باولو: يتبادل الخبر منيب وهفاف، فيعقب موسى: إذاً عليك الرحمة يا باولو، وسيقلّبون ما تردد بعد اختفائه ظهيرة اليوم التالي للسهرة في بيت

هفاف: سلّمه داعش للنظام، يا سلام. من اختطف باولو في الرقة هم خلايا نائمة للنظام.. يا سلام! قتله داعش بدعوى أنه عميل لمخابرات النظام. يا سلام!.

في المساء نفسه قررت هفاف أن تنزل إلى بيت قارو، لعل لديه ما ليس لديهم، وسرعان ما عادت لتعلن: من حاصروا قصر الولاية – هكذا نسجت اسماً جديداً من مقر الولاية وقصر المحافظ– هم جبهة النصرة والجبهة الإسلامية وجيش المجاهدين. أين أحرار الشام إذاً؟ سأل موسى مقاطعاً، فتابعت هفاف كأنها لم تسمعه: قبل القصر سيطروا على مبنى البريد وعلى مطحنة الرشيد وعلى... وقاطع الرصاص هفاف هذه المرة، فصمتت قليلاً ثم تابعت: لكن أمراً خطيراً بدأ.

خلال الأيام المعدودة التالية، ومن القليل الذي سمحت به الاتصالات المتقطّعة، ومما نقل منيب وهفاف وموسى وقارو، تأكد أن داعش استعادت المبادرة فجأة، فانسحب في البداية أحرار الشام من البنايتين المواجهتين لقصر الولاية، ومن البريد والمشفى الوطني، كما بدأوا يتسللون من البنايات المجاورة الأخرى. وخلال ثمانٍ وأربعين ساعة فقط فُكّ الحصار عن داعش، واستعادت غرب الرقة من أحرار الشام، لتبدأ المعركة الكبرى مع جبهة النصرة في شرق الرقة، يوماً

فيوماً، ثم يوماً فيوماً، وفي نهاية اليوم الرابع كان الصراع قد حُسم بهزيمة نكراء لكل من عادى داعش، فما السر في ذلك؟

نقل منيب عن ياسين الخليل الذي نقل عن أخيه جابر الخليل أن المقاتلين السلفيين من أحرار الشام امتنعوا عن قتال إخوتهم المجاهدين، وأنهم مع كثيرين من جبهة النصرة آثروا أن يبتعدوا عن الفتنة، وتبعهم من تبقى من الفصائل. غير أن ما أذهل الجميع من كل ذلك، هو أن عشرات من أحرار الشام كانوا يتسابقون نحو تل أبيض، طلباً للنجاة من إخوتهم المجاهدين، فأسرهم حاجز لداعش، في منتصف الطريق – أي على بعد ٥٠ كلم من الرقة – وفي صبيحة اليوم التالي للأسر كانت جثثهم مشلوحة على جانبي الطريق. وفي رواية أنها كانت مكدسة في شاحنة تطير بهم ملبية نداء (الهوتة) قرب سلوكْ.

أما ما تفردت هفاف بنقله فهو أن داعش كان يبث نداءً – عبر المكبرات أو عبر أجهزة اللاسلكي، لم تحدد – موجّهاً لجبهة النصرة، وقد حفظت منه ما تدعي أنه حرف بحرف: سلموا أنفسكم أو انسحبوا، لأن أحرار الشام انسحبوا وتركوكم، وإذا لا تصدقونا اتصلوا بهم على أجهزة اللاسلكي ولن يردوا عليكم.

حين تأكد الانتصار الساحق لداعش، بدا منيب أقلهم قلقاً، وأكثرهم طمأنينة. ومن قبل، طوال أيام الصراع كان يبدو كذلك أيضاً. وما دام ليس لقناة الجزيرة شواغل كبرى – أي لهفاف، بتسمية موسى – فقد رمت منيب بحيرتها فيه: متى كنت غير مبالٍ؟ هل لديك ما تخفيه عني وعن موسى؟

كان قد أعدّ لها كما في كل صباح فنجان الشاي المعطر، وله فنجان القهوة بالهيل المضاعف. وكان قد نقل كرسيهما إلى قرب الباب المفضي إلى الشرفة، لينفتح المدى أمامهما حتى النهر، بينما لايزال موسى يشخر في الصالون، غير بعيد عنهما. ولكي يجيب، انتظر منيب حتى امتلأت عيناه من زرقة النهر، بعدما ظللتاه بشظايا من غيوم فاهية وغامقة وبلا شكل. وأخيراً جاء صوته كأنما يناجي: منذ غادرت بانياس إلى الرقة، عشت وحيداً، أعني: لم أعش في أسرة. في جنة أم فرحان كنت واحداً من أسرتها. ولكني أيضاً لم أكن. على أية حال، عشت وحيداً من بعدها. ها أنا في هذا البيت منذ كم سنة؟ كم بين بيتك وبيتي؟ أنت كنت تعيشين مع والدتك رحمها الله، والآن موسى جارك، أما أنا فبعيد، وإن أكن قريباً. هل تذكرين أغنية نجاة الصغيرة: القريب منك بعيد والبعيد عنك قريب؟ لا، ليست مناسبة لما أريد أن أقوله. عندما جاء

موسى ليقيم معي، دبت في هذا البيت روح أخرى. بقدومك أنت اكتملت الأسرة. هذا ما افتقدته أربعين سنة. في العادة، أن من عاش مثلي، لا يحتمل شريكاً، لا يحتمل أسرة. أما أنا فماذا أريد من الدنيا إلا أن أعيش معك؟ بفضل الصراع بين داعش وأخواتها أعيش مع أسرتي: حبيبتي هفاف وابني موسى، لو تزوجنا عندما جمعتنا ثانوية خديجة لكان ابننا رجلاً مثل خاله موسى. أنا أعيش أخيراً مع زوجتي وابني. لو متّ الآن، صدقيني، سأموت سعيداً يا هفاف.

كانت هفاف تشفّ كلمة كلمة حتى باتت فراشة تكاد تحترق بضوء الصباح المضمخ بزرقة الفرات، لولا أن أصابعها كانت قد غافلتها واندغمت بأصابع منيب. ولكي تنقذه من الموت السعيد عانقته وغمرت وجهه وشعره وعنقه بالقبلات، لأول مرة منذ التجأت إلى بيته، وربما منذ شهور.

أين هو عبد العفيف غنام؟

أمام مكتب الرقابة والتفتيش تبادل منيب وعبد العفيف غنام التحية لأول مرة منذ فترة طويلة.

كانت قد تكومت أمام المكتب تلة من معلبات السردين والطون والحمّص والفول، ومن أصناف أخرى من المعلبات، لم يتمكن منيب من معرفتها. وكان عدد من رجال المكتب قد سوّروا الكومة، وعلى خطوات منهم أخذ يتشكل سور من الذين دفعهم فضولهم إلى الفرجة.

قاطع تحيةَ منيب وعبد العفيف صوتُ أحد رجال المكتب لاعناً الغش ومتوعداً الغشاشين، ومهدداً بالعين الساهرة على صحة العباد الصالحين. ولما أشار إلى الكومة التي انتهت صلاحيتها وفسدت، استرق منيب من عبد العفيف نظرة، فأومضت له الفسحة الترابية التي تملأ الكومةُ زاويتها الجنوبية، بأربعين سنة مضت: كان يا ما كان، كان عبد العفيف غنام شاباً في مثل عمر منيب، أطول وأكثر امتلاءً وحرصاً على تسريحة شعره والتماعه، وعلى أن تكون كيّة بنطاله تذبح الديك. وكان يا ما كان، كان عبد العفيف غنام قد قدم للتو من مصياف، مهندساً مدنياً سينتقل عما قليل إلى

الطبقة، حيث سيعمل في سد الفرات عشرات السنين، إلى أن يعيده التقاعد إلى الرقة، ويجمعه بمنيب من جديد. لكن الحراك كان قد تحرك، والانتفاضة قد انتفضت، والثورة قد ثارت، والزلزال قد زلزل، كما كان عبد العفيف يبدل في الأوصاف ساخراً كلما التقى بمنيب، فلا يكاد ما انقطع بين الرجلين قبل أربعين سنة أن يلتئم، حتى ينقطع، بخاصة بعدما بدأت المظاهرات في الرقة.

منذ عهد الشاربين الكثين بالسواد الفاحم الطبيعي إلى عهدهما بالسواد الفاحم الصناعي، كان لدى عبد العفيف ما يتباهى به: الأول على دفعته طوال خمس سنوات في الجامعة، رئيس اتحاد الطلبة في الكلية، إذاً: الرفيق اللامع في حزب البعث، ولم يكن منيب وحده من يستفز عبد العفيف: لماذا إذاً لم تكن المعيد في الجامعة اليوم، والأستاذ الدكتور بعد عشر سنين؟ وما دمت لن تتابع دراستك، لماذا لم تكن المدير العام لسد الفرات؟ على الأقل نائب المدير العام، بل نائب النائب؟

انتظر سد الفرات سنوات قبل أن يقبض عليه عبد العفيف غنام، بيد، ثم يقبض بالأخرى على حوض الفرات. لكن التقاعد عاجله، وآثر أن يمضي ما تبقى من العمر في الرقة، ويجيب منيب عندما سأله عن العودة في حُسْن الختام إلى مصياف:

إذا كان أبي أو أبوه من مصياف فأنا رقاوي مثلك. ألم نكن في سنّ واحد عندما جئنا إلى الرقة؟ بل أنا رقاوي أكثر منك. أنت غبت أكثر من عشرين سنة، أما أنا...

لعل ابتهاج عبد العفيف بالاسم الذي صار على كل شفة ولسان: الربيع العربي، ما كان ليقل عن ابتهاج منيب، لولا أن المظاهرات قد أخذت تنداح في سوريا، بخاصة لولا أن المظاهرات أخذت تهتف بسقوط النظام. عندئذٍ أخذ الشرخ يكبر بين منيب وعبد العفيف الذي يسبق القنوات التلفزيونية الحكومية في الحديث عن المؤامرة. وبالقطيعة بين منيب وعبد العفيف يتتوج الشرخ حتى تجمعهما المصادفة أمام مكتب الرقابة والتفتيش، وقبل أن ينفض الجمع الذي ظل صغيراً، دنا منيب من عبد العفيف، وهامسه بالمضيّ معاً، فانسحبا بخفّة.

في المسافة القصيرة التي قطعاها إلى المقهى، غلب الصمت كما يليق بمتخاصمين في الدقائق الأولى من المصالحة. واستعانا على ذلك بتقافز النظرات فوق ما يملأ واجهات المحلات. وحين أجبرهما الصاج والرغيف فوقه وشعلة النار تحته والشاب أمامه، على النزول عن الرصيف إلى وسط الشارع، تبادلا نظرة ضاحكة، سرعان ما ازدادت

ضحكاً عندما عادا إلى الرصيف، فاعترض سبيلهما الشاب الذي يرمي بقطع الفلافل في قِدْر الزيت المغلي، بينما رائحة البهارات تملأ الصدور.

في المقهى بدا الرجلان كأنما يتواطآن على جَسْر هوة فاغرة بينهما، تكاد تبتلع الطاولة وتتهدد كرسيّيهما. وحين قدم القهوة النادل العجوزُ الذي يفاخر سرواله وزناره بكرديته، همس عبد العفيف متحسراً على الأركيلة ولاعناً من حرّمها حتى في البيوت، فأسرعت عينا منيب إلى الطاولة الميامنة. وقبل أن يعود إلى عبد العفيف كان قد تابع الهمس: منذ فترة وأنا أرى هؤلاء الأربعة يجلسون حول الطاولة نفسها في مثل هذا الوقت. انظر إلى نعومة خدودهم وجباههم وإلى اللحى التي تقول لك: الآن جئت من عند الحلاق. إياك أن ينتبه أحد إلى أنك تنظر إليهم. انظر إلى أبواطهم، جديدة ولماعة. انظر إلى رسغ أحدهم، ساعة فاخرة أليس كذلك؟ أنا حفظتهم عن ظهر قلب: انظر إلى الموبايلات الجالاكسي فايف الأربعة المكوّمة أمامهم. صرت أعرف صاحب كل موبايل.

قال منيب: لا أظنهم سوريين. قال عبد العفيف: المقابل لك سوري، لهجته لاذقانية، المقابل لي سعودي، الآخران ليبيان. أنا عاشرت خلال عملي كثيرين، وزرت بلاداً كثيرة، أعرف

لهجات كثيرة. ولكن ما الذي حشر السوري بينهم؟

تساءل منيب: ولماذا لا؟ فسبقت يدا عبد العفيف شفتيه في الشرح: لأن المجاهدين المهاجرين القادمين من شتّى أصقاع الأرض، لا يكادون يظهرون مع الأنصار السوريين إلا في العروض. وفي المعارك: أضاف منيب مبتسماً. وتابع عبد العفيف: ربما جاء السوري مع من انسحب إلى هنا من داعش من معركة الأنفال في ريف اللاذقية، استعداداً لإعلان الدولة.

قال منيب: دعنا منهم وخلّنا بحالنا. ماذا تفعل في هذه الأيام؟

لأن تلك المصادفة قصّرت عن جواب عبد العفيف، وربما لأن المقهى أخذ يضيق أيضاً بمن توافدوا من المجاهدين المهاجرين، ضرب عبد العفيف لمنيب موعداً في الحديقة بين الجسرين: لن ترى مهاجرين هناك ولا أنصاراً، جزم، وكرر أنه أدرى بحركاتهم وسكناتهم، ليس في الرقة وحدها، بل في الطبقة، وفي تل أبيض أيضاً.

لكن الموعد المضروب كان مكاناً بلا زمان، فعوضته مصادفة أخرى بعد أكثر من أسبوعين، وحيث ما كان أحد منهما ينتظر أن يرى الآخر: في سوق الشوايا يا منيب! صاح عبد العفيف مستنكراً، فرد منيب بصيحة أكبر استنكاراً: في

شارع القوتلي يا عبد العفيف!، وقذف كلٌّ منهما ضحكة الآخر بضحكته.

كانت صلاة العشاء قد انتهت منذ قليل. وأصر عبد العفيف على المضيّ إلى المقصف. وأطلق الحسرة على البيرة الباردة قبل أن يختار الطاولة الشمالية المنفردة التي تطل على النهر. وأعقب الحسرة بلعن من حرّم البيرة، بينما كان النادل يقترب. ولم يكد لسان عبد العفيف يهدأ من بعد: هل تذكر لقاءنا هنا ليلة فيضان النهر؟ أنا ذاكرتي حديد. من ترى من أصحاب تلك الأيام قبل أكثر من أربعين سنة؟ صديقك جابر الخليل صار ركناً من أركان داعش. هل تراه؟ وصاحبك الآخر الدكتور مطر زغّال كأنه ما عاد من أبناء الرقة. أنا رقاوي وأنت رقاوي أكثر منه. سرقته الشام، والسلام.

قال منيب: لا تنس أن سجنه سبع عشرة سنة سرقه من الدنيا كلها وليس من الرقة فقط.

قال عبد العفيف: هل صحيح أنه يدافع عن الرايات السود؟ من يصدق أن الشيوعي العلماني يمكن أن ينقلب إلى مؤيد لداعش.

– لا تصدق.

– إذاً إلى مؤيد لجبهة النصرة، أو لأي فصيل إسلامي،

مسلح أو غير مسلح.

- هل تقصد حزب **الله** أيضاً؟ هذا فصيل إسلامي مسلح، بل هذا فصيل طائفي مسلح.

- الفصائل الإسلامية المسلحة كلها طائفية. حزب **الله** مقاومة مسلحة.

- كان.

- ظننت أن ما جرى خلال هاتين السنتين قد نزع الغشاوة عن عينيك، وصرت ترى المؤامرة الكبرى على حقيقتها. صرت ترى هذه الحرب الكونية علينا.

- وأنا أيضاً ظننت أنك قد نزعت الغشاوة عن عينيك. وعلى كل حال إذا كان كل واحد منا يرى على عيني الآخر غشاوة، فهذا يعني أننا جميعاً عميان، وخوفي من هذا العمى يكبر كل يوم.

- لو أنكم لم تنخدعوا من البداية بكذبة الثورة وكذبة الربيع العربي، لما كنا وصلنا إلى هنا.

- وأنت لو لم يخدعك بصرك من البداية بالسلطة المؤبدة، هل كنا وصلنا إلى هنا؟ مئات آلاف القتلى والمفقودين والمعوقين وملايين المهجرين داخل البلاد وخارج البلاد، وكل هذا الدمار وهذا التقسيم، من أجل ماذا؟ من أجل سلطة

الحزب الواحد؟ من أجل سلطة الديكتاتورية؟ من أجل سلطة الفساد؟

- عن الفساد لا يُسأل عبد العفيف غنام. أظنك تعرف أنني خرجت بطرف أبيض ناصع بعد خمس وثلاثين سنة من الوظيفة. ولكن بدلاً من أن تسألني اسأل نفسك. اسأل الذين يمولون ويسلحون ويدربون ويخططون لكل هذه الرايات السود، وليس لداعش وحدها. اسأل إسرائيل أولاً. اسأل إسرائيل آخراً.

- أرى أكثر مما ترى أن إسرائيل هي الرابح الأكبر، ولكن هل تسمح لي بأن أسأل أيضاً إيران؟

- كما وصلنا أنا وأنت إلى طريق مسدود قبل سنتين، يبدو أننا وصلنا الآن.

- ولكن كي لا نعود إلى القطيعة، لماذا لا نبحث عن لغة أخرى تُبقي على شعرة معاوية بيننا، على الأقل؟

- موافق. هل تعرف بم فكرت عندما أومأت لي أمام مكتب الرقابة والتفتيش؟ فكرت أن سيف داعش مسلط على رقبتينا معاً.

- إذاً خلّنا بحالنا وقل لي الآن: ماذا تفعل في هذه الأيام؟

من جديد قصّرت المصادفة عن جواب عبد العفيف، وإن

يكن قد أوجز– كما أكد مراراً – في كل ما فاض به: الخوف من جيرانه الجدد، أبو رضوان التونسي احتل بيت الدكتورة ميسلون عبد السلام التي نزحت إلى طرطوس منذ أول رصاصة دوت في الرقة، وأم مهاجر قائدة كتيبة الخنساء احتلت بيت أسامة الشيخ عنبر وزوجته غفران اللذين نزحا بعدما أطبقت الكوابيس على وحيدهما ذي الأحد عشر عاماً، إثر فرجته مع عدد من أقرانه على قطع رأسين في دوّار النعيم. بيت ميسلون في الطابق الخامس وبيت أسامة في الطابق الرابع، وأنا بينهما، أنا بين أبو رضوان وأم مهاجر. نصحت أسامة: ابق هنا مثلك مثلنا، ألا تراهم يحتلون بيوت من ينزحون؟ سلّمني المفاتيح كما سلمتني الدكتورة ميسلون: أمانة في عنقك يا عبد العفيف. لكنهم اقتحموا البيتين. رحم الله من قال: ما متْ ما شفتْ مينْ مات؟ لذلك مدت زوجتي حبل الود لأم مهاجر، وأنا مددته لأبو رضوان. أبو رضوان راتبه ألف وثلاثمائة دولار، وأم مهاجر راتبها ألف. بالهنا والزقوم إن شاء الله. وهذا كله ليس بشيء يذكر. أنا حتى الآن يا منيب أزور مقام عمار بن ياسر وأقرأ الفاتحة له وعليه كلما سافرت إلى مصياف. وبفضل هذه الزيارة تكون سفرتي آمنة، أنا وزوجتي، مرة كل شهرين أو ثلاثة، نطمئن على أبنائنا

وأحفادنا ونعود. للأسف ما عادت الرقة تعني لأحد منهم شيئاً. عجيب يا منيب. صاروا أبناء مصياف كما صرت أنا ابن الرقة، وزوجتي المسكينة مشبوحة بين نارين. في الإياب عند آخر حاجز للجيش تبدو كأنها تودع الدنيا. وعند أول حاجز لداعش تبدو كأنها تستقبل الآخرة، والعكس صحيح.

في الحادية عشرة أطفئت أضواء المقصف إلا الضوء الرابض فوق رأسي منيب وعبد العفيف، عندئذٍ ضرب عبد العفيف موعداً أمام ثانوية خديجة: نذهب بسيارتي إلى الطبقة لنرى كيف صارت بعدما سيطرت داعش عليها.

لكن الموعد المضروب كان مكاناً بلا زمان، ولم تعوضه مصادفة أخرى، إذ نادى المنادي بعد يومين أو ثلاثة، عصراً، أمام جامع النور، بقطع رأس الكافر عبد العفيف غنام لأنه عميل النظام. ولما بلغ منيب أن جثة عبد العفيف غنام قد اختفت، فكر في أنها قد تكون تاهت في مقبرة جماعية، وربما في النهر، وربما في الهوتة، والله أعلم.

قارو

هل يمكن أن تبدل الوجوه ألوانها بين يوم وليلة؟ تساءل منيب وهو يحيي أم خضر وبيري وقارو، ويداعب ذقن الطفلة في حضن بيري ويقسم في سرّه: حتى أنتِ تبدل لون وجهك.

أشار قارو إلى زاوية الصالون الأقل إضاءة، وقبل أن تستوي جلسة منيب سأل بيري عن ولات، فنضح صوتها بالقلق:

– بخير. إنشالله بخير.

وغادرت الصالون، ولحقت بها أم خضر، فسأل منيب بحذر:

– لماذا طلبتني؟

قال قارو وهو يتحاشى النظر إلى منيب، أو يعجز عنه:

– كم سنة مضت على جيرتنا؟ سبحان الله! كنت أظن أننا سنبقى جيران العمر كله. صحيح أن أياماً تمضي دون أن نلتقي، وفي سنواتنا الأولى كانت أسابيع تمضي دون أن نلتقي، تذكر؟ لكنك كنت دوماً مثل أخي.

– لماذا هذه المقدمة الطويلة يا قارو؟ ماذا تخبئ عني؟

– من شهور وأنا أتردد في مفاتحتك، ولكن ما بقي للانتظار معنى. نحن سنترك الرقة صباحاً إن شاء الله. ما

خفنا منه وداريناه وقع أخيراً. عندما بدأ الأكراد يهاجرون رفضت أن أهاجر، وأنت تعرف. إلى أين أذهب وأترك قبر خضر هنا؟ حتى بعدما هدرت داعش والنصرة دماءنا وحللوا نساءنا وأملاكنا، لم نهاجر. ولكن سيفهم صار على الرقبة بعد هذا الذي يجري في كوباني وتل أبيض و.. ما عدت أقدر على البقاء. أم خضر نفسها صارت تقول: امشِ يا قارو. وقبر الشهيد الله يرحمه؟ أسألها فتغص وتشير إلى قلبها. خضر في قلوبنا، وقبره أمانة عندك أخي منيب، وهذا البيت أمانة عندك، وإن شاء الله لن يطول فراقنا.

واقتربت بيري حاملة فنجاني القهوة، وفرطت دمعتها بينما كان منيب يتناول الفنجان منها. ولما غيّبها الباب سأل منيب ملهوفاً:

- ما أخبار ولات؟

قال قارو:

- ما أعرفه حتى الشهر الماضي أنه كان في لواء جبهة الأكراد، واللواء كان من الجيش الحر، لكنه انضم إلى وحدات حماية الشعب الكردي. كلما أسعفه وأسعفنا الحظ، وتكلم مع بيري، يتعجب من أننا مازلنا هنا. اطلعوا من الرقة قبل أن يذبحوك ويسبوا بيري. حتى أم خضر لن تنجو، بنتي لن

تنجو: هذا آخر ما سمعته منه. المعركة في تل أبيض، يقول، معركة حياة أو موت. قلت له: كل معركة هي معركة حياة أو موت. قال: معبر تل أبيض إلى تركيا هو شريان داعش، النفط والأسلحة، عدا عن المقاتلين الهاجمين من كل الدنيا. شريان حياة أو موت. وطلب مني الدعاء. يارب انصره، يارب انصرهم على هؤلاء المجرمين.

كان قارو كمن يثقل عليه جرابه وقد طال حمله له، فقرر أن يرميه أرضاً، كي ينبعج ويتحطم ما فيه ويتناثر. وكانت كلماته قد أخذت تنبعج وتتحطم وتتناثر: أهل ولات من الشدادان، والشدادان عشيرة كردية كبيرة، ليس فقط في منطقة تل أبيض، بل خلف الحدود أيضاً، وأين كانوا ينجعون كل ربيع؟ في وادي الرقة ينجعون، مثلهم مثلنا، الشيخان، ولكن نحن ننتسب إلى آل البيت. هل تعرف ما معنى أن ينتسب أجدادك وعشيرتك إلى آل البيت؟ هذا يعني أنك عربي، ولكن نحن أكراد أباً عن جد، مثلنا مثل أهل ولات وأكثر.

وفرك قارو ذقنه كأنه يبحث عما يقول، ثم تنهد عميقاً وتابع: الله سبحانه وتعالى عوضني عن خضر رحمه الله بولات. ولات أكثر من صهر، ومثل خضر رحمه الله، رجل ولا كالرجال، قلب من صوان وذكاء يقدح كالصوان، ولولا ذلك ما

كان نجا من الأمير السابق لتل أبيض: أبو مصعب الحلوس. ألا تعرف من هو هذا الأمير؟ اسأل عنه أبو لقمان الذي كان أميرنا. أبو مصعب هو أول من بايع أبو لقمان، ولكن أبو لقمان لم يحفظ الجميل ولم يرده. أبو مصعب هو من كان يحدد من يجب اغتيالهم. من تظن أنه قرر اغتيال مدير الأوقاف صباح رأس السنة؟ من تظن أنه قرر اغتيال صديقك عبد العفيف غنام؟ اسأل ولات واسمع الجواب: أبو مصعب الحلوس، ولا تسأل من أين يأتي ولات بالأخبار الصادقة. لماذا عزل أمير الرقة أمير تل أبيض؟ ولات يقول: أبو مصعب بعد خلعه حاول تأسيس جماعة خاصة به وسماها: أنصار الشريعة، فهدده أبو لقمان: أقطع رأسك، فتراجع. ولات يصلح للعمل في المخابرات، ومن يدري، قد يكون من مخابرات حماية الشعب الكردي. قد يكون على رأسها في تل أبيض، وإلا كيف يمكنه أن يدخل بين البصلة وقشرتها؟ كيف تواصل مع أبو مصعب الحلوس ومع قائد كتائب الفاروق... ماذا كان اسمه يا قارو؟ ماذا كان اسمه يا منيب؟ من ينسى قائد كتائب الفاروق الذي أعلن انحيازه للرئيس نكاية بجبهة النصرة، بعدما لم يعد قادراً على احتمالها؟ ومن كان يا قارو رئيس المجلس المحلي لتل أبيض؟ ماذا كان اسمه يا منيب؟ من ينسى هذا الرجل

الذي زار مكتب الائتلاف في غازي عنتاب فلم يهمهم أمره ولا أمر تل أبيض، فصاح بهم: شرعيتكم من فنادقكم، حلوا عنا، ولولا ذلك، يقسم ولات بالله العظيم، ما كانت جماعة التنسيق والدعم التابعة للائتلاف خصصت لرئيس وأعضاء المجلس رواتب. قل كما قال ولات: اشتروهم.

ومن جديد تنهد عميقاً وحشرج صوته: أين أنت يا ولات؟ أين كنا وأين صرنا يا أخي منيب؟

أحسّ منيب أنه يختنق، فغالب ما اعتراه حتى لغا:

– إذا كنت تقصد ما قبل ٢٠١١، كنا في جحيم وصرنا في جحيم.

ثم حرن لسانه، وأومض له لسان هفاف قد نفص، والحبل الغليظ يكاد يقطع عنقها، فانتفض مذعوراً، وأسرع بالخروج وهو يبربر بالعودة بعد قليل. ولما ابتعد عن العمارة خطوات، التفت إليها، وقاس ما بين شرفات بيته وبين قارو وبيت أم باسيل الذي صار مكتباً لداعش. وتراءت له العمارة خاوية بعد نزوح قارو وأسرته. ولما تابع سيره أخذت الرقة تبدو له خاوية، من خطوة إلى خطوة، ومن شارع إلى شارع، ومن ساحة إلى ساحة، حتى أبرق الفرات، فرآه خاوياً أيضاً فسأله معاتباً وموشكاً على البكاء: ما بك يا سيدي وحبيبي؟ أين

ذهبت بهم؟ لم يبق في الرقة كردي، لم يبق في الرقة مسيحي ولا علوي ولا درزي ولا... العربي يفرُّ والسنّي يفرُّ ومن لجأوا إليها فرّوا منها. رقتك صارت ملعباً لمن يلعب من مشارق الأرض ومغاربها، فماذا أفعل يا سيدي وحبيبي؟

أعتم الفرات في وضح النهار، ففرك منيب عينيه، وتلفت حوله ليجد المدينة قد أعتمت أيضاً، ففرك عينيه ثانية وبقسوة، فاتقدت فيهما شرارات وانطفأت، وظلت تتقد وتنطفئ حتى سطع وجه هفاف من قلب الفرات. ونظرةً فنظرة رآها تسمق حتى طاولت السماء وأضاءت الفرات والمدينة، ومن غمازتيها أقبلت أشعة تلحس خديه وشعره، بينما أخذ وَقْدُ شفتيها يرفُّ على وجه الماء مقبلاً على منيب.

يجرّ خطاه

جرَّ منيب خطواته جراً حتى بلغ دوّار الحرية، فأقعده العياء على حافة الحوض الذي ما عاد فيه عرق أخضر واحد. ونظر إلى اليمين: حوض اليباس أيضاً، وإلى اليسار: حوض ثالث من اليباس، ولذلك تفحّص الأحواض الخمسة الأخرى: يباس مثل يباس ساقيه وجذعه وأصابعه وحلقه، وهذه الأعمدة التي تحمل الكرة الأرضية، وهذه الأقواس، وهذه البحرات الصغيرة، وهذه البحرات الكبرى، وهذا العشب الذي كان يزين الكتل الرخامية ملء الدوّار.

بعد قليل وقف وأرسل نظراته جنوباً إلى شارع الباسل، ثم أرسلها شمالاً إلى شارع القطار، وإذا برجل بالغ الطول وبالغ العرض ويكاد وجهه أن يكون كله لحية، يصرخ في الطرف المقابل من الدوّار: يارب يارب يارب. وظلّ يصرخ حتى التمَّ حوله عدد من الرجال والفتيان. عندئذٍ أشرع ذراعيه وتضرّع: احمِ سورية من كل شر وأذيّة.

أَنكر منيب أن يكون هذا الرجل معارضاً لداعش، وحكم عليه بأنه لو كان كذلك، فهو إذاً معتوه أو انتحاري، وإذا بالرجل يصرخ: اسمع يا طيب، اسمعي يا طيبة، الصلاة عمود

الدين فمن أسقطها أسقط دينه... وهو إذاً ليس معتوهاً ولا انتحارياً، بل داعية من دعاة داعش إلى الصلاة، لذلك عاد منيب يجرّ خطواته جراً في طريق العودة، لكن غناءً طفلياً لحق به قبل أن يغادر الدوّار، فالتفت، وإذا بطفلٍ يقف أمام داعية الصلاة ويصدح:

أما تحزنكم صيحات أمٍ

وأختٍ تستغيث من المرارة؟

وتموّج الصوت فاختلطت على سمع منيب كلمات، وغابت كلمات، قبل أن يعود صوت الطفل نقياً وشجياً:

شباب الذل لا يرضى الدنيّة

جموع بايعوا دولتنا الأبية

ومن تموّجِ الصوت من جديد، بالكاد تبيّن منيب من غناء الطفل الذي كان قد أخذ يلوح بذراعيه وبقبضتيه:

مفخخة...

وعبواتٍ بأيديهم ذكية

... ترى الجبناء أعينهم عميّة

أدار منيب ظهره ومشى تاركاً نفسه – كما تعود في الآونة الاخيرة – نهب أشتات من أطياف وأفكار وهواجس، منها ما يمضّه ومنها ما يلذ له، منها ما عاشه ومنها ما سمعه ومنها

ما يتخيله، لكنها جميعاً تنبتر، سواء منها ما يشتبك بغيره أم ما يبقى مفرداً: داعش تمنع البيع على البسطات في الشوارع والأزقة والحارات والساحات: ما بدنا بوعزيزي رقّاوي/ ابتسامة عريضة. جارة موسى وصديقة المرحومة أم فواز: أنتم مثل التلفزيون تفترون على جبهة النصرة وهم أولادنا يدافعون عنا وندافع عنهم، يا رب تحميهم/ ابتسامة ملغزة. أُبي بن ياسين الخليل يعلق كرتونة على باب بيت عمه الشيخ جابر، كما يهمس ياسين نفسه لمنيب، وعلى الكرتونة خطَّ أُبي: داعش هم الماضي بلحية وثوب قصير/ ابتسامة عريضة. أبو رضوان التونسي الذي طلب سنية عبد الحميد زوجة فانتحرت، يخطب في جامع العلو: جئناكم بفتح إسلامي، جئنا لنقيم الخلافة الإسلامية، وليس لإسقاط النظام/ هزّات بالرأس.

فصيح العلي تزوج البنت الصغرى لسطام الذي كان الآذن في ثانوية خديجة عندما كانت جنة منيب، وقبل أن يبني فصيح بالعروس، لبّى نداء الجهاد في عين عيسى، فقضى، وترملت العذراء ابنة الأربعة عشر عاماً فصاح ابن عمها: أنا لها، فزوّجه إياها سطام، لكن الشيخ جابر الخليل حكم ببطلان الزيجة عندما حدثه سطام بها عقب صلاة الفجر. وقبل صلاة الظهر اقتيد العريس إلى المحكمة الشرعية التي

حكمت بالتفريق بينه وبين عروسه مادامت في العدة، وإن يكن الشهيد لم يبنِ بها. ومع التفريق، حكمت المحكمة بجلد العريس وحميه/ نظرات تائهة بين العجب والسخرية.

موسى يوحوح ويفرك يديه طلباً للدفء، ثم ينبش من الجيب الداخلي لمعطفه القصير أوراقاً ويخاطب منيب: خذ اقرأ، وقرأ منيب صورة تلو صورة عن عهد تلو عهد واتفاقية تلو اتفاقية لداعش مع صقور الشام، ومع جماعة الأنصار، ومع الطليعة المقاتلة، ومع لواء العباس، ومع جيش القادسية، ومع أحرار الشام، ومع جند العزيز، ومع عاصفة الشمال، ومع أبناء الشام، ومن أين لك هذا يا موسى؟ من بطونهم نأتي بوثائقهم: قال موسى، وأخذت ابتسامة منيب تعرض وهو يقرأ في الورقة الأخيرة بصمت، ثم بصوت مسموع وضاحك: مطلوب منك نبذ الألفاظ والمصطلحات الدخيلة على المجاهدين كالمقاومة الشعبية والانتفاضة الجماهيرية والحركة الدعوية والشعب والجماهير والكفاح والنضال. استبدلها بألفاظ الجهاد الشرعية الواضحة والدعوة الصريحة لحمل السلاح ونبذ السلمية.. ما هذا يا موسى؟ قال موسى: هذا ما ردّ به أبو محمد العدناني الشامي على أيمن الظواهري حفظك الله./ ضحكات عالية وطويلة.

إياس غانم لا يحنّ إلى ما كانت عليه الرقة قبل سنتين، فقط، بل يزداد يقيناً كلما رأى راية سوداء ترفرف، بأن العلم أبو نجمتين سيرفرف في الرقة من جديد. لكن إياس ما زال يسأل: هل كان على الجيش أن يتدخل عندما سقطت الرقة؟ وإياس يسأل: هل كان من مصلحة الجيش أن يفتح جبهة جديدة؟ وإياس يسأل: لماذا لم يطلب النجدة أحد من الرقة؟/ نظرة مشفقة.

سيارة منيب تقف في الطابور الطويل أمام كازية الوحدة التي يرفرف عليها علم أبو نجمتين، وتتصدرها صورة قديمة للرئيس قبل أن يكون رئيساً، وشاب يحمل «بيدون» سعة ٢٥ ليتراً وعصا كهربائية، وشاب يحمل «بيدون» سعة ٢٠ ليتراً ويشهر سكين كندرجية، يتجاوز الشابان الدور إلى المضخة، تحتج السيارة الواقفة أمام المضخة، ينال الضوء الأمامي للسيارة ضربة بالعصا الكهربائية، يخرس كل من في الكازية من بشر ومن سيارات، وبعدما ينصرف الشابان و«البيدونان» يعلو اللغط: يبيعان الليتر خارج المحطة بضعف سعره/ نظرات تائهة بين الخوف والسخط. وهذا صدى عميق لصوت يهتف: رقتنا حرة حرة والائتلاف يطلع بره/ ابتسامة ملغزة وحائرة بين أن يكون الصوت لهتّاف المظاهرات موسى أو لقاشوش الرقة أو... لمن؟

حكّ منيب صدغه بحثاً عن جواب، لكنّ قدميه ذكّرتاه باقترابه من البيت، والموبايل أجفله، فتوقف، ورأى اسم أخيه حسيب على الشاشة، فحدق فيها حتى انقطع الرنين، وتابع جرّ خطاه متسائلاً عمّا ذكّر شقيقه به. ولم يصدق أنهما لم يلتقيا منذ سنوات، ولم يصل بينهما هاتف منذ سنوات. أية أخوة هذه إذاً؟ وتلك التي لم ترها منذ ماتت أمك، أختك التي صارت طرابلسية، ألا تزال حية؟ امش الآن ودعك من الماضي. هذا مبنى الإطفائية وهذه راية داعش التي صارت ترفرف أيضاً على سطح العمارة، فوق بيتك أو فوق ما كان بيت أم باسيل، بل فوق بيت قارو – الأمانة التي في عنقك – لا فرق، وعما قليل عندما تعود إلى بيتك، لن تجد من يجالسك إلا أحد المجاهدين المرابطين في بيت أم باسيل. لا بأس. نادِ أحدهم أو نادهم جميعاً، وقل لهم بهدوء، بلا انفعال، بلا استفزاز ولا تحدٍ: أمريكا ضاعفت من قدرات داعش، لماذا؟ طبعاً لن يجيبك أحد في وحدتك، لذلك ستجيب أنت: لكي تقلّم أصابع إيران في العراق. ولكن أمريكا سلمت العراق لإيران أيها الجاهل: أنت من سيخاطب منيب. وسيقول منيب: الحرب الأمريكية على داعش مثل لعب الصبيان حتى الآن. تحالف دولي يلعب وطائرات تلعب، وأنت من سيخاطب جيرانك المجاهدين: الحمار وحده من يعتقد بالقدرات الخارقة لداعش، حتى لو بدأ يقتحم

بالطائرات المفخخة بدلاً من السيارات أو الدبابات المفخخة، حتى لو صار لديه من الصبايا الانتحاريات أضعاف ما لديه من الشبان الانتحاريين. ولأن أحداً من جيرانك لن يكلف نفسه مشقة الرد عليك، فسوف ترد أنت: حضرتك الحمار يا منيب. سيادتك الحمار يا منيب. وبدلاً من هذا الذي تهرف به وأنت تجر خطواتك، انظر ماذا يريد أخوك منك.

كانت خطواته قد أعادته قريباً من البيت عندما اخترق سمعه صوت غريب:

– ابني زين مخطوف. زين نقيب طيار يعمل في مطار الطبقة، وفي الطبقة خطفوه. سمعت أن لك علاقات مع المعارضين. زين في الطبقة هو من سمع. هل تتركه بين أيديهم؟

لم يجب منيب، لكن السيارة أمرته عندما حاذاها بأن يقودها إلى بيت إياس غانم ليصطحبه إلى صهره وسيم في الطبقة. وفي بيت وسيم يعلم منيب أن النقيب الطيار زين ابن العميد المتقاعد بطل من أبطال مطار الطبقة، والميغ التي يقودها البطل قصفت مرات عديدة المسلحين من داعش ومن غيرها. لكن البطل سامحه الله كان متهوراً، كان يسكر ويبحث عن النساء في الليالي حتى وقع في الفخ.

بعد الغداء انطلقوا جميعاً إلى مضافة أبو سهيل قرب

مسكنة. وأبو سهيل أكبر تجار الغنم من مسكنة إلى الرقة، وربما إلى دير الزور. وأبو سهيل مختص بحماية المخطوفين في زرائب الغنم. وكرمى لوسيم أبو عطوف – بالضبط: كرمى لأخواله – سأسلمك النقيب زين بلا مقابل، مع أنه غنيمة بعشر غنائم.

مذهولاً كان منيب يتفرج على ما يجري: أنا عمّ هذا الشاب، النحيف مثل العود، شعره حليق وذقنه بنت أيام، صوته مذعور، تكلمْ مع أبيك وابك، ومن مضافة أبو سهيل إلى مسكنة ستستعيد صوتك على الأقل، كي تعود إلى أبيك سالماً، ستذهلك سيارة وسيم وهي تلتف على حواجز داعش، كيلا يخطفك أحدها ثانية، ستشكر وسيم وعمك والأستاذ إياس، وعبر ذلك قد يكون لسانك خانك، فتباهيت بغاراتك على الرقة، أو قد يكون عمك هو من قدّر أنك أنت من قصف حي البياطرة بخمسة براميل متفجرة، وأنت من لم تميز في قصفك بين مقر الولاية وما حوله، ولسوف يحصي عمك ضحاياك من المدنيين والبيوت، ولن يعاقبك أحد غيره بعد أن يتبرأ منك، لذلك عجّل إلى المطار، وإياك أن يراك عمك ثانية، لا على الأرض ولا في السماء.

حين خلت السيارة من النقيب زين، أعلن منيب عجزه

عن قيادتها، فتولاها إياس الذي ظل طوال الطريق يتباهى بصهره وبابنته، وبما كانت عليه سوريا كلها، لا الرقة فقط، قبل هذه المؤامرة التي خرّبت العقول، وأولهم عقلك يا منيب.

لكن منيب الذي ظل ذهوله يتضاعف طوال الطريق، عجز عن الكلام، كما يعجز حتى عن الصعود إلى بيته، فالتفت عن العمارة، وراح يجرّ خطاه مبتعداً عنها، وكان المساء قد أعتم الشارع، وفجأة شقت طائرة السماء، وسرعان ما دوّى ما شق السمع والبصر، فتهاوى منيب، وامتلأ صدره بالغبار. وبعد حين طويل أو قصير- من يدري- استطاع أن يقف ويسمع لغطاً، ويرى بيت أم باسل قد توحد ببيته الذي توحد ببيت قارو، كما توحّدت العمارة كلها بجارتها أو بجاراتها، فحاول منيب أن يجر خطاه، ولكن إلى أين؟

كالخواتيم

١. ليل ملتوت بالدم

٢.بين الهوتة والقفص

ليلٌ ملتوتٌ بالدم

ليلٌ ملْتوتٌ بالدم كأنه يقطينة ملتوتة بالماء، ومنيب يسفّ كما يليق بعجوز، ولكن جلسته بالمقهى طالت، وعليه أن يجد مأوى لهذه الليلة.

أين أوتيل الرشيد الذي قضيت فيه ليلتك الأولى في الرقة؟ أين أوتيل الأرجوان الذي سهرت فيه مع هفاف وضيوف مهرجان العجيلي، الليلة الأولى أو الأخيرة من ليالي المهرجان؟ من يذكر بعدما سوّت الغارة العمارة بالأرض؟

لم يبق في الرقة أوتيل، ولم تفتح فيها داعش خانات أسوةً بالسلف الصالح. ولسببٍ ما لم ولن يستجدي منيب مأوى من إياس غانم ولا من معزز عبد الواحد، أما الشيخ جابر الخليل فسيطردك. فرحان ابن أم فرحان سيطردك. لماذا لا تذهب إلى الدكتور نوري الحاج صبحي؟ لأنه كان يوماً عاشقاً لهفاف؟ لماذا لا تبحث عن أول امرأة صادفتها في الرقة: هيفاء؟ لأنها هاجرت أو ماتت أو ما زالت تبحث عن زوج، وأنت ما عدت تصلح لأمر، مهما يكن هذا الأمر؟ أنت الآن قطعة من قطع الدمار الذي خلفته طائرة التحالف الدولي ضد داعش. كما أنبأ همس الطاولة المجاورة، دون أن تتمكن من تحديد جنسية

الطائرة: أمريكية أم كندية أردنية أم...؟ ولكن أية معجزة اكتفت من السيارة بتهشيم الزجاج الأمامي؟

هذه المرة، خطاه هي التي جرّته، وليس هو من جرها إلى بيت هفاف. طوال الطريق كان يقدم خطوة ويؤخر أخرى، راغباً وخائفاً، يتلمس في جيبه اليمنى مفاتيح ما كان بيته، وبينها مفتاح بيت هفاف، وهذا مفتاح بيت موسى، وهذا مفتاح ما كان بيت قارو. ولم يكن قد دخل بيت هفاف بعد خنقها إلا مرة واحدة، خلف موسى. أما بيت موسى فلم يدخله بعدما اختفى. والآن، وهو يصعد درجة درجة، وأبطأ فأبطأ، يغالب خوفه من الخنق في بيت هفاف، ومن الاختفاء في بيت موسى، فهمّ بالرجوع، لكن قدميه حرنتا أمام بيت هفاف.

من يسكن في هذا البيت؟ إنس أم جن؟ أحياء أم موتى؟ من يحمل مفتاحاً لهذا البيت غير منيب؟

كل شيء كما هو عندما طاف بالبيت خلف موسى، ما من ذرة غبار، وفوحٌ مثل فوح الحبق يملأ البيت، ومنيب يغدو أكبر شجاعة نَفَساً بعد نفس: هذه غرفة نومكِ، وسأنام في سريركِ لعلني ألاقي حياتي أو موتي، سيان، ما دمت سأكون أقرب إليك، أتشمم وسادتك، أتمرغ على شرشفك وبلحافك، سأترك البيت كله مضاءً، وغداً سأشكر دائرة الخدمات الداعشية

على أنها لم تقطع الكهرباء عن بيتك. وهذه غرفة يقظتك وهذا مكتبك الصغير، لكنه عارٍ. أين ذهب اللابتوب والطابعة والموبايل؟ كان المكتب مدججاً عندما دخلته خلف موسى. لقد عادوا إليك إذاً، ومن يدري، قد يعودون إذا ما أقمت هنا. فليعودوا. ماذا يمكن أن يفعلوا بي؟ ما الحياة من بعدك؟

على كرسيها الخيزران جلس، فتعثرت قدمه بكتاب. تناول الكتاب الذي تنبق منه ورقة، سوف ترشد منيب إلى سطور بعينها اختارتها هفاف - من سواها - وكتبت على الهامش: عن ثورة ١٨٤٨، يا سلام يا ماركس، يا سلام يا غويتسولو، وقرأ منيب، بخاصة ما حشرته هفاف بين السطور ضمن قوسين: "لم يكن باستطاعة الذين كانوا داخل الحركة (الحراك) أن يصدقوا نهايتها، فالثورة كانت جزءاً من حياتهم (حياتنا) صارت عالمهم (عالمنا) وأخفت عنهم (عنا) العالم الآخر المختلف والمعقد الذي ولّدته. لم يعترفوا (نعترف) بهذا العالم الحديث. بدا لهم (لنا) من المحال أن ينتهي عالمهم (عالمنا)، فغداً أو بعد غد سيعاود الحياة، سيتبدل كل شيء. ومن كان يفكر بطريقة مختلفة في تلك (هذه) الظروف ما كان ليعتبر ثورياً حقيقياً. لكن وحده الثوري السيئ (الثورية السيئة أنا هفاف العايد بالعَشَرة) كان باستطاعته أن يستمر طويلاً في

تلك الحالة النفسية، بدل أن يتحرر (أتحرر – نتحرر) وينتبه (أنتبه– ننتبه) إلى مرحلة تاريخية جديدة بدأت تواً".

عاد إلى غرفة النوم وهو يفكر في أن ما قرأه يُظْهر ما كانت هفاف تخفيه في مساجلاتها معه أو مع سواه، في الشهور الأخيرة قبل خنقها. وبينما أخذ يرمي ثيابه، اعتذر من هفاف: ما بقي لي إلا ما ألبسه، لن أحلق ذقني صباحاً، ما من فرشاة أسنان ولا معجون، ما من... ولكن – قطع اعتذاره – سأستخدم ما أجده في بيتك، وفتح خزانة الثياب ملهوفاً، ومثل عينيه تهجدت أصابعه وهي تلمس معطفاً وكنزة وشالاً وفستاناً وبنطالاً و... وضحك من أعماقه لأن أصابعه أسرعت إلى الرف الأعلى، وتعثرت ببيجامة: سألبسها وإن تكن ضيقة وقصيرة وصيفية لا تنفع في هذا الليل الملتوت بالزمهرير.

ونام عميقاً عميقاً، ربما كما لم ينم منذ ليلته الأولى في جنة أم فرحان. ولعله ما كان ليستيقظ من بعد، لولا أن الخبط كاد أن يحطم الباب، وبدون السلام عليكم ولا صباح الخير: تعال معنا.

حمد الله على أنهم لم يقتحموا غرفة النوم ويروه عارياً. وكرر الحمد طويلاً عندما خرج بعد ساعتين، بعد ساعتين فقط، من ديوان الحسبة، فهمز خطواته كيلا تعاود جره أو تضطره

إلـى أن يعاود جرهـا. وعندما لاح له بيت هفاف، كان قد استعاد مرات ما ملأ ساعتيه في ديوان الحسبة، ولكن بخلاف، مهما ضؤل، بين مرة ومرة: لماذا عدت إلى بيت هفاف العايد؟ لأنها كانت خطيبتي، ولم يبق لي بيت بعد غارة الأمس. متى اتصل بك موسى العايد آخر مرة؟ لم يتصل بي بعدما اختفى. وإذا ما اكتشفنا أنك كاذب. أنا لا أكذب. قل إن شاء الله أكون من الصادقين.

في النهار رأى في بيت هفاف ما لم يره ليلة أمس، وسمع ما لم يسمعه: صورة لهما متخفية تقريباً في أصغر رفوف المكتبة، كأن يداً حشرتها بين الكتب، وزغرودة لا أطول منها ولا أعلى، كأن هفاف تزغرد الآن بينما تمثال حافظ الأسد يتهاوى، أو بينما يخطب الأب باولو، أو... متى أيضاً؟

في ليل جديد يقسم منيب أن له ألسنةً وسككاً وأهداباً، إذ عاش في العتمة وفي ضوء الشموع التي وزعتها هفاف في أرجاء البيت – انقطعت الكهرباء ساعات لأول مرة منذ أسابيع – التماعات أو نتفاً من سنواته التي أربت على الستين، ورأى بانياس، بخاصة منها البحر وقبر أمه وقبر أبيه الذي غنّى وشرب كأساً صغيرة من العرق وبكى شوقاً إلى الرقة. ورأى منيب أيضاً ضوءاً دمشقياً باهراً، وضوءاً باهراً من بيروت،

وضوءاً باهراً من بوعريريج، ثم ملأت هفاف الليل، فنام عميقاً عميقاً، ولعله ما كان ليستيقظ من بعد، لولا أن الخبط كاد أن يحطم الباب. وبدون السلام عليكم أو صباح الخير، دفعه مسلحان أمامهما ببيجامة الرياضة الشتوية الجديدة التي اشتراها عصر أمس: تعال معنا.

في مكان آخر ليس ديوان الحسبة، وليس مقر الولاية، نُسي حتى ما بعد صلاة الظهر، حين بدأ التحقيق: ثبت لدينا أن الحريق في معمل تعبئة أسطوانات الغاز، في منطقة الحمرات، فجر هذا اليوم، هو من فعل فاعل. وثبت لدينا أن الفاعل هو موسى العايد أو أحد أزلامه. أين هو موسى العايد؟ موسى العايد قضى الليلة الماضية في الرقة، أين هو؟

بعد صلاة العصر استؤنف التحقيق، إلا أن المحقق تبدل، وموسى العايد أُبدل بجابر الخليل: ماذا تعرف عن مؤتمر حزب التحرير الإسلامي؟ أي مؤتمر؟ آخر مؤتمر في طرابلس؟ أعرف ما يعرفه كل الناس. وماذا يعرف كل الناس؟ دعا الحزب إلى إقامة دولة الخلافة الإسلامية. وماذا أيضاً؟ رفض الدعوة إلى الدولة المدنية والديمقراطية؟ وماذا أيضاً؟ نادى: العلمانيون أعداء الإسلام. وماذا أيضاً؟ ليس للحزب جناح مسلح، وجهاده جهاد سلمي. ألهذا يعجبك ولا نعجبك؟ هنا صمت منيب، وطال

صمته كأنه غط في نوم عميق، فانهالت عليه الكفوف حتى استيقظ جيداً، وأدرك أن علاقته بجابر الخليل مريبة، ولكن جابر الخليل منكم وفيكم. هذا ليس من شأنك.

وما إن أطلق سراحه حتى أسرع إلى ياسين الخليل الذي قال إنه تناول الغداء مع أخيه جابر في بيته، ولم يفارقه حتى آذان العصر. ولكن لماذا تسأل عنه؟ لا لشيء. ولكي يفلت منيب من تعليل سؤاله عن جابر، عاجل ياسين بالسؤال عن حريق معمل الغاز، فتدفق أبو أُبيّ: تنظيم الدولة - إياك أن تقول داعش - يأتي بالغاز من حقول الغاز التي يسيطر عليها بالصهاريج. ومعمل تعبئة الأسطوانات في الحمرات شيده داعش، من ماذا؟ من قطع معمل إنتاج الأسطوانات الذي حاولت حركة أحرار الشام أن تصلحه، ولولا قربه من الفرقة ١٧ لما أصابه الخراب، ولأُصلح خرابه. ومن أين لك كل هذا يا ياسين؟ أنا ممن يعملون بنقل أسطوانات الغاز من وقت لآخر إلى العاصمة الثانية لدولتنا. وما هي هذه العاصمة؟ الموصل يا أستاذ، بسلامة فهمك.

وهنا إذاً الرقة، العاصمة الأولى. عليك نور.

هنا، وفي غفلة منه، فاجأه لسانه كما فاجأ ياسين: أرجوك أن تقول لجابر أن يتنبه لما قد يكون يُكاد له. أستحلفك برأس

أُبيّ أن يبقى هذا الكلام سراً بيننا. لو ذكرت اسمي فسيقطعون رأسي. المهم أن جابر في خطر ما داموا يسألون عنه، وهو منهم.

– أتكون منهم يا منيب؟

سأل ياسين مشدوهاً وخائفاً، وترك منيب يخرج بلا وداع، ليلاقي ليلاً جديداً ملتوتاً بالدم، لكنه لا يشبه يقطينة ملتوتة بالماء، ولم يكن هو يسفّ كما يليق بعجوز، إذ كان ينتظره ما ليس بالحسبان.

بين الهوتة والقفص

ما إن عاد للسيارة زجاجها، واغتسلت غير عابئة بما خلفت لها الغارة من السحجات، حتى انطلق منيب بها شمالاً، ملبياً نداءً غامضاً لم يهدأ طوال الليالي الثلاث الماضية.

كان الصوت صوت موسى مرة، وصوت هفاف مرة. وفي النوم العميق العميق رأى منيب موسى وهفاف معاً يوافيانه قرب الهوتة، فقاد السيارة في الساعة العاشرة من ضحى الثلاثاء، وليس بسرعة السلحفاة هذه المرة.

من الرقة إلى تل السمن ظل يحدو له السؤال: لماذا لم يعتقلوك حتى الآن؟ علاقتك بهفاف وحدها سبب كاف، علاقتك بموسى، علاقتك بإسلام، حتى بعبد العفيف غنام، والآن بجابر الخليل. ليس أكثر من الأسباب الكافية لكي يعتقلوك. وكما استدعيت للتحقيق على عهد الأمير أبو لقمان أو الأمير أبو علي الأنباري، استدعيت مرتين هذا الأسبوع، فاحذر الثالثة.

عند مفرق تل السمن أخطأت السيارة، إذ أسرعت حتى أشرفت على نهود البنات بمحاذاة نهر البليخ. ولما اكتشفت خطأها عادت بأسرع إلى المفرق وتقدمت إلى عين عيسى، ولكن بتأنٍ، كأنها تبحث عن آثار للفرقة ١٧، أما هو فكانت

عيناه تجوسان قريباً وبعيداً، وتزيدان انقباضاً كلما عادتا أكبر ذعراً، كأنما تلتجئان من وحوش فالتة وجثث مهتوكة.

من الفضاء البلقع فرّ وترك السيارة تضيع حتى ألجمها منادٍ ينادي: أهلاً بكم في الهوتة، وما أدراك ما الهوتة.

مسكونة بالرعب تقافزت نظراته في الجهات جميعاً، ولما رأت في أي فضاء بلقع هي، همس صوت في أذن منيب: أنت جئت إلى حتفك، ولم يأت بك أحد. لكن قبضتيه ضربتا مقود السيارة وصاحتا: موسى هو من جاء بي، هفاف هي من جاءت بي، وأمر السيارة، فاستدارت بعنف، ثم أمرها بالفرار، لكنها أشارت إلى شبح يقترب.

عميت عينا منيب، وصدّق كل ما اجتمع له في الأيام الثلاثة الماضية عن هذه الهوتة التي مثلها هوتات، لكن هوتة سلوك وحدها تسكنها سلعوة وتقتات بمن يلقون في جوف الهوتة، أحياء أو أمواتاً، سواء بسواء. وهذه هي الكواسر التي لن توفرك حياً إن لم تقع على ميت. لا تنزل من السيارة إذاً. استعد لتدهس الشبح قبل أن يظفر بك. لكن الشبح راح يتكشف خطوة خطوة عن وجه أليف، العينان على الأقل أليفتان، الذقن ذقن وحش والشعر شعر وحش، لكن هذه الخطوات أليفة، هذه القامة، هذه الابتسامة وهذا الصوت: ما بك يا منيب؟ أنا موسى.

صاح منيب وهو يندفع خارج السيارة:

- أين هفاف؟

وعلى كتف موسى بكى، وانقاد له حتى تربّع في ظل السيارة، فتربّع منيب أمامه مشوقاً، كأنه طفل يتكور في حضن جدته لتحكي له حكاية هفاف. وما دامت هفاف مرمية في الهوتة منذ شهور، كما يؤكد موسى، فعلى الجدة أن تحكي لحفيدها حكاية الهوتة.

قال موسى: ها هنا رمى داعش بمن أسر من الجيش الحر ومن أحرار الشام ومن جبهة النصرة ومن الفرقة ١٧ ومن كل من حلت عليه الغضبة الداعشية. وقال موسى: لو أنك جئت الأسبوع الماضي لصرعتك الروائح وحدها، لكن داعش يرسل كل شهر أو شهرين بصهريج مترع بالنفط الخام، وينعم به على الهوتة، فيطيّب الهواء، شمّ.

وهم إذاً حرقوا هفاف: سأل الطفل، فقال موسى: ليست هفاف وحدها. الأب باولو أيضاً، أم باسيل، عبد العفيف غنام. وسنية يا موسى؟ سأل منيب فأشار موسى إلى يمينه: سنية هنا، وإلى صدره: سنية هنا، ودارت ذراعه في الفضاء دورات وهو يكرر: سنية هنا.

وأنت، ماذا تفعل هنا يا موسى: سأل منيب عندما صار

قادراً على الكلام، فقال موسى: كنت أقاتل. لا تسألني مع من. قاتلت الجيش وقاتلت داعش وقاتلت موسى العايد نفسه، هل تعرف أحداً بهذا الاسم؟

هل تعرف أنت أحداً باسم منيب حسين الخلف: سأل منيب وهو يقاوم أن تخرج منه الروح. ولما طال الصمت تابع منيب: والآن يا موسى.

بعد صمت أطول قال موسى إنه مهزوم مثله مثل أي سوري، وهذه الحرب ليس فيها غالب يا منيب. كل سوري في هذه الحرب مغلوب. عندما ألقيت سلاحي قلت لهم: تصبحون على موت. قالوا لي: أنتَ هكذا تسلم نفسك إلى من سيقتلك، سواء كان من الحكومة أو من أي معارض لها يحمل السلاح.

قلت: زيدوا: ومن لا يحمل السلاح أيضاً.

تمدد منيب على التراب وأغمض عينيه، فعاجلته غفوةٌ يقظى أو يقظة غافية، ورأى نفسه وموسى بين أيدٍ تؤرجحهما أقوى فأقوى قريباً من فوهة الهوتة. وفي قاع الهوتة ظهرت أيدٍ كثيرة تتسابق كي تتلقف جثتي موسى ومنيب. لكن الحياة تعود إلى الجثتين، فيهرب منيب وموسى، ويمعنان في الهرب أسرع وأبعد حتى يبلغا الفرات الذي اقترب من الرقة كثيراً، وإذا بمسلحين بالمرصاد.

في قفص حديدي صغير زُجَّ بمنيب وموسى اللذين قيدت أيديهما، وربطت أرجلهما إلى كتلة حديدية كبيرة توسطتهما. وتضافرت أيدٍ وأقدام وتكبيرات هائلة على دفع القفص إلى النهر، ونزعت يدٌ الراية السوداء المركوزة أعلى القفص الذي راح يتهادى وهو يغرق شبراً شبراً. ولما بلغ القاع، تخلعت قضبانه وتقطع وثاق أيدي وأرجل منيب وموسى، وكانت هفاف وسنية تتقدمان نحوهما، يتبعهما كثيرون وكثيرات في غناء وزغاريد، بينما صوت مثل صوت الفرات يأتي مرة، ومثل صوت سماوي يأتي مرة، وفي كل مرة يعلن: هذا هو العرس الذي لا ينتهي، في ليلة لا تنتهي، في...

نبيل سليمان - سيرة ذاتية

من السيرة الشخصية

- ولد عام ١٩٤٥.
- تخرج في جامعة دمشق - كلية الآداب - قسم اللغة العربية عام ١٩٦٧.
- عمل في التدريس بين ١٩٦٣و١٩٧٩.
- أسس دار الحوار للنشر والتوزيع عام ١٩٨٢.
- متفرغ للكتابة منذ عام ١٩٨٩.
- شارك وحاضر في العديد من المؤتمرات والندوات والجامعات في: واشنطن - سياتل - أوستن - إسبانيا - السويد - مصر - تونس - الجزائر - المغرب - اليمن - الإمارات العربية المتحدة - البحرين - سلطنة عمان - الكويت - الأردن - لبنان، وسورية.

المؤلفات

أ- في الرواية:

١- ينداح الطوفان: الطبعة الأولى ١٩٧٠ - الطبعة الثالثة ١٩٩٤.

٢- السجن: الطبعة الأولى ١٩٧٢ - الطبعة الخامسة ١٩٩٩ م.

٣- ثلج الصيف: الطبعة الأولى ١٩٧٣ - الطبعة الرابعة ١٩٩٤.

٤- جرماتي: الطبعة الأولى ١٩٧٧ - الطبعة الثالثة ٢٠٠٥.

٥- المسلّة: الطبعة الأولى ١٩٨٠ - الطبعة الرابعة ٢٠٠٤.

٦- هزائم مبكرة: الطبعة الأولى ١٩٨٥ - الطبعة الثالثة ١٩٩٤.

٧- قيس يبكي: الطبعة الأولى ١٩٨٨ - الطبعة الثانية ١٩٩٥.

٨- مدارات الشرق: الجزء الأول: الأشرعة - الطبعة الأولى ١٩٩٠، الطبعة الثانية ١٩٩٤.

٩- مدارات الشرق: الجزء الثاني: بنات نعش - الطبعة الأولى ١٩٩٠ - الطبعة الثانية ١٩٩٤.

١٠- مدارات الشرق: الجزء الثالث: التيجان - الطبعة الأولى ١٩٩٣.

١١- مدارات الشرق: الجزء الرابع: الشقائق ـ الطبعة الأولى ١٩٩٣.
١٢- أطياف العرش: الطبعة الأولى ١٩٩٥ ـ الطبعة الثانية ٢٠٠٠.
١٣- مجاز العشق: الطبعة الأولى ١٩٩٨ ـ الطبعة الثانية ٢٠٠١.
١٤- سمر الليالي: الطبعة الأولى ٢٠٠٠.
١٥- في غيابها ـ الطبعة الأولى ٢٠٠٣.
١٦- درج الليل... درج النهار ـ الطبعة الأولى ٢٠٠٥.
١٧- دلعون: الطبعة الأولى ٢٠٠٦
١٨- حجر السرائر: الطبعة الأولى ٢٠١٠
١٩- مدائن الأرجوان: الطبعة الأولى ٢٠١٣
٢٠- جداريات الشام _ نمنوما_ الطبعة الأولى ٢٠١٤
٢١- ليل العالم: الطبعة الأولى ٢٠١٦

ب- في النقد الأدبي والثقافي:

٢٢- الأدب والأيديولوجيا في سورية (بالاشتراك مع بوعلي ياسين) الطبعة الأولى ١٩٧٤ ـ الطبعة الثانية ١٩٨٥.
٢٣- أيديولوجية السلطة ـ الطبعة الثالثة ١٩٨٩.
٢٤- النقد الأدبي في سورية ـ الطبعة الأولى ١٩٨٢.
٢٥- مساهمة في نقد النقد الأدبي ـ الطبعة الأولى ١٩٨٢ ـ الطبعة الثانية ١٩٨٦.
٢٦- أسئلة الواقعية والالتزام ـ الطبعة الأولى ١٩٨٥ ـ الطبعة الرابعة ٢٠٠٥.
٢٧- وعي الذات والعالم ـ الطبعة الأولى ١٩٨٨ ـ الطبعة الثانية ٢٠٠١.
٢٨- الماركسية والتراث العربي الإسلامي ـ الطبعة الأولى ١٩٨٨.
٢٩- في الإبداع والنقد ـ الطبعة الأولى ١٩٨٩ ـ الطبعة الثالثة ٢٠٠١.
٣٠- فتنة السرد والنقد ـ الطبعة الأولى ١٩٩٤ ـ الطبعة الثالثة ٢٠٠٥.
٣١- سيرة القارئ: الطبعة الأولى ١٩٩٦.
٣٢- حوارات وشهادات: الطبعة الأولى ١٩٩٥.
٣٣- الثقافة بين السلام والظلام: ١٩٩٦.
٣٤- حوارية الواقع والخطاب الروائي: الطبعة الأولى ١٩٩٨.
٣٥- بمثابة البيان الروائي: الطبعة الأولى ١٩٩٨.
٣٦- الرواية والحرب: الطبعة الأولى ١٩٩٩.
٣٧- الرواية العربية رسوم وقراءات: الطبعة الأولى ١٩٩٩.

٣٨- المتن المثلث: الطبعة الثانية ٢٠٠٤.
٣٩- الكتابة والاستجابة: الطبعة الأولى ٢٠٠٠.
٤٠- أقواس في الحياة الثقافية ـ الطبعة الأولى ٢٠٠١.
٤١- بدوي الجبل ـ منتخبات: إعداد وتقديم، الطبعة الأولى ٢٠٠٢.
٤٢- كتاب الاحتفاء، الطبعة الأولى ٢٠٠٣.
٤٢- جماليات وشواغل روائية، الطبعة الأولى ٢٠٠٣.
٤٣- السيرة النصية والسيرة المجتمعية ـ الطبعة الأولى ٢٠٠٤.
٤٤ - أسرار التخييل الروائي: الطبعة الأولى ٢٠٠٥.
٤٥ - رجع المجالس: الطبعة الأولى ٢٠٠٨.
٤٦ - عبد السلام العجيلي: الطبعة الأولى ٢٠٠٨.
٤٧ - شهرزاد المعاصرة: الطبعة الأولى ٢٠١٠.
٤٨ - المساهمة الروائية للكاتبة العربية: الطبعة الأولى ٢٠١٤.
٤٩- أخيولات روائية للقمع والطائفية: الطبعة الأولى ٢٠١٥
٥٠- غابة السرد الروائي: الطبعة الأولى ٢٠١٥

ملاحظة:

١- إضافة إلى الطبعة الرابعة من ثلج الصيف صدرت في تونس طبعة خاصة عام ١٩٨٨ عن مؤسسة سعيدان، وذكر فيها خطأ أنها الطبعة الأولى.

٢- صدرت الطبعة الأولى من أيديولوجية السلطة عام ١٩٧٨ بعنوان النسوية في الكتاب المدرسي السوري، عن وزارة الثقافة بدمشق.

٣- صدر للكاتب بالاشتراك مع بوعلي ياسين ومحمد كامل الخطيب كتاب (معارك ثقافية في سورية) عام ١٩٨٠، وقد تصرف فيما بعد كلٌّ بما يخصّه من مادة الكتاب. كذلك شأن كتاب (الرواية العربية المعاصرة بين الواقع والأيديولوجية)، والذي ضمّ مساهمتين ليمنى العيد ومحمود أمين العالم، إضافة إلى مساهمة الكاتب، وصدر عام ١٩٨٦.

٤- صدرت الطبعة الأولى من كتاب أسئلة الواقعية والالتزام في دار الحوار باللاذقية ودار الهمداني في عدن، كما صدرت عام ١٩٨٦ طبعة منه في دار ابن رشد ـ عمان، وذُكر فيها خطأ أنها الطبعة الأولى.

٥- صدرت الطبعة الأولى من كتاب (حوارية الواقع والخطاب الروائي) عام ١٩٨٢ بعنوان (الرواية السورية).

الجوائز:

١- جائزة غالب هلسا للإبداع الثقافي - ١٩٩٥

٢- جائزة باشراحيل للإبداع الثقافي _ ٢٠٠٤

الترجمات:

١- ترجمت (ينداح الطوفان) للروسية، وقام بالترجمة زغيرسكي وصدرت عن دار رادوغا عام ١٩٨٧.

٢- ترجمت (قيس يبكي) إلى الإسبانية وصدرت عن دار كانتنا آرابيا في مدريد، عام ١٩٩٣ وقامت بالترجمة: بيلين فيرناندز ديل بينو وملك صهيوني.

٣- ترجم الجزء الأول من مدارات الشرق (الأشرعة) إلى الفارسية وسيصدر هذا العام.

دراسات منشورة حول أعمال الكاتب:

١- نحو ملحمة روائية عربية - محسن يوسف ١٩٩١.

٢- الرواية والتاريخ - محمد جمال باروت وعبد الرزاق عيد ١٩٩١.

٣- قراءات في تجربة روائية - سمر روحي الفيصل ١٩٩٢.

٤- المعالجة الفنية للتاريخ - محمد عادل عرب ١٩٩٣.

٥- الرواية بين النظرية والتطبيق - راكز أحمد ١٩٩٤.

٦- فضاء النص الروائي في أدب نبيل سليمان - محمد عزام ١٩٩٦.

٧- نبيل سليمان أو ربع قرن من الكتابة - مجموعة - ١٩٩٦.

٨- تشكل المكونات الروائية - المويقن مصطفى ٢٠٠١.

٩- جماليات التشكيل الروائي _ محمد صابر عبيد _ سوسن البياتي _ ٢٠٠٨.

١٠- مجنون المجاز- مجموعة من الكتاب - ٢٠٠٨

١١- شعرية السرد وسيميائيته - عبير حسن علام -٢٠١٢

١٢- بناء العالم الروائي - ناصر نمر محي الدين -٢٠١٢

السينما والتلفزيون:

١- قصة (الغضب): المؤسسة العامة للسينما - سورية ١٩٧٣.

٢- سيناريو الفيلم التلفزيوني (فهيم) - التلفزيون السوري ١٩٨٥.

٣- عن رواية (أطياف العرش) أنتجت شركة الشام مسلسل (الطويبي) والفيلم السينمائي (الرسالة) عام ١٩٩٩.

المحتويات

كالمقدمات	٩
كالمتون	١٨
فصول من زمن الخنق	١٩
فصول من زمن العشق	١٤٣
فصول من زمن التيه	٢٥٨
فصول من ربيع أبيض.. ربيع أسود	٣٠٧
نبيل سليمان - سيرة ذاتية	٤٦٢

كتاب «دبي الثقافية»
سلسلة دورية تصدر عن
مجلة دبي الثقافية

١- «نجيب محفوظ.. قيصر الرواية العربية» - ١٩٩٩.

٢- «سلطان العويس.. شمس الثقافة التي لا تغيب» - ٢٠٠٠.

٣- «المبدعون» - النصوص الفائزة في مسابقة «المبدعون» - الدورة الأولى - ٢٠٠١.

٤- «نازك الملائكة.. أميرة الشعر الحديث» - ٢٠٠١.

٥- «الرنين» - المجموعة الشعرية الفائزة بالجائزة الأولى في مسابقة «المبدعون» - الدورة الثانية - للشاعر السوري أيمن إبراهيم معروف - ٢٠٠٢.

٦- «مدارج الرحيل» - الرواية الفائزة بالجائزة الأولى في مسابقة «المبدعون» - الدورة الثانية - للروائي المصري خالد أحمد السيد - ٢٠٠٢.

٧- «غشاوة» - المجموعة القصصية الفائزة بالجائزة الأولى في مسابقة «المبدعون» - الدورة الثانية - للقاصة الإماراتية عائشة الزعابي - ٢٠٠٢.

٨- «حمد أبو شهاب في ذاكرة الإمارات» - ٢٠٠٢.

٩- «ليالي الحصار.. أحزان عراقية» - شعر - نصوص لشعراء العراق - فبراير ٢٠٠٣.

١٠- «السماء تخبّئ أجراسها» - المجموعة الشعرية الفائزة بالمركز الأول في جائزة «الصدى» للمبدعين - الدورة الثالثة - للشاعر المصري بشير رفعت - ٢٠٠٤.

١١- «تيار هواء» - المجموعة القصصية الفائزة بالمركز الأول في جائزة «الصدى» للمبدعين - الدورة الثالثة - للكاتبة المغربية حنان درقاوي - ٢٠٠٤.

١٢- «الانكسار» - الرواية الفائزة بالمركز الأول في جائزة «الصدى» للمبدعين - الدورة الثالثة - للكاتب السوري عامر الدبك - ٢٠٠٤.

١٣- «البار الأمريكي» - المجموعة القصصية الفائزة بالمركز الأول في جائزة «دبي الثقافية» للإبداع - الدورة الخامسة ٢٠٠٦/٢٠٠٧ للكاتب العراقي وارد بدر السالم.

١٤- «إلى الأبد.. و... يوم» - الرواية الفائزة بالمركز الأول في جائزة «دبي الثقافية» للإبداع - الدورة الخامسة ٢٠٠٦/٢٠٠٧ للكاتب السوري عادل محمود.

١٥- «قمر أور» - المجموعة الشعرية الفائزة بالمركز الأول في جائزة «دبي الثقافية» للإبداع - الدورة الخامسة ٢٠٠٦/٢٠٠٧ للشاعر العراقي عامر عاصي جبار..

١٦- «مقالات رجاء النقاش» في «دبي الثقافية» - ٢٠٠٨.

١٧- «ليس الماء وحده جواباً عن العطش» - أدونيس - أكتوبر ٢٠٠٨

١٨- «قصيدة النثر أو القصيدة الخرساء» - أحمد عبدالمعطي حجازي - نوفمبر - ٢٠٠٨

١٩- «مدارات في الثقافة والأدب» - عبد العزيز المقالح - ديسمبر - ٢٠٠٨

٢٠ - «من أنت أيها الملاك» - إبراهيم الكوني - يناير - ٢٠٠٩

٢١- «النقد الأدبي والهوية الثقافية» جابر عصفور- فبراير - ٢٠٠٩

٢٢- «قصائد من شعراء جائزة نوبل» اختارها وترجمها د.شهاب غانم - مارس- ٢٠٠٩

٢٣- «الأغاريد والعناقيد» - سيف محمد المري - أبريل - ٢٠٠٩

٢٤- «رواية الحرب اللبنانية.. مدخل ونماذج» - عبده وازن - مايو- ٢٠٠٩

٢٥- «هنا بغداد» - كريم العراقي - يونيو - ٢٠٠٩

٢٦- «أراجيح تغنّي للأطفال» - سليمان العيسى - يوليو - ٢٠٠٩

٢٧- «الحضارات الأولى - الأصول.. والأساطير» - تأليف/ غلين دانيال، ترجمة/ سعيد الغانمي - أغسطس - ٢٠٠٩

٢٨- «محمود درويش حالة شعرية» - صلاح فضل - سبتمبر - ٢٠٠٩

٢٩- «أنثى السراب (شكْرِيبْتُورْيُومْ)» - واسيني الاعرج - أكتوبر - ٢٠٠٩

٣٠- «حيثُ السحَرة ينادون بعضهَم بأسماء مُستعارة» - سيف الرحبي - نوفمبر - ٢٠٠٩

٣١- «في غيبوبة الذكرى» (دراسات في قصيدة الحداثة) - د. حاتم الصكر - ديسمبر - ٢٠٠٩

٣٢- «وليم شكسبير (سونيتات)» - د. كمال أبو ديب - يناير - ٢٠١٠

٣٣- «العمارة الإسلامية (من الصين إلى الأندلس)» - د. خالد عزب - فبراير - ٢٠١٠

٣٤ - «نحو وعي ثقافي جديد» - د. عبد السلام المسدّي - مارس - ٢٠١٠

٣٥ - «لكي ترسم صورة طائر وقصائد أخرى من الشرق والغرب» - اختارها وترجمها د. شهاب غانم - أبريل - ٢٠١٠

٣٦ - «السرْد والكِتاب» - محمد خضيّر - مايو - ٢٠١٠

٣٧ - «طائر الشعر» - سالم الزمر - يونيو - ٢٠١٠

٣٨ - «أنا والسوريالية» - ترجمة: أشرف أبو اليزيد - يوليو - ٢٠١٠

٣٩ - «الحراك الاجتماعي الكويتي في القصة القصيرة» - د. فاطمة يوسف العلي - أغسطس - ٢٠١٠

٤٠ - «فضاءٌ لغبار الطّلع» - أدونيس - سبتمبر - ٢٠١٠

٤١ - «حجر السرائر» - نبيل سليمان - أكتوبر - ٢٠١٠

٤٢ - «حَبّات و محَبّات» - المنصف المزغني - نوفمبر - ٢٠١٠

٤٣ - «الخطاب الشعري الحديث في الإمارات» - (الجزء الأول) - د. صالح هويدي - ديسمبر - ٢٠١٠

٤٤ - «بابل الشعر» - أحمد عبدالمعطي حجازي - يناير ٢٠١١

٤٥ - «مرايا النخل والصحراء» - د.عبد العزيز المقالح - فبراير ٢٠١١

٤٦ - «رغبات منتصف الحبّ» - زاهي وهبي - مارس ٢٠١١

٤٧ - «المحكمة» - كَريم العراقي - مارس ٢٠١١

٤٨ - «منفى اللغة» - (حوارات مع الأدباء الفرانكوفونيين) - شاكر نوري - أبريل ٢٠١١

٤٩ - «الرواية العربية ورهان التجدد» - د. محمد برادة - مايو ٢٠١١

٥٠ - «مئة قصيدة وقصيدة» - د. شهاب غانم - يونيو ٢٠١١

٥١ - «حُلمٌ حقيقي» - محمود الريماوي - يوليو ٢٠١١

٥٢ - «قصائد في الذاكرة» - قراءات استعادية لنصوص شعرية - د.حاتم الصكر - أغسطس ٢٠١١

٥٣ - «جنوب غرب طروادة، جنوب شرق قرطاجة» - إبراهيم الكوني - سبتمبر ٢٠١١

٥٤ –«الفاتنـــة» – جمال بن حويرب – أكتوبر ٢٠١١

٥٥ –«الرواية والاستنارة» – د. جابر عصفور – نوفمبر ٢٠١١

٥٦ –«دونَ أنْ أرتَوي» – (قصائد مختارة) – خُلود المُعلا – ديسمبر ٢٠١١

٥٧ –«في الشعر الإفريقي المعاصر» – (جيل الرواد نموذجاً) – تقديم وترجمة د. حسن الغُرفي – يناير ٢٠١٢

٥٨ –«ينام على الشجر الأخضر الطير» – محمّد علي شمس الدين – فبراير ٢٠١٢

٥٩ –«أَصَابِعُ لُولِيتَا» – واسيني الأعرج – مارس ٢٠١٢

٦٠ –«أمين معلوف.. العابر التخوم» – بقلم/ عبده وازن – أبريل ٢٠١٢

٦١ –«رُباعيّات الرّاوي» – شعر/ حارث طه الرّاوي – أبريل ٢٠١٢

٦٢ –«الاستشراق وسحر حضارة الشرق» – د. إيناس حسني – مايو ٢٠١٢

٦٣ –رواية «فرسان الأحلام القتيلة» – إبراهيم الكوني – يونيو ٢٠١٢

٦٤ –«موريتانيا موطن الشعر والفصاحة» – موفق عبدالفتاح العاني – يوليو ٢٠١٢

٦٥ – «من أوراق صحفي عراقي» – محسن حسين – يوليو ٢٠١٢

٦٦ – «هذا العالم مجرد مسرح»، قصائد من الشرق والغرب – اختارها وترجمها: د شهاب غانم – أغسطس ٢٠١٢

٦٧ – «ألفُ حياةٍ وحياة»، للشاعر الكوري: كُو أوْن – ترجمة: أشرف أبو اليزيد – أغسطس ٢٠١٢

٦٨ – «فضاء التأويل» – د. عبد السّلام المسدّي – سبتمبر ٢٠١٢

٦٩ – «الصعود إلى الجبل الأخضر» – سيف الرحبي – أكتوبر ٢٠١٢

٧٠ – «الفراشة» – بروين حبيب – أكتوبر ٢٠١٢

٧١ – «شؤون وقضايا مسرحية» – فرحان بلبل – نوفمبر ٢٠١٢

٧٢ – «رحلة في بلاد ماركين» – أمجد ناصر – نوفمبر ٢٠١٢

٧٣ – «هواجس الرواية الخليجية» – د. الرشيد بوشعير – ديسمبر ٢٠١٢

٧٤ – «أجراس الحروف» – سيف المري – يناير ٢٠١٣

٧٥ – «في النقد التكاملي» – د. إبراهيم محمد الوحش – يناير ٢٠١٣

٧٦ – رواية «الظل الأبيض» (تجربة في الاستنارة) – عادل خزام – فبراير ٢٠١٣

٧٧ – السّردُ و أسئلة الكينونة أو «التنزُّهُ في غابَةِ السَّرد» – د. حاتم بن التهامي الفطناسي – فبراير ٢٠١٣

٧٨ – رواية «مدائن الأرجوان» – نبيل سليمان – مارس ٢٠١٣

٧٩ – «مختارات من قصائد جلال الدين الرومي» – ترجمة: تحسين عبد الجبار إسماعيل – أبريل ٢٠١٣

٨٠ – «مفاتيح لزنزانة الروح» – محمد علي الخضور – أبريل ٢٠١٣

٨١ – «لا شيء يشبهنا معاً» – عائشة محمد الشيخ – أبريل ٢٠١٣

٨٢ – «كبرياء جريح» – قصائد مختارة – تأليف: مارينا تسفيتاييفا – ترجمة وإعداد: إبراهيم استنبولي – مايو ٢٠١٣

٨٣ – «كتابات النور اللحمر» – نصوص – النور أحمد علي – مايو ٢٠١٣

٨٤ – «رُسُل المَوت» – نص مسرحي – هبة فاروق – مايو ٢٠١٣

٨٥ – «مملكة الفراشة» – واسيني الأعرج – يونيو ٢٠١٣

٨٦ – «عطب الرّوح» – زينب الأعوج – يونيو ٢٠١٣

٨٧ – «يومُ قابيل» – نوري الجرّاح – يوليو ٢٠١٣

٨٨ – «هلاوس» – نهى محمود – يوليو ٢٠١٣

٨٩ – «ضد الغياب» – عبد الصمد بن شريف – أغسطس ٢٠١٣

٩٠ – «حكايات مدن بين الهامش والمتن» – جمال حيدر – أغسطس ٢٠١٣

٩١ – «مآذن وأبراج» – حمود نوفل – سبتمبر ٢٠١٣

٩٢ – «بيضة على الشاطئ» – شريف صالح – سبتمبر ٢٠١٣

٩٣ – «سوانح» – كريم معتوق – أكتوبر ٢٠١٣

٩٤ – «زوجة الملح» – يوسف أبو لوز – أكتوبر ٢٠١٣

٩٥ – «المرأة وعالم نجيب محفوظ» – عبد الإله عبد القادر – نوفمبر ٢٠١٣

٩٦ – «في مديح الحب» – حمدة خميس – نوفمبر ٢٠١٣

٩٧ – «من الشرق الى الغرب (يوميّات)» – سيف الرحبي – ديسمبر ٢٠١٣

٩٨ – «نصف كأس من الأمل» – شعر / أحمد العجمي – ديسمبر ٢٠١٣

٩٩ – «بوابات المسرح» – محمود أبو العباس – يناير ٢٠١٤

١٠٠ – «مختارات قصصية لأدباء جائزة نوبل» – ترجمة: عبدالسلام إبراهيم – يناير ٢٠١٤

١٠١ – «السيف والمرآة – رحلة في جزر الواق واق» – علي كنعان – فبراير ٢٠١٤

١٠٢ – «التأسيس والتحديث في تيارات المسرح العربي الحديث» – د.عبدالكريم برشيد – فبراير ٢٠١٤

١٠٣ – «طرب وعُرب» – د. معلا غانم – مارس ٢٠١٤

١٠٤ – «الحياة بعين ثالثة» – عادل خزام – أبريل ٢٠١٤

١٠٥ – «(فرانكفونيون ومصريون) مختارات من القصيدة الفرنسية في مصر» – ترجمة وإعداد: أحمد عثمان – أبريل ٢٠١٤

١٠٦ – (جداريات الشام «نمنوما») – رواية – نبيل سليمان – مايو ٢٠١٤

١٠٧ – «مطر الليل وقصائد من الشرق والغرب» – اختارها وترجمها إلى العربية د. شهاب غانم – يونيو ٢٠١٤

١٠٨ – «بوق العاج» – شعر – صلاح أحمد إبراهيم – يونيو ٢٠١٤

١٠٩ – (هديرُ السَّرد الخمايسي في «السبنسة») – مصطفى عبد الله – يوليو ٢٠١٤

١١٠ – «على جناح الهوى المرأة والإبداع» – ظبية خميس – يوليو ٢٠١٤

١١١ – «هكذا تكلّمت الأغاني» – د. نجوة قصاب حسن – أغسطس ٢٠١٤

١١٢ – «الجاحظية بيتُنا (الطاهر وطار نضال في كل الاتجاهات)» – محمد حسين طلبي – أغسطس ٢٠١٤

١١٣ – «على أبواب بغداد » – رواية / قاسم حول – سبتمبر ٢٠١٤

١١٤ – «أيتها الفراشة.. يا اسم حبيبتي» – شعر / إبراهيم المصري – سبتمبر ٢٠١٤

١١٥ – «الرحلة المغربية إلى بلاد الأرجنتين وتشيلي البهية» – أحمد المديني – أكتوبر ٢٠١٤

١١٦ – «الهُوية والمنهجية بين الإبداع والتهافت» – محمد وردي – أكتوبر ٢٠١٤

١١٧ – «سِيرَةُ المُنْتَهَى – عِشْتُهَا... كَمَا اشْتَهَتْنِي» – واسيني الأعرج – نوفمبر ٢٠١٤

١١٨ – «ظاهرة العنف في الخطاب الروائي العربي» –عزت عمر – ديسمبر ٢٠١٤

١١٩ – «عمّ تبحث في مراكش» (قصص) – محمود الريماوي – يناير ٢٠١٥

١٢٠ – «عن الحب والثأر وأشياء أخرى» (قصص من الأدب العالمي) – ترجمة: سنية سلمان – يناير ٢٠١٥

١٢١ – «البوح اللطيف» (شذرات) – عبدالسلام المسدي – فبراير ٢٠١٥

١٢٢ – «بدأتُ مع البحر» (شعر) – محمد عبدالله البريكي – فبراير ٢٠١٥

١٢٣ – «الضحك تاريخ وفن» – نصر الدين البحرة – مارس ٢٠١٥

١٢٤ – «خَرائِطُ مَمْلَكَةِ العَيْنِ» – شعر– عبدالرزّاق الربيعي – أبريل ٢٠١٥

١٢٥ – «صورةٌ جَماعية لي وَحدي» – شعر– إبراهيم جابر إبراهيم – أبريل ٢٠١٥

١٢٦ – «عشق وحداد» – مختارات من الشعر العالمي– ترجمة: الرداد شراطي – مايو ٢٠١٥

١٢٧ – «الفرار في عام ١٩٣٤» – قصص صينية – تأليف: سوتونغ – ترجمة: يارا المصري – مايو ٢٠١٥

١٢٨ – «أصوات الرواية: حوارات مع نخبة من الروائيات والروائيين» – ترجمة وتقديم: لطفية الدليمي – يونيو ٢٠١٥

١٢٩ – «المسرح والشعر» – د. هيثم يحيى الخواجة – يوليو ٢٠١٥

١٣٠ – «على الهامش.. قراءات عابرة في روايات عربية معاصرة» – محمد ولد محمد سالم – يوليو ٢٠١٥

١٣١ – «جبرا إبراهيم جبرا» – د.فيصل دراج – أغسطس ٢٠١٥

١٣٢ – «النحتُ في صُخورِ الألماس» – جائزة دبي الثقافية للإبداع – الدورة الثامنة – ٢٠١٢ – ٢٠١٣ – المركز الأول في الرواية – ميسرة الهادي – أغسطس ٢٠١٥

١٣٣ – «ذلك الشيء الصغير وسيد التبديات» –تأليف: تشارلز سيميك – ترجمة: أحمد م. أحمد – سبتمبر ٢٠١٥

١٣٤ - «غامضٌ مثل الحياة وواضحٌ كالموت» - حسن إبراهيم الحسن - المركز الأول في الشعر - سبتمبر ٢٠١٥

١٣٥ - «جماليات المكان في العرض المسرحي المعاصر» - كريم رشيد - أكتوبر ٢٠١٥

١٣٦ - «جنوب» - جائزة دبي الثقافية للإبداع - الدورة الثامنة - ٢٠١٢ - ٢٠١٣ - المركز الأول في التأليف المسرحي -يوسف الريحاني - أكتوبر ٢٠١٥

١٣٧ - «المجلات الثقافية في الوطن العربي» -تأليف: د. محمد درويش درويش، دعاء وحيد فؤاد، هبة زين العابدين أحمد - نوفمبر ٢٠١٥

١٣٨ - «الحوار الثقافي والإعلامي بين الشرق والغرب: تحليلات وآليات» -تأليف: أندرو حبيب - المركز الأول في الحوار مع الغرب - نوفمبر ٢٠١٥

١٣٩ - «أسئلة الهوية والتسامح وثقافة الحوار» -د. يوسف الحسن- ديسمبر ٢٠١٥

١٤٠ - «ملكوت عبدالله» - ديوان للراحل محمد عفيفي مطر- ديسمبر ٢٠١٥

١٤١ - «ليل العالم» - رواية نبيل سليمان- يناير ٢٠١٦

١٤٢ - «شعراء سفراء» - إبراهيم مضواح الألمعي- يناير ٢٠١٦

ملاحظة:

سلسلة كتاب «دبي الثقافية» كانت تصدر أولاً تحت اسم كتاب «الصدى» ثم أصدر رئيس التحرير الأستاذ سيف المري قراراً بتغيير اسم السلسلة بعد صدور مجلة «دبي الثقافية» في مطلع أكتوبر/تشرين الأول ٢٠٠٤؛ ليصبح اسمها «كتاب دبي الثقافية».

كتـــاب دبـــي الثقافيـــة

يصدر أول كل شهر ويوزع مجاناً مع مجلة دبي الثقافية

رئيس التحرير: سيف المري

الكتــاب المقبــل

فبراير ٢٠١٦

عن الشعر
في زمن اللاشعر
د. رشيد بنحدو

دعوة عشاء
وقصص أخرى
د. صالح خليل أبوأصبع

الرقم الدولي
ISBN978-9948-13-519-7

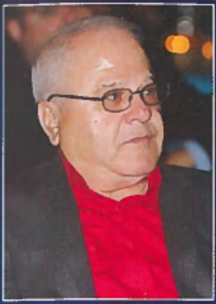

نبيل سليمان

ها نحن ذا في «دبي الثقافية» نقدم لكم هذا الإصدار للناقد والروائي نبيل سليمان، واضعين نصب أعيننا ما نذرنا أنفسنا له. وهو نشر الثقافة العربية وتقديمها للقراء الأعزاء من خلال كتاب «دبي الثقافية» الشهري. مع حرصنا على التنويع في شتى مشاربنا الثقافية. تعميماً للنفع. وحرصاً على محاربة الرتابة المفضية إلى الملل. ولن نألو جهداً في إضافة المزيد.

سيف المري